صدقي إسماعيل

الحادثة

ثلاثية روائية

مكتبة علي بن صالح الرقمية

صدقي إسماعيل

الحـــادثـــــة

ثلاثية روائية

رواية

1977

كتب أونلاين
للأطفال

مكتبة علي بن صالح الرقمية

هذه الرواية

نبيل سليمان

في عام 1982 صدر المجلد الخامس من المؤلفات الكاملة لصدقي إسماعيل، وقد ظهرت في هذا المجلد لأول مرة مخطوطتان هما: (حب المرقش الأكبر) و (الحادثة).

عن الأولى – والتي حملت عنواناً فرعياً هو (قصة تاريخية) – يحدث الكاتب زوجته عواطف الحفار إسماعيل في رسالة لها مؤرخة في 15/5/1954. والقصة مكتوبة إذن منذ ذلك الحين، وقد تأخر نشرها ثمان وعشرين سنة، وبلغت اثنتين وخمسين صفحة من القطع الكبير، فهي تترجح بين الرواية القصيرة والقصة الطويلة، وبالأحرى، فهي من (النوفيللا).

بعد سنة يكتب الكاتب لشقيقه أدهم أنه أنجز روايته الأولى (الله والفقر). وقد تأخر نشر هذه الرواية حتى عام 1970. أما (الحادثة) فلم يتوفر لي ما يشير إلى فترة كتابتها. وقد ورد في هامش الصفحة 369 من المجلد الذي ضمّ هذه الرواية، ما تصدّر هذه الطبعة الثانية والكاملة منها، مما يشي بأن التصدير هو لمعدي المؤلفات. وقد أضافت عواطف الحفار هنا إلى هذا التصدير الأسطر الخمسة الأخيرة. وكان أنطون مقدسي قد ذكر في مقدمة المجلد الثالث من المؤلفات الكاملة للكاتب الراحل – والمجلد صادر عام 1979 – أنه كان من مخطط الكاتب وضع ثلاثية لم يترك من جزئيها الباقيين سوى مسودة بسبعين صفحة تحمل اسم (الحادثة). لكن اللافت هنا أن صدقي إسماعيل كان قد ذكر في حوار بدر الدين عرودكي معه[1] أن روايته (الحادثة) جاءت في ألف صفحة، وأنه يكتب رواية أخرى عنوانها (رحلة إلى الغرب) ! .

على أية حال، ها هي رواية (الحادثة) أخيراً بين يدي القراء، غير منقوصة. ولعل الأوْلى أن يبدأ الحديث عنها بالإشارة إلى رواية (العصاة) التي صدرت عام 1964، وشابهت الثلاثية في تصويرها لحياة ثلاثة أجيال من أسرة حلبية، مما يغطي ما بين نهاية القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، بينما تبدأ رواية (الحادثة) بأربعينيات القرن العشرين، وتمضي قدماً حتى قيام الوحدة السورية المصرية عام 1958.

تتبني رواية (العصاة) بالتوليد السردي، وتراهن على الشخصية الروائية، وتثقل عليها غير مرة الحوارات السياسية والحوارات الفلسفية حول الروح والجسد والدين. ويذكر أنطون مقدسي في تقديمه لها ضمن المؤلفات الكاملة لكاتبها، أن الكاتب قال له قبل وفاته بسنتين «سأعيد كتابة العصاة عندما يسعفني الوقت». وحَسْبَ ذلك أن يكون إشارة إلى ما في صدقي إسماعيل من الكاتب المحنك والطموح إلى الكمال. وربما كان التأخر في إنجاز رواية (الحادثة)، من هذا القبيل، فكان أن سبق الموت الكاتب. ويبقى من المهم، فيما أحسب، لقراءة رواية (الحادثة) أن يشار إلى ما صورت رواية (العصاة) من شخصية هاني المنذر السياسي الانتهازي الذي أسس (العصبة) كرد على نكبة 1948، وكبديل للأحزاب يتدرع بالنخبوية. وربما وشت شخصية هاني المنذر بشخصية ميشيل عفلق من مؤسسي حزب البعث العربي، وذلك في جمع المنذر لموظفين وطلاب ومعلمين وضباط في خلايا سرية يتولى قيادتها، وما إن يعتقل حتى يتخلى عن (العصبة) ويعتزل ، مما يذكّر بما كان من عفلق إثر اعتقال حسني الزعيم له، لقد كان هاني المنذر ينادي بإدانة الجميع بعد النكبة، ويروم للعصبة أن تكون الأداة الضاربة لكل وجهة نظر أخرى. وسيتردد بعض ذلك في ثنايا القسم الذي ينشر لأول مرة هنا، من رواية (الحادثة)، بينما سيتراجع فيها ما رآه عدنان إبراهيم في (العصاة) من أن التحزب نوع من الاستبداد.

ولعل استعادة ذلك كله من رواية (العصاة) أن تكون ضرورية لدراسة رواية (الحادثة)، وبخاصة ما ينشر منها لأول مرة، كما سيلي، ولكن بعد هذه الخلاصة لما كنت قد قدمته بصدد ما ظهر من (الحادثة)، وذلك كفقرة من محاولتي لدراسة إرث صدقي إسماعيل بعامة[2].

1- إن سؤال (العصاة) عن الأنموذج، سينتقل من الصدر إلى المتن في (الحادثة)، ليغدو، مع عناصر شتى مماثلة، من قبيل الميتارواية، كما نرى في نهاية الفصل التاسع، حيث يعتقد الشيخ محروس، شقيق الدكتور توفيق، أنه وحده هذا المجمع الشامي التقليدي، وأن كلاًّ من الآخرين هو أنموذج للكل. وقد هجا السارد بتدخله المباشر ما تحمل فكرة النموذج «من طابع تقليدي متهرئ تجاوزه الفن القصصي منذ زمن بعيد».

في الفصل الثامن عشر من رواية (الحادثة)، وبعدما يفيض الكاتب في التحليل العميق الأخاذ لمشاع ليلى، يكتب «يبدو – أول وهلة – أن مثل هذا الإسهاب العفوي المشتت في التعرض لمشاعر الفتاة، لا يعني شيئاً أساسياً في وقائع الرواية، ولا سيما أنه من الوقائع الأكيدة أولاً، وأن سرده على هذا النحو الاحتمالي ثانياً، يلتبس بين الوصف الحيادي والاستنتاج الدخيل والتحليل المجرد، وهي كلها – على ما هو مألوف في الفن القصصي – تفتقر إلى الكثير من اللمسات الحية المحسوسة التي هي وحدها تسعف الآخرين في تمثل الملامح الإنسانية الصادقة لشخصية نسائية من هذا القبيل». وليس يخفى ما في هذا المقتطف، كسابقه، من مكر الرواية إذ تفكر بنفسها، وهذا كله من ريادة صدقي إسماعيل، لما سيتواتر في الرواية الحداثية العربية منذ عقدين.

2- تتضاعف عناية الكاتب في رواية (الحادثة) بشخصية البغي التي سبق أن عني بها في القصة وفي المسرحية. وقد تخلقت البغيّ في رواية (الحادثة) في شخصية سهام التي سيخفيها حاكم حلب إبان الاحتلال الفرنسي (1943)، ويعلن موتها لتظهر باسم الراقصة والمغنية سوسن، والتي ستختفي بدورها لتظهر باسم سلمى. وكما يليق بالحبكة التقليدية، تكون البغي معقد العلاقة الصداقية والصراعية بين المعلم والكاتب الناشئ محمود الرامي، وبين الدكتور توفيق الجابر، وحاكم حلب العميل للاحتلال.

أما محمود فهو يعلن أن سهام انتشلته من حضيض التعاسة، وأعطته كل شيء. وهو يتساءل: «من قال إنها بغي؟» ويردف السؤال بالسؤال الأكبر: «متى كان الجسد وحده مصير الإنسان؟». وقد كتب محمود مرمزاً، في رثاء سهام عندما شاع موتها: «أنت في مكانك السري المغلق من طرف.. والعالم كله من الطرف الآخر.. جميع الآخرين. تمنحينهم رضاك المعطر وتخونينهم جميعاً دون اكتراث. أية رعية مأخوذة يراقب بعضها بعضاً من أجلك، في غيرة وافية؟» وبالنسبة للبغي نفسها، ترى سلمى أن الحب كلمة دخيلة، ونابية، وإذا يؤكد محمود أن هذه الكلمة هي الحقيقة الوحيدة في وجوده مع سلمى، تقول: «إنها السؤال المثقل بالظنون، لا يرد إلا حين يكون هناك إحساس بأن الآخر ما يزال سؤالاً. ليس بيننا آخر». وبينما تتساءل سلمى عن علاقة الوفاء بالجسد، تقرر أن الجسد وحده يمنح المتعة والحماية. وكان صدقي إسماعيل قد كتب في أوراقه المتناثرة التي ضمتها مؤلفاته الكاملة، أن «حياة الإنسان هي الجسد، لأنه بالجسد تصبح الأفكار فعلاً، وتتحول العاطفة إلى عصب ودم، ويكتسي الخيال نفسه لحماً تنبض فيه الدماء الحارة». كما كتب الكاتب أن الجسد شيء من القدر.

3- لعل ما كتب الكاتب عن الصوت والجنس أن يكون وحده امتيازاً (القسمان : الحادي عشر والثاني عشر) كما ارتسما في شخصية توفيق منذ المراهقة.

* * *

مع القسم المنشور من رواية (الحادثة) من قبل، يصح القول بأن لكل قراءة جديدة للنص الثري ما تضفيه. فبالإضافة إلى ما تقدم في البغي، هو ذا محمود يقول: «صحيح أنهم يأخذون جسدها الآن، لكنه جسد جميل، يجب أن يعرف الكثير من التجارب، وقبلة حب طاهر صادرة عن القلب، تغسل كل ما في الجسد.. هذه هي نظرتنا إلى الأمور... أنا وهي». وسيوالي محمود مثل هذا التعبير عن رؤيته ورؤية سهام، أو كما يرد في الرواية، نظراتهما الفلسفية للجسد والجنس. فسهام كما يعبِّر محمود هي المرأة الوحيدة التي يعجز الجميع عن امتلاكها كلياً. وهذه المستهترة في الظاهر، تشعرهم أنهم ليسوا في النهاية «إلا عملية حيوانية سخيفة يسمونها الرجولة». أما سلمى فتخاطب محمود «حين تصبح النظرة سؤالاً.. وإيماءة الأيدي لغزاً.. وكلمة البوح سراً بعيد القرار.. ما يهمني، وأنت في كل جسدي وروحي، أن أمنح

جميع رجال الأرض، كل ليلة، لذة ساعة قذرة؟». ولقد علمها محمود أنها البغي المعلنة، وأنها في حقيقة الأمر، القديسة. ولذلك فهي عندما كانت باسم سهام لا تفعل إلا ما يريد، ولا تؤمن إلا بما يقول، ووحده، كما تقول سلمى، يعلمها الحب، كما أن جميع الرجال، عداه، سواء.

إن سلمى /سوسن/سهام، إن هذا الثالوث (س) كما يقول محمود، هو «الخيال الرائع». ولا يفوت الكاتب أنه يسوق على لسانها من الأفكار المتعلقة بالجسد والجنس والبغاء والرجل والحياة، ما هو أكبر منها، وهي التي لم تبلغ من الثقافة غير قراءة التعريف بالصور في المجلات والصحف، وغير كتابة الرسائل بكلام أقرب إلى العامي. لذلك ساق الكاتب على لسان الدكتور توفيق هذا السؤال الاستنكاري التعجبي: «كيف يمكن أن تفكر فتاة شبه قاصر، ورعناء، وشبه مومس في مثل هذا المنطق؟». وقد اكتفى الكاتب بالسؤال، تاركاً عجب القارئ أو استنكاره معلقاً، بينما تعلق سلمى الجنس البغوي، فلسفياً، بعنوان الرواية. فالبغيّ تحسن إظهار الرعونة والمجون، وفي هذه الحالة يتعرى الرجل بكل طبيعته المضحكة، وفجأة تقول سلمى: «أراه وقد أصبح حادثة آلية، محض حركات عابثة معظمها لا لزوم له».

غير أن لعنوان الرواية متعلقات أخرى، ولا يخفى نزوعها الفلسفي والترميزي لتكون الكلمة الواحدة (الحادثة) مفتاحاً (سحرياً) للرواية. فالدكتور توفيق يحدّث نفسه عن استمتاعه بكل مسرات الشباب، ثم نقرأ: «ولكنك ما تلبث أن تتحول إلى حادثة آلية، مثل أي كائن طبيعي آخر». وبالمقابل، ومع الشيخ محروس الجابر، تعود كلمة (الحادثة) إلى معناها المباشر، فالحادثة تهدم بنيان الأسرة دفعة واحدة، بينما تعود كلمة الحادثة إلى إشعاعها في الفصل التاسع (حول الأنموذج الروائي) حيث نقرأ أن الحادث الروائي تاريخ إنساني حي، وفي مثل هذا التاريخ يموت الأشخاص وتتساقط التجارب البشرية «لكي يبقى ما يمكن أن يلتقطه الفن».

* * *

لقد وسمت البوليسية ما سبق نشره من (الحادثة)، حين كانت حلب فضاء الرواية. لكن هذه السمة المتعلقة باختفاء وظهور البغي بأسمائها الثلاثة، ستختفي بانتقال الرواية إلى دمشق، عندما بارح توفيق حلب. وسوف يستمر اختفاء البوليسية في القسم الذي ينشر من (الحادثة) لأول مرة. كما سيتوالى القفز في الزمن الروائي، وهذا ما نتأ في الفصل الأخير من المنشور سابقاً، حين نعلم في نهايته أن ليلى أم منذ سنوات. وسيتوالى أيضاً الحضور المباشر للسارد كل حين، والذي لا يخلو من الغلظة، كأنْ يقول بصدد رضوان مثلاً: «وكانت خواطره في هذا المضمار على النحو التالي»، أو أن يقول: «ما نزال نستقرئ مشاعر توفيق»، أو أن يقول بصدد الشخصية الجديدة في الفصل الجديد/الثالث : «ومجرد أنني عربي – كما جاء في خاطر زياد – يعني أنني قومي»..

غير أن الأهم في هذا الذي ينشر لأول مرة من (الحادثة) هو الظهور السريع لشخصيات جديدة. وإذا كان الانعطاف بالرواية من حلب إلى دمشق قد أنهى شخصياتها الأساسية الأولى (محمود وسهام والحاكم) فإن الشخصيات الجديدة ستهمش حضور الدكتور توفيق وليلى، وهما من تبقى من الشخصيات الأساسية السابق.

يبدأ ذلك بشخصية صاحب الجريدة التي عمل فيها توفيق وهو طالب يدرس الطب في الجامعة، وموظف أيضاً. وقد بقي لتوفيق هنا نصيب من الحضور، بالعودة إلى طفولته وإلى ارتزاقه من الصحافة. لكن ذلك سيتراجع مع ظهور شخصية جعفر الذي استدعي توفيق لمعالجته، فشخّص ما به كحالة عابرة من جنون الاضطهاد وسببها الجنس. والدواء هو تزويج المجنون من بهية، لكن جعفر سيعزف عن بهية، لتقع في أحضان توفيق. والمهم أن السرد يكاد يُوقَف على قصص والدة جعفر وزوجها. ويثير ظهور بهية الريبة في الذاكرة الروائية، حين يبدو كأن توفيق قد تاب بعد زواجه من ليلى، وأن التحريم يهيمن عليه، لأنه لم يخطر له أن امرأة غير زوجته يمكن أن تقاسمه الفراش، فمتى انعطف توفيق هذا المنعطف ؟

مع شخصية زياد الذي يظهر في الفقرة الخامسة (العشاء) من القسم الذي ينشر لأول مرة، تنعطف الرواية منعطفاً أكبر وأخطر، حيث تنوء تحت وطأة السياسة التي ستعنون الفقرة السابعة (مأساة السياسة) والثانية عشرة (عودة إلى السياسة)، ولا تخلو منها فقرة. وسيبدو زياد بامتياز قناة الكاتب لتصريف أفكاره السياسية، وليس لتسريدها. فزياد الشاب الشيوعي سيتخلى عن حزبيته وشيوعيته، مما سيكون نهزة السارد لنقد وتعرية وهجاء (المرحلة الزيادية) من تاريخ الحزب الشيوعي، بالأحرى: المرحلة البكداشية للحزب الشيوعي السوري أو الستالينية بعامة، ولا ننسَ أن الزمن يعود بنا إلى خمسينيات القرن الماضي. على أن الأمر لا ينحدّ بتخلّي زياد عن الشيوعية، بل بمضيه إلى حزب البعث العربي، قبل أن يتوحد مع الحزب العربي الاشتراكي، ليصيرا معاً حزب البعث العربي الاشتراكي. وهنا قد يكون من الضروري أن يشار إلى نشأة صدقي إسماعيل في أنطاكية، وإلى مشاركته في يفاعته بالحراك الشعبي ضد ضمِّ لواء اسكندورن إلى تركيا، وما كان يصخب آنئذ من دعوى عصبة العمل القومي، ومن حضور زكي الأرسوزي. وقد كان ما أعقب ذلك أكبر أهمية، سواء في تجربة النزوح من اسكندرون، أم في تجربة تأسيس حزب البعث العربي، دون أن ننسى ما تلا من المرحلة الجامعية في حياة صدقي إسماعيل.

ليس المسار المعني هنا من حياة صدقي إسماعيل سياسياً وحسب، بل هو فكري أيضاً، وربما أولاً. فالرجل مثقف بامتياز، وبقدر ما مالت به السياسة، مالت به الفلسفة. والخلاصة أنه خرج على قومية زكي الأرسوزي وقسطنطين زريق وساطع الحصري، بقدر ما التصق بها. وقد بدا مرة وجودياً ومرة متمركساً ومرة نخبوياً ومرة شعبوياً. ولعل من المفيد أن نستعيد، كرمى لقومية زياد في الرواية، مما كتب صدقي إسماعيل في جريدة البعث (11/1/1957): «القومية العربية ليست ظاهرة جديدة تمخضت

عنها الأحداث (..) هي حقبة حية عبّر عنها العرب في مختلف مراحل حياتهم». كما كتب إسماعيل في مجلة الشرطة (كانون الثاني 1971) أن القومية وجود، وهي طريق العرب إلى الإنسانية وحريتهم، وليست وقفاً على حزب، والثورة من صنع الحب.

وبالعودة إلى شخصية زياد في رواية (الحادثة) نراه إبان شيوعيته يتساءل عن مصلحة النخبة، مقابل ترداد حزبه لتكتل الطبقة دفاعاً عن مصالحها. وإثر خروج زياد من السجن ومن الحزب الشيوعي، يجلجل في حواره مع الدكتور توفيق أن الدولة هي الخوف الأبدي. وهنا تعود الرواية إلى ما نسيته مع زياد، فإذا بغيرة توفيق على ليلى من زياد تدفع إلى الطلاق، وإذا بتوفيق في الخامسة والأربعين من عمره، يرفض جسد ليلة منذ عهد بهية، ويخاتل الموت الذي ليس سوى همود الجسد، ويقدم صورة رمزية للموت، هي ضجر الجسد، ونقرأ: «كان الجسد يعزله عن العالم، ويشعره بأنه قطعة محدودة بين ملايين الأشياء المتناثرة. أليس الجسد هو الذي يرغمه على التفكير الدائم بنفسه، سواء كان مصدراً للذة أو الألم؟ والجسد ذاته يورده التهلكة في النهاية». إثر ذلك تنسى الرواية توفيق وسواه، لينفرد بها زياد الذي يأتي انتسابه إلى حزب البعث العربي مقالة تؤرخ لظهور هذا الحزب، وتحلل هذا الظهور، حيث تتداخل عبارات الإيمان القومي، والرسالة الإنسانية للأمة، والعقائدية الصحيحة، وعنفوان الأمة. وسرعان ما يُنسى زياد نفسه في غمرة المقالة السياسية، وليس الفكرية الروائية. ويمتد ذلك حتى قيام الوحدة السورية المصرية عام 1958 وانخراط الحزب في الجهاز الحاكم وحله. واللافت هنا أن الرواية لا تذكر حزب البعث العربي الاشتراكي، كما كان اسم الحزب قد صار منذ سنوات.

بالعودة إلى توفيق وليلى تأتي خاتمة الرواية، عبر الرسائل التي تبادلاها، وفقرة من يوميات توفيق. ويبدو لي أن هذه الخاتمة مع كل ما تقدمها، مما ينشر لأول مرة، كان لا يزال قيد الإنجاز. وقد ضاعف الرحيل المبكر للكاتب من خسارتنا في عدم إنجاز رواية (الحادثة)، فنحن الآن أمام (الحادثة، كرواية (مكتملة) حسبما تؤكد السيدة عواطف الحفار إسماعيل، لكننا لسنا أما رواية منجزة فنياً، بينما يلوّح القسم المنشور منها سابقاً بوعود كبرى، تؤكد وعود (العصاة) و (الله والفقر)، مما عده أنطون مقدسي بحق من عيون الأدب الكلاسيكي. ومن حسن الحظ أن هذه الكلاسيكية التي تزدهي في سرديات صدقي إسماعيل، قد تواصل ازدهاؤها فيما كتب من الرواية عبد السلام العجيلي، حسن صقر، وفواز حداد بخاصة.

لقد كانت لصدقي إسماعيل مغامرته الإبداعية الكبرى، فكتب في الفكر والنقد والمسرح والقصة والشعر والرواية. ولأنه رحل مبكراً عن ثمانية وأربعين عاماً، فقد بدا في كل ما أبدعه وغامر به مثل شهاب ساطع، سرعان ما نأى، لكنه لم ينطفئ، ولن ينطفئ، لأنه (حادثة) بالمعنى الفلسفي العميق الذي رنت إليه رواية (الحادثة).

كلمة

كتب المرحوم صدقي إسماعيل (185) صفحة من رواية (الحادثة) بصياغتها الكاملة، وبيّضها في عشر كراريس، وقسّم هذه الصفحات إلى تسعة عشر قسماً أو فصلاً، بعضها وضع له عناوين، وبعضها تركه غفلاً من العنوان، مكتفياً بالترقيم. أما ما تبقى من الرواية، فقد سوّد بعض فصوله، وحالت المنية، دون تنقيح تلك الفصول، وإنجاز الرواية.

وتتجاوز صفحات الفصول المسَّودة (248) صفحة، ولكنها لا تخلو من تداخل وانقطاع وتكرار، وهي في واقعها، لا تصلح أن تكون تكملة لرواية.

لذا، فقد نشرت في المؤلفات الكاملة، الفصول المبيّضة من الرواية فحسب، وهي الفصل الأول والثاني فقط. أما المسودات فلم تنشر في حينها.. وإن المراجع لأصول (الحادثة) كلها، يتبين له أن المؤلف كان يطمح أن يجعل منها أثراً أدبياً مميزاً، وأنه خطط لأن تكون ثلاثية ضخمة، على غرار روايته (العصاة) ومسرحية (عمار يبحث عن أبيه).

أما الآن وبعد بحث مكثف بين أوراقه المخطوطة، فقد تمكنت من جمع أوراق الفصل الثالث، من رواية (الحادثة) من بين مئات الأوراق والمخطوطات.

آمل أن تكون قد أصبحت مكتملة الآن.

عواطف الـــحفار

-1-

شـــــيء عن مزاج الدكتور توفيق

تبدأ الحوادث في مدينة حلب، وكثير من الأمور يوشك أن ينتهي. عام ينطوي على نهاية الحرب العالمية الثانية، وسبعة وعشرون شهراً على وجود الطبيب توفيق الجابر في المدينة، وأكثر من ثلاث سنوات صاخبة، على شهرة الغانية الفاتنة «سهام» في مرابع اللهو وأوساط الشبان العابثين. ومع أن قوات الاحتلال، كانت تتأهب للجلاء عن البلاد، فقد كان أهالي حلب أكثر اهتماماً بنهاية الحاكم العرفي الذي اقترن اسمه طوال سنوات الحرب، بكل ما عرفته المدينة، من تدابير التعسف والاستبداد، وما كان يشاع من الروايات المختلفة عن فضائح الأحداث اليومية.

في ظهيرة هذا اليوم الشتائي الغائم من العام، حزم الطبيب حقيبته القديمة، وبدأ يجمع كتبه المتناثرة في غرفته الصغيرة، بحي «الجميلية» وهو يستعيد في تصوراته ما عزم على القيام به من أعمال، وفق الترتيب الزمني الدقيق الذي يضعه المسافر عادة، حين يكون عليه أن يغادر المدينة دون رجعة، لم تكن سفرة توفيق، أكثر من عودة طبيعية، إلى خدمته في العاصمة الثانية، غير أنه كان على شيء من الارتباك «الداخلي» لا سبيل إلى فهمه، وهو يفكر، بأنه سوف يتخلى نهائياً عن هذا النوع من الحياة الطليقة – على حد تعبيره – وأنه خلال ساعات قليلة، سوف يقطع كل صِلاتِهِ بالناس والأمكنة والأشياء، وقد ألفها وأحبها، طوال هذه الأيام والشهور. وفي غمرة هذا الارتباك بدأت مخيلته تصطفي ما يمكن أن يترسب، في أعماق نفسه من ذكريات حلب. سوف يودع جارته – صاحبة المنزل – وقد تناسى مزاجها الحيادي الوديع، وأسارير وجهها المكتهلة، ولن يحتفظ إلا بخضرة عينيها الصافيتين، وابتسامتها الجافة. الآن يكتشف أنه لم يعرف عنها شيئاً آخر، وهي لم تسأله إلا عن اسمه، ومهنته، وأين تسكن عائلته في دمشق، ومع هذا فقد كان لها في حياته اليومية، حضور دائم، ولاسيما حين يعود في أواخر الليل، ويصعد الدرج الخشبي الأجوف، بلونه الترابي العتيق، ومنعطفاته المعتمة، والحذر يضطرب في وقع خطاه. كان يعود ثملاً كل ليلة، وملء حواسه إيقاع سهرة مشبوهة، وقلما كان يقدّر للمرأة، أن تضبطه في حالة مريبة. وإذا حدث هذا، ورأت الغرفة مضيئة، كانت تقول بلهجة مفعمة بالشفقة والحنان:

الحادثة – م 2
الحادثة – م 2

– دكتور؟.. رجعت؟.. هل أغلقت الباب جيداً في الخارج؟.

وقبل أن تترك له فرصة الإجابة، تردف:

– لا تنسَ الضوء.. تصبح على خير.

وكم كان يشعر بالارتياح لهذا الحد «المهذب» من الرقابة.

في مثل هذه الظروف كان يحس أنه سوف يتلعثم بالكلام، لا لأنه أفرط في الشراب فحسب، بل لأن كل أفكاره أيضاً وتصوراته، كانت تدور عندئذٍ حول المخدع الأنثوي العطر الذي غادره منذ قليل. ولأمر ما كان يحرص على أن تجهل المرأة العجوز، وجميع معارفه في حلب، هذه العادة الليلية المزدوجة في حياته اليومية: الحانة وبيت الدعارة. لم يكن في هذا الحرص، ما ينمُّ عن رغبته في الحفاظ على سمعته الأخلاقية، خارج المدينة، فقد كانت رسائله إلى أصدقائه في المدن الأخرى، أشبه بالاعترافات الجريئة، حتى الوقاحة أحياناً، حول مباذله وفجوره. غير أنه الآن يدرك كم كان حصيفاً حين تكتم في حلب. وأوهم نفسه، بأنه استطاع أن يخرج من المدينة، بريء المظهر، نظيفاً أمام الجميع. قال في نفسه وقد أنهى إعداد الأمتعة للسفر، وتناول المعطف: «لا بد أن لدى الإنسان موهبة خاصة، في خداع الآخرين أمام «الفضائح الشخصية»...

– أية طمأنينة.. إنني استطعت التنصل من كل شيء في الوقت المناسب!..

الطمأنينة! هل هي وحدها التي كانت تعنيه؟ ولماذا؟ ما الذي كان يخشاه من هذا الأمر في مدينة حلب، دون سواها من جميع الأماكن؟ مادامت «الذكريات التي سوف تبقى» هي التي تستأثر الآن باهتمامه، وهو يتأهب للرحيل، فلا بد من استعادة الفضيحة – كما يدعوها في حديثه الداخلي – لا لأنها كانت أول امتحان، في حياته العامة فحسب، أثبت فيه أنه قادر على التستر والمراءاة، بل لأنها أيضاً، كانت البداية والنهاية، في تحديد الملامح الأساسية، لشخصيته الغريبة، بداية الحياة المستهترة التي درج عليها فيما بعد، واكتشف من خلالها، أنه من الذين وجدوا على الأرض، من أجل هدف واحد، هو إرضاء نزوات الجسد، ونهاية الأحلام النبيلة، الواسعة، التي كانت تزين له طوال حياته الجامعية، بأن له دوراً مرموقاً، لا يخلو من العظمة. يستطيع أن يؤديه في حياة المجتمع ومصائر الآخرين. أما صفة «الغرابة» فهو الذي أطلقها على شخصيته منذ أن تبين – اثر هذا الحادث الغامض بالطبع – أنه يتفرد باكتشاف حقيقته منذ اللحظة الأولى، واختيار السلوك الذي ينبغي أن يكون عليه، طوال حياته. ربما كان معظم الناس قادرين على مثل هذا الاختيار: ولكنهم يختلفون عنه، هذا هو رأيه. إنهم يجدون أنفسهم في شروط، تفرض عليهم مهمتهم في العالم، وأسلوبهم في الحياة، فيطمئنون إلى ما هم فيه، غير أنهم يحلمون دائماً بشيء آخر. أما هو فإنه – كما يعتقد – لم يخضع لأي شرط مفروض. بل اختار بملء حريته. ولم تساوره أية فكرة بأن هناك ما هو أفضل.

هذا ما يجب أن يعرف عنه قبل كل شيء. فقد لا يُتاح للوقائع أن تكشف عنه في وضوح، ولاسيما أن الأمانة في سردها تقتضي – من الوجهة القصصية على الأقل – عدم التعرض، إلا لما هو حسّي ملموس، يحمل نبضات الحياة في سرها العفوي المباشر.

هناك سبب آخر للتأكيد على هذه الحقيقة في مزاج توفيق، هو أنه منذ أن فكَّر في مغادرة المدينة، وحدَّدَ تاريخ العودة إلى منزله العائلي، وضع خطة كاملة محكمة التفاصيل، لحياته الجديدة في دمشق، ودرس على نحو خاص، كل ما يُهيئ له أن يجعلها سلسلة من الفضائح المماثلة، بذلك يكون صادقاً مع نفسه – على حد تعبيره – ولا نعرف إذا كان قد قدّر في دراسة التفاصيل كيف يستطيع الاحتفاظ، بطابع الشخصية البريئة الطيبة في الظاهر، أو أنه كان حريصاً على الكتمان أيضاً، في البيئة الدمشقية العريقة، وهي تضم، دون ريب، من لداته وأترابه، وحواشي العائلة – على الأقل – من رصدوا كل ماضيه، ولن يعجزوا عن فضح مخازيه، والتسرب إلى أعمق النزعات الدفينة، في كوامن نفسه. كل ما نعرف أن شيئاً من هذا كان موضع اهتمامه الجدي، أو لا بد من أن يكون، ما دامت رقابة الآخرين تعنيه إلى هذا الحد، غير أنه في الوقت نفسه، كان أشد تمسكاً بالمبدأ الذي اختاره بكل ثقة وطمأنينة: أن يستبيح كل شيء، لكي يستفيد من تجربة الحياة.

* * *

-2-

خيـــــوط الفضيحـــــة

في مثل هذه الأيام من شتاء (1943) ماتت في حلب امرأة جميلة، عبثت زماناً بعواطف الشبان، وتلاعبت بالكثير من عقلاء الرجال. لم يحزن أحد من أجلها حزناً حقيقياً، لسمعتها السيئة، سوى كاتب ناشئ، تجرأ على رثائها بمقال صغير، نشرته إحدى جرائد المدينة. وكان المقال بليغاً مؤثراً، تحدث عنه المتأدبون في إعجاب شديد. ولكنه لم يرقْ للحاكم – على ما يظهر – فأمر باعتقال الكاتب المسكين. وكان هذا التدبير مثاراً للدهشة والدعابة في آن واحد.

فالحاكم المذكور كان مشهوراً بالحزم والجد، وكانت قبضته الحديدية – كما يقولون – تخمد الأنفاس من أجل الأمن والنظام، وليس من المعقول أن يهتم بمقال أدبي، سمحت الرقابة بنشره، ولم يتعد الحديث عن امرأة فاسدة.

والغالب أن الحاكم كان على رأي آخر. فحين قرأ المقال، شعر بأن الكلمات تتجاوز حدود الموضوع، وأنها كتبت بروح ماكرة، لابدّ من أن تفضح وجدان صاحبها، لكي يعرف الجميع أن عين السلطة، لا تغفل عن كل ما يمس هيبة الدولة، من بعيد أو قريب. ولما كان الحاكم يعدّ نفسه ممثلاً للدولة – وكان بالفعل من «المواطنين» القلائل الذين وثقت بهم قوات الاحتلال – وأطلقت يدهم في مصائر الناس، فقد وجد أن هناك تهجماً خبيثاً، لا يستبعد أن يكون مقصوداً.

وكانت للحاكم مسوغاته، فقد كان – بحكم منصبه – على صلة بكل ما تفعله غانية، من هذا الطراز. وكان – بحكم المنصب أيضاً – شبه مدين من الناحية الوطنية. والرأي العام – كما هو معروف – يتسع لكل ما يقال أو يشاع، في مثل هذه الحالة، عن جميع المرموقين.

هكذا أُخذ الكاتب، ولما كانت إجراءات القضاء شبه ملغاة، في ظروف الحرب القاسية، فقد قضى أكثر من شهرين في السجن، دون تحقيق أو محاكمة. وكان من الممكن أن تحتفظ به جدران السجن، حتى نهاية الحرب، لولا أن الشائعات رشحته لمهمات سياسية خطيرة، وحشره بعضهم في قائمة المناضلين، الذين كانوا يكتبون النشرات السرية ضد السلطة، ويحرضون على المقاومة من اجل الاستقلال.

وعندئذٍ، دُعيَ إلى التحقيق، ونظراً لغموض الاتهام، فقد تولى الحاكم بنفسه عملية الاستجواب. وفي اليوم المحدد، حدث أن أصيب السجين بأزمة مرضية عنيفة، يرجح أنها نوبة قلبية خطرة، فاستدعى

الحاكم أحدث الأطباء في الخدمة، إما لعدم ثقته بالأطباء القدامى، وقد عاصروا ملابسات القضية منذ البداية، وإما لأنه – هو نفسه – كان بحاجة إلى طبيب «جديد» يؤتمن على السر. كان الحاكم – رغم صلابته وجبروته – نهبة لأوهام المرض، والغالب أنه في هذه الحقبة، كان يشكو أعراض داء لا يحسن ذكره. وهكذا قُدِّرَ لتوفيق أن يكون الشخص الثالث، في هذه الجلسة «القضائية» المغلقة.

كان الموعد في الساعة العاشرة والنصف من صباح السبت. في هذا الوقت يكون توفيق في مزاج مرح، موفور الحيوية والنشاط.

كان من عادته أن يقضي يوم الجمعة كله، في الراحة واللهو، خلال مأدبة نهارية صاخبة مع الأصدقاء، إما خارج المدينة وإما في منزل «سريّ» ترتاده أجمل المحترفات، وأحدثهن عهداً بالزلل. وفي أولى ساعات الليل كان يأوي إلى الغرفة، والعالم ينبض حوله بعنفوان النشوة. وما يلبث خدر الاكتفاء أن يغريه بالنوم الهادئ العميق. ولا يستيقظ إلا مع طلوع الشمس. وفي الصباح يتحول إلى كائن أخر، يصبح طبيباً عاملاً، لا يعرف السأم أو الكلل، لا همَّ له إلا أن يؤدي واجبه المهني، بما تمليه الروح الإنسانية الصادقة.

بهذه الروح مدَّ يده يصافح الحاكم العرفي، وهو يضع حقيبته الطبية على مقعد من الخيزران، في محاذاة مقعد آخر مماثل، يقف أمامه شاب رثّ الثياب، شاحب اللون، تدل نظراته القلقة واضطراب وقفته، على أنه لم يؤذن له بالجلوس بعد. وجلس الحاكم وراء مكتبه العريض، وهو يقول في ابتسامة غامضة، ويشير إلى إحدى الأرائك القريبة من المكتب:

– أهلاً.. دكتور توفيق.. تفضل.. كان ينبغي أن نلتقي في مناسبة أفضل.. ولكن ...

فأجاب توفيق وهو يجلس في شيء من الاطمئنان:

– كان عليّ أن أتشرف بالزيارة من قبل، ولكن الظروف الطارئة..

وتوقف عن الكلام، وقد لاحظ طابع الجد في ملامح الحاكم، وأحس فجأة أنه لا مجال لعبارات المجاملة «التافهة» وأن كل عبارة يتفوه بها في مثل هذا المكان، ينبغي أن تحسب عليه. ولم يكن إحساساً خاطئاً فقد بادره الرجل قائلاً:

– كل شيء أصبح في مهنة الطب، على ما أظن، ولكن الأمور تنتهي بسرعة... أما هنا...

وأشار إلى الشاب وهو يأمره بالجلوس ويردف:

– الطوارئ تصبح مشاكل معقدة صعبة الحل.. من كان يتصور مثلاً أن تستمر الحرب كل هذه الأعوام؟..

فقال توفيق وهو ينظر إلى الشاب في تساؤل، وكان هذا قد جلس على حافة المقعد في مظهر اغتراب واضح:

– أله علاقة بهذه المسألة؟..

فأجاب الحاكم وهو يصطنع المزاح:

– الحرب؟.. هل يبدو عليه أنه من الذين يستطيعون شيئاً؟.

واستدرك وقد عادت إلى لهجته نبرات الجد:

– ومع هذا فإن الذين يعلنون الحروب ويوقفونها، هم مثلنا من الناس... المهم أنه يدعي المرض المزمن في القلب، بسبب حبس طارئ.. الواضح أن الذين في مثل سنه، لا يعرفون هذا المرض، إلا إذا تعرضوا للتعذيب، هذا ما يريد إثباته على ما يظهر.

والتفت إلى الشاب في انفعال صارم لا يخلو من السخرية:

– هل مسّك أحد أيها الكاتب الموهوب؟. أجب. ها هنا شاهد حيادي.. كيف عذبوك؟..

فقال الشاب في هدوء غير متوقع، بل ينطوي على شيء من التحدي المكتوم:

– لا أشكو شيئاً من هذا... لا السجن ولا التعذيب. أنتم الذين استدعيتموني.

فقال الحاكم وقد احتدت لهجته:

– إذن هناك مجال لذكر التعذيب؟! أنت سجين، هذا أمر مفروغ منه.. من حق السلطة أن تؤدب من تشاء، أما أن تزعم أننا السبب في نوباتك القلبية.. إنني لا أسمح بهذا التزوير...

– من قال بأنني أزعم؟.. صدري يضيق في الليل، وقلبي يضرب بعنف، حتى لأخاف أن يتوقف ذات ليلة. أليس هذا مرضاً حقيقياً؟..

– الآن نعرف. دكتور، هل تسمح بفحصه؟ تلفظ بالعبارة الأخيرة دون أن يلتفت إلى توفيق، وقد كانت هذه البادرة كافية لإقناع الطبيب الناشئ، بأن أمامه حاكماً جديراً بهذا الاسم، يجري في دمائه حب التعسف والسيطرة.

والغريب أنه شعر – وهو يتناول السماعة ويضعها على صدر الشاب – بأنه ليس بعيداً، أن يكون هو نفسه السجين، في مناسبة أخرى بالطبع، وعندئذ يمكن أن يستباح كل شيء، لإيذائه وإهانته. فماذا يكون بمقدوره أن يفعل! هل يذعن في صمت ويستسلم، أو يجرؤ على المقاومة؟ أم يتخاذل فيلتمس الشفقة في توسل ذليل؟ هذا ما كان يدور في أفكاره وهو يقوم بالفحص، ويتوجه بالأسئلة (الطبية)

المألوفة، بينما كان الحاكم يقلب أوراقاً مشتتة في إضبارة زرقاء، دون أن يغيب عن ناظريه ما يحدث. وقال الدكتور توفيق وهو يعود إلى أريكته في اطمئنان:

– لا شيء، الحمد لله، القلب سليم. وضيق الصدر من البرد.

وابتسم الحاكم بارتياح وقال في نوع من التشفي الودي:

– أرأيت يا أستاذ؟. هنا لا يضرب أحد. وما ذنبنا إذا كان الشتاء بارداً إلى هذا الحد؟. المهم.. ما دام الدكتور هنا نستطيع أن نُقلّب هذه الإضبارة...

وتناول ورقة كبيرة، ممتلئة بالحواشي، على ما يظهر، فقد كان ينقل عينيه في أطرافها جميعاً وهو يقرأ ويعلّق ويتوجه إليهما بالكلام في آن وتحد:

– بتاريخ 7/1 صدر أمر بتوقيف السيد محمود الرامي...

في الأصل: الأستاذ، ولكن شُطِب على الكلمة.. في المدرسة يقولون أستاذ، صحيح؟.. (أومأ الشاب بالإيجاب).. كيف يعطون هذا اللقب لمعلم في الابتدائي؟..

فاعترضه توفيق قائلاً:

– الأولاد هم الذين ينادونه هكذا...

– في زماننا كنا نقول: معلّم.. بالفرنسية طبعاً.. حتى في الثانوي.. أما الأستاذ.. المهم.. بتاريخه أعلاه، أوقف المذكور توقيفاً طارئاً، لأنه نشر في الجريدة شيئاً خطيراً، لا يمكن السكوت عنه.

فتدخل محمود وقد لمس في جوّ الحديث شيئاً من الانفراج النفسي.. – إذا صح التعبير– :

– شيء خطير؟.. ليست إلا كلمة أدبية من نوع التأبين... كل إنسان يتأثر أمام حوادث الموت المفاجئ...

فقال الحاكم:

– إعلانات النعي تملأ الجدران كل صباح.. لماذا لم يخطر لك أن «تتأثر» من أجل شخص آخر؟.. والموت. كل موت، لا يأتي إلا فجأة، هل هناك أحد يقدّر بالضبط لحظة النهاية!... هذا شيء معروف.. ثم إن الشخص الذي كتبت عنه لم تعلن وفاته...

هل رأيت ورقة النعي في شارع؟.. امرأة تافهة شاع أنها غادرت هذا العالم... لمَ كل هذا التشهير؟..

– الجميع يعرفونها.. كانت أشهر امرأة في حلب.

– وأجمل النساء.. وأكثرهن فساداً وخلاعة.. الخ...

المهم... أنك تكتب في موضوع لا تعرفه، وليس لك علاقة به، وتحاول أن تشوه سمعة البلد.. لا بد أنك تذكر جيداً ما كتبت.

وأهم من هذا كله أنك تُزوّر الحقيقة.. تستغل هذا الموضوع من أجل شيء آخر.. كل الناس يحزنون لموت امرأة جميلة.. ولكن ليس صحيحاً أن رجولة البلد أصبحت كما تقول.. هذا أولاً... وثانياً أنك تستغفل الرقابة والسلطة، وتستغفلني أنا أيضا، هل تعتقد أن مثل هذه الأشياء تمر عليّ؟..

والتفت إلى الطبيب وقد تحرك الانفعال الجديّ في ملامح وجهه، وشيء من التهكم في نبرة صوته، ويده تمتد إلى الشاب بنسخة من جريدة قديمة:

– دكتور.. اسمع.. سوف يقرأ علينا هذه الدرّة النفيسة من الأدب... وأنت، يا سيد محمود، انتبه إلى العبارات، التي وضع تحتها خط احمر.. يمكن الاكتفاء بقراءتها وحدها..

ونهض محمود الرامي يتناول الجريدة، وهو في أشد حالات الارتباك. كان من الطبيعي أن تكون مهنة التعليم قد أوحت إليه وهو يهم بالقراءة، بأنه كان أشبه بتلميذ كسول في امتحان صعب، ومع هذا فقد ارتفع صوته بتلاوة هادئة سليمة، كان يحرص على أن تكون موجهة إلى الدكتور توفيق، على الرغم من أن الحوار الذي تخللها، كان بينه وبين الحاكم، الذي كان يستوقفه بين الحين والآخر على النحو التالي:

– رثاء امرأة.. «باعت نفسها للأغراب».

– أي عنوان؟!. هل هناك غريب في نظر المومس؟. اقرأ:

– «هكذا تمضين في رواق النسيان الأبدي» وحيدة، صامتة، دون ضوضاء، ومن غير عودة، تمضين! بل تسقطين السقطة الأخيرة، وهو ما قدّره لك الجميع.. فليس للرذيلة إلا هذا المصير.

– قف... ثرثرة لا معنى لها.. أهذا ما يقال عن الأموات؟ الرذيلة؟.. اذكروا محاسن موتاكم..

– ومن أجل هذا، أنت جديرة بالرثاء، فقد يغتفر للموت أنه يذهب بجمالك الأرعن، وجسدك الأنثوي الغض، وجميع رغباتك الدافئة.. ولكن ما لا يغتفر على الإطلاق، أن يسلبك السلطان المهيمن على النفوس... إغراء نظرة فاتنة أو همسة حب، أو إشارة موعد.. أن تصبحي فجأة شيئاً يُلقى في التراب دون اكتراث، بعد أن كنت تتلاعبين «بأصلب الرجال، وتخدّرين أقوى العقول».

– انتظر.. أي سلطان تملكه بغيّ!.. هذا يتناقض مع العنوان. كانت تبيع نفسها!. وللأغراب!. ماذا تريد أن تقول بالضبط؟.. الآن.. تابع..

– فالموت معقول دائماً، إلا حين يعترض الإنسان على هذه الصورة الشرسة، فيقذف به من أعلى قمة إلى أعمق هاوية...

كم يكون الموت محتملاً، لو أنه يكتفي بأن ينحدر بالإنسان درجة أو درجتين، لو انتزع منك الجمال مثلاً، أو سلبك سِحرَ الإغراء.. إذن لبقيت لك أنفاس الحياة على الأقل....

– أي ذهن ركيك ألهمك هذه المساومة مع الموت؟.. وبأي حق تساوم؟.. ومن أجل من.. استمر.. الموت معقول...

– ولكن لا يرحم .. إنه يعتدي على كل شيء دفعة واحدة، ولا منطق في عدوانه الآثم، ولا سيما مع الذين اعتادوا أن ينالوا كل ما يريدون، ويجدون الحكمة في كل ما يفعلون.. لأنهم يرون أنفسهم أبداً فوق الجميع..

– توقف.. دكتور، ألا ترى الغمزة الجديدة؟.. ولكن.. لنتابع.. لا.. انتقل إلى الخط الأحمر.. هناك في السطور الأخيرة.. من عند.. وحين..

– وحين لم تلتفتي إلى رجل غريب في النهار، إلا لتستسلمي له في الليل.. وإذ كنت حريصة على أن يعرف الجميع مخازيك، ويكثروا عنها الأحاديث، كما لو أنها فضائل، جديرة بالزهو والفخَار... أما العار فقد طواه خنوع العاشقين... وخوف المتلهفين... لم يكن لديك وقت لحديث الوجدان... ولماذا؟. مادام كل شيء يجري في الخفاء . أنت في مكانك السري المغلق من طرف.. والعالم كله من الطرف الآخر.. جميع الآخرين.. تمنحينهم رضاك المعطر، وتخونينهم جميعاً، دون اكتراث. أية رعية مأخوذة، يراقب بعضها بعضاً من أجلك، في غيرة وفيّة، ويا بؤس الذين يكتمون عنك شيئاً، أو يحاولون أن يعرفوا ماذا..

– كفى.. كفى.. اقرأ العبارات الأخيرة..

– وها أنت، أخيراً، تضطرين، وآ أسفاه، إلى أن تتركي جميع المعاصي.. ذهبت ضعيفة منتهية.. كالأكذوبة الواهية.. لا عزاء لك إلا أنك لم تتوقعي هذا المصير.. ولم يخطر لك في أي يوم أنك لم تكوني إلا الأداة في يد الآخرين...

– قفْ.. إذن هذا هو العزاء؟.. لم تشعر بأنها «أداة».

«هي في طرف والجميع في الطرف الآخر»، «تُمتّع الكل وتخون الكل».. «رعية يراقب بعضها بعضاً..» تفتخر بأن مخازيها على ألسنة الجميع.. ثم ماذا ؟.. هات الجريدة..

وبينما كان محمود يعيد الجريدة، وقد هيمن على الثلاثة جو غامض من الحيرة، كان الحاكم مستمراً في ترديد المقاطع الواردة: «السقطة الأخيرة..» «ليس للرذيلة إلا هذا المصير..» «الأكذوبة الواهية..»

.. «رواق النسيان الأبدي» ثم توجه إلى الطبيب في شيء من التساؤل:

– عبارات جميلة منمقة.. ولكن.. دكتور.. هل تراها من أجل هذه المناسبة؟.. هل هي مرثية حزن، أم شماتة؟... ومن يخطر له أن يشمت بشخص ميت؟.. المهم.. ما كان هناك شيء يدعو إلى الاهتمام، لولا هذه الخاتمة القصصية الماكرة.. سوف أقرأ بنفسي. اسمع ماذا يقول كاتبنا (العاطفي) البارع، هذا هو لب الموضوع...

«ولكن إلى من تتوجه بالتعزية؟.. وما من أحد يعترف بك بعد الآن؟. بل هناك الرجل «المجهول» الذي أحببت حقاً، ولا بد أنه كان يبادلك الحب الصادق.. كنت تُشْعرينَ الجميع، في كل خلوة، أنه الوحيد الذي يعيش في قلبك الدافئ، الوحيد الذي تحبين..

كنا نتوهم أنه «شخص» خيالي، تتحدثين عنه للإثارة... كل المومسات يلجأن إلى هذا الأسلوب، في تحريض الرجال.. أما عندك، فقد كان هذا الحبيب كل الحقيقة.. عيناه العسليتان في صفاء البلور، وسمات الرجولة القوية في وجهه الأسمر، وشفتاه الرقيقتان، توحيان بالعزم والتصميم، مثلما يوحي جبينه الرحيب بالمهابة، وقد تهدّل عليه مفرق لامع، بدأ البياض ينساب في منابت شعره الأنيق...».

هنا توقف الحاكم عن القراءة، وجعل يمسّد براحته خصلة شعر، تنحدر على جبهته، وهو ينقلّ نظراته بين الرجلين، في ابتسامة ذكية. وقال الدكتور توفيق في دهشة، وهو يشاركه الابتسام، ويلتفت إلى محمود في تساؤل:

إذاً هذه هي القضية. هل كنت تعرف السيد الحاكم من قبل؟..

فقال محمود وهو يتجاهل السؤال:

– هذه هي الأوصاف التي كانت تذكرها أبداً.. كانت تعذب بها الجميع...

فقال الحاكم:

– وأنت واحد منهم.. لابدّ.. انظر إليّ.. حاكم المدينة لا يكون مجهولاً في المدينة.. هل تراني وسيماً إلى هذا الحد؟..

وما علاقة «الحبيب المجهول» بمسألة الرثاء؟ مع الموت يجب أن تذهب الغيرة..

فأطرق محمود هنيهة وقال في انفعال حزين:

– كانت المرأة الوحيدة التي أحببت.. إذا كان لا بد من الاعتراف... وهي كانت تحبني في جنون... كل مرة كانت تعترف وتهدد بالانتحار، إذا تخليت عنها.. أية امرأة!..

وتعثرت الكلمات في شفتيه، وشحب وجهه، وهو يردف في خنوع مفاجئ:

– سيدي.. مادام انتهى كل شيء، ألا يحق لي أن أذرف دمعة من أجلها، في كلمة عابرة؟.. أنا معلّم المدرسة الفقير، البائس؟.. ألا يحق لي أن أُعبّر عن غيرة الحب للمرة الأخيرة؟.

إنها انتشلتني من حضيض التعاسة، والشعور بالتفاهة، والهوان، وأعطتني كل شيء.. من قال إنها بغي؟.. متى كان الجسد وحده مصير الإنسان؟ فتاة بريئة القلب، في مثل هذا الجمال الغض، ليس لها أحد، تضطر إلى مجاملة هذا أو ذاك، بعض الوقت، ما ذنبها؟...

لو كنت تعرفها يا دكتور؟.. إنها طفلة.. طفلة في كل شيء... حتى الساعة الأخيرة، كان وجهها يشرق بالعفوية والطهارة، كأنها وردة تتفتح منذ لحظات، كأن لم يلمسها أحد.. هكذا ظهرت في هذه المدينة، وبالرغم من أنهم تداولوها في نذالة ولؤم، بقيت هكذا.. ولأنها حافظت على معدنها الأصيل، قتلوها.. من يُصدّقْ أنه موت طبيعي؟.. مستحيل.. مستحيل!..

كان الانفعال قد بلغ أوجه في نبرات صوته، مزيج من هيجان الحقد والانتحاب معاً، ترك تأثيره الواضح في مشاعر الطبيب، غير أن الحاكم بقيَ يبتسم دون اكتراث، بل إنه قال في شيء من التحدي:

– تدافع عنها أم عن نفسك؟.. كانت تحبك أم تحبها...

هذا موضوع آخر. المهم أنك تتمادى في الفضيحة، لو كان هناك حب حقيقي، لما أقدمت على هذا التشهير.. بها أولاً، ثم بي أنا أيضاً.

هل يقرأ أحد هذا الوصف دون أن يذكر الحاكم؟.. ماذا يكون موقفك أنت، حين تحشر في مثل هذه القصة «القذرة»؟ لكل شيء حدود.. ومع هذا، لنترك «الغراميات» جانباً. كيف خطر لك أن تدمج بيننا، أنا وهي، بهذه الصورة الخبيثة، العبارات تفضح نفسها. كل ما تقوله عنها في الجريدة تُلمّح فيه إلى شخصي...

أسلوبي في ضبط الأمن وسياسة البلد، لا يشبُّه بتصرفات مومس، ليس الناس أغبياء إلى هذا الحد.. كل شيء يفهم بحذافيره، والنيات السيئة لا تخفى على أحد... هل تنكر سوء النية؟... أجب... تعرف أنه لا شيء يهمني، ولا أحد يستطيع شيئاً أمامي... ومع هذا... أريد أن تعترف.

هذا ما قاله الحاكم وهو ينهض في شيء من فرض المهابة، يعرف به جميع الموظفين، الذين يتكلمون من موقع القوة – على حد التعبير المألوف – وقال لتوفيق:

– عفواً دكتور، أخذنا من وقتك أكثر مما يجب، ولكن.. هذا لابدّ منه. القضية ما تزال في البداية..

فقال توفيق:

– الحقيقة أنني لا أفهم.. هناك أمور خاصة على ما يظهر... فبادره الحاكم قائلاً في حدّة:

– أبداً.. حين يكون الإنسان على هذا الكرسي، فكل ما يتعلق به، يصبح من القضايا العامة، لو كانت مسألة شخصية لتوليتها بطريقة أخرى. كل إنسان يتصرف كما يجب، عندما تمسُّ سمعته، أو توجه إليه إهانة. ولكن الإهانة توجه إلى الدولة كلها...

ولماذا؟.. لأن هذا الصعلوك، أراد أن يعلن أنه عاشق، ولم يكتفِ بالإعلان الذي يحاول أن يؤكد به لنفسه، أنه شخص ذو أهمية، بل تجرأ على النيل من أعلى مقام في البلد.. ولذلك يجب أن يُعاقب من أجل أشياء كثيرة: البغاء، والتحريض على الرذيلة، والقدح والذم في شخصية مسؤولة، وربما .. قتل امرأة.. هذا ممكن «ما دام يؤكد العلاقة السرية الوثيقة»...

عندئذٍ نهض المعلّم الشاب معترضاً، وهو يرتجف في هيجان عنيف، وقال وقد التمع في عينيه بريق الغيظ واليأس معاً:

– لا.. لا.. ليس إلى هذا الحد!.. ماذا تريد يا سيدي الحاكم؟.. أعترف بكل شيء.. حتى سوء النية..؟ ولكنني أُقسم بأنني لم أقصد إلى هذا... لا علاقة لي بالسياسة...

فتدخل توفيق:

– لا أحد يتهمك بهذا..

فقال محمود وهو يتوجه إلى الحاكم في هذا الحوار:

– ولكن هذا ما تعنيه يا سيدي، على ما أظن..

– نعم هذا ما أعني... مسألة دعارة تستغل ضد السلطة..

– إنني أتراجع عن كل شيء... أرجوك دعني أذهب..

– تتراجع؟ وكيف!... الجريدة طُبعتْ ونُشرَتْ...

– أَنْشُر تكذيباً في الجريدة نفسها؟..

– ماذا تكذب؟ أنها ماتت؟..

– كما تشاء كيف أستطيع أن أتراجع؟.

فقال الحاكم في ابتسامة هادئة:

– حتى عن الحب؟.

فقال توفيق وهو يضحك في شيء من المرح:

– طبعاً.. مادام الحبيب قد فُقدْ...

وسادت الجو هنيهة صمت، مثقلة بالحيرة، ثم قال الحاكم في لهجة جدية غريبة، وهو يتفرس وجه الطبيب:

– الآن نصل إلى جوهر المسألة. معذرة، دكتور، أظن أنك لا تمانع في مساعدته على إيجاد حل معقول. صحيح أنني تأخرت في بحث القضية، ولكنها في الواقع أصبحت معقدة أكثر مما نتصور...

ولكن الظروف أرسلتك في الوقت المناسب.. نحن الآن في (11) آذار، اليوم يكون هذا الرجل قد قضى في السجن الانفرادي، ثلاثة وستين يوماً، وهو لا يعرف ما يحدث في الخارج، فيما يتعلق بقضيته. لقد وجهت إليه تهمة القتل عمداً.. أو هذا ما أنوي على كل حال.

لم يكن الأمر مستعجلاً. في أول يوم من العام، أعني بعد رأس السنة بساعات، علمت المدينة بحادثة الموت المفاجئة. ولم تكن الأحوال ملائمة لا للتشييع والدفن، ولا للتحقيق. كنا نطبق حالة الطوارئ ومنع التجول، بسبب الإضراب والمظاهرات، ولذلك لم يسأل عنها أحد، ومن حسن الحظ أنها كانت مقطوعة في البلد، لا أهل ولا أقارب. ولكن هذا العاشق المحترم بدأ يثرثر.. الجميع يعرفون علاقته بها، وربما كانت تحبه بالفعل، ولكن للتسلية لا أكثر. وكل ما يقوله عنها صحيح، مستهترة ولكنها بريئة طيبة القلب... إنها ما تكاد تبلغ السادسة عشرة من العمر، ولهذا لا بد من أن يكون هناك من يحميها... كانت تجهل حتى ماذا يعني، أن تصبح الفتاة مومساً.. المهم الآن تسوية الأمور بصورة قانونية!.. دكتور.. متى باشرت وظيفتك في حلب؟..

قال توفيق وقد فاجأه هذا الاستدراك:

– 1/1 .. أول يوم من السنة...

– عال.. المفروض أنك بدأت العمل في المستشفى على الفور...

ما زال الحديث بين الحاكم والطبيب، الذي استدرك قائلاً:

– نعم .. ولكنه يوم عطلة..

– هذا لا يهم... يمكن وضع التاريخ بعد أربع وعشرين ساعة... الخدمة التي أرجو أن تؤديها، وعلى مسئوليتي، هي تقرير طبي بسيط عن الوفاة: موت طبيعي، أو حادث دهس، أو تسمم، أو حتى محاولة انتحار ناجحة.. تستطيع أن تكتب «الحيثيات» كما تريد.

– ولكن هذا مستحيل، يا سيدي الحاكم.. إنني لم أرَ شيئاً ولا أعرف...

قلت لك، على مسئوليتي.. والقضية خدمة إنسانية كما ترى... هذا المسكين متهم بالقتل، وهو سجين لهذا السبب، المدينة كلها، أصبحت تعرف هذا.. والأرجح أن الظروف لن تسمح بمحاكمته قضائياً، ولهذا

لا بد من أن يبقى في السجن، حتى نهاية الحرب على الأقل. شيء غير معقول وجدانياً، وبيدك الآن وحدك أمر إنقاذه.

الحادثة – م 3
الحادثة – م 3

– ولكنني من الناحية الوجدانية أيضاً، لا يحق لي أن أُزوّر مثل هذا التقرير...

– تزوّر؟ معاذ الله، كل ما في الأمر، أنه سوف يكون بخط يدك وتوقيعك.. التزوير شيء آخر... ثم إنك طبيب غريب عن البلد.. تقوم بخدمة مؤقتة... هل تنوي أن تفتح عيادة هنا؟...

– لا... عيادتي مفتوحة في دمشق...

– ما الذي تخشاه إذن؟.. ولا تنسَ أنها مناسبة لإنشاء صداقة حقيقية بيننا، أنا وأنت، كل شيء سوف يكون في متناول يدك...

وقبل أن يتاح للدكتور توفيق، أن يفحص الأمر أو يفكر كما ينبغي، وجد نفسه يتلو مسودة تقرير، قدّمه إليه الحاكم وهو يقول:

– لقد أعددتُ كل شيء.. وما عليك إلا أن تحذف العبارات التي ليس لها لزوم.. انتحار، حادث،.. الخ وتضيف الأسباب المباشرة للوفاة بشكل معقول..

على هذا النحو، استطاع الحاكم أن يضع الدكتور توفيق في مأزق حرج، ويحول المشكلة إليه بكل براعة... والغريب أن الطبيب الشاب لم يفكر – وهو يقرأ نص التقرير – بأن هناك ما يدعو إلى سوء الظن بالمسؤول الكبير – وقد بدا له في هذه اللحظة بصورة خاصة، تجسيداً ذكياً، لكل ما ينبغي أن تكون عليه السلطة القوية. – ووجد نفسه يعمد إلى إجراء التعديل المطلوب.

وها هنا لابدّ من الإشارة إلى هذه الصفة في طابع شخصيته، مادام قد أصبح الآن موضع الاهتمام. صفة الانقياد تجنباً للمتاعب، أو الاطمئنان للحلول الجاهزة التي درسها الآخرون جيداً، وأعدّوا لها الصيغة النهائية. غير أنه قد اعترض في البدء، مستنكراً «التزوير» والمخالفة الوجدانية... وها هو ذا يتناسى «الجانب الأخلاقي» من فوره، كما لو أن اعتراضه لم يكن أكثر من مزاج عابر. هذه هي الصفة البارزة لدى أمثاله من الأشخاص الذين يسهل عليهم التنازل. التنازل على الإطلاق، هذا هو التعبير المناسب، مهما يكن هناك مجال للمناقشة، والتفكير، وحرية الاختيار.

وهكذا سويت القضية... ويمكن استخدام العبارة ذاتها في موقف الرجلين الآخرين، الحاكم تنازل عن الحق العام، في تهمة القتل، وتجريح السلطة، وعفا عن المعلّم، ومحمود الرامي تنازل عن حقه الإنساني العفوي، في التعبير عن عاطفته «الجياشة» في الحب والرثاء، وعن مشاعره الغامضة، أمام الدولة كما يمثلها حاكم المدينة. وبينما كان الثلاثة يتصافحون، في شيء من التصافي والود، إيذاناً

بانتهاء المقابلة، فتح باب داخلي صغير، عن يمين المكتب، وظهرت فتاة جميلة، ما تكاد تتجاوز المراهقة، غير أن ثيابها الأنيقة، وقد انحسرت عن أنوثة مبكرة، توحي بأنها تقارب العشرين، وقال الحاكم كمن يقدمها للرجلين وهو يدعوها إلى الاقتراب:

– الآنسة سهام عبد المجيد...

فصاح المعلّم الشاب في دهشة عفوية:

– سهام؟. أنت هنا؟.. على قيد الحياة؟.

وقال الدكتور توفيق في حيرة:

– إذن هذه هي!.. سهام عبد المجيد!. الاسم الذي ورد في التقرير...

وقال الحاكم وهو يمسك بيدها في حنان، ويوشك أن يقهقه ضاحكاً:

– هي ذاتها.. إنها ميتة من الناحية الطبية، والصحفية، والغرامية... ولكنها عندنا، ما تزال تتمتع بالحركة والحياة، وكل هذا الجمال...

وأردف وهو يشير إلى الباب الخارجي، في نوع من الأمر بالانسحاب:

– إلى اللقاء..

وبينما كانا يهمان بالخروج، استدرك مخاطباً الطبيب:

– مع هذا.. دكتور، تستطيع أن تجتمع بها في أية ليلة.. إذا شئت.. قريباً، أتصل بك من أجل سهرة.. عنوانك المستشفى طبعاً؟...

فأومأ الدكتور توفيق بالإيجاب، وخرج إثرَ صاحبه الجديد.

* * *

-3-

أشياء خاصة أخرى عن الحاكم والطبيب

هذه هي الفضيحة التي أرغمت الدكتور توفيق، على أن يحدد منذ البداية، سمات شخصيته «الحلبية» – على حد تعبيره – وأن يجيد الاستمتاع بمسرات الحياة، في هذه المرحلة الغضة، من سنوات العمر، مرحلة الخروج إلى الحياة العملية. رأى أن تفاصيل اللقاء الثلاثي، في مكتب الحاكم، قد تسربت إلى الأوساط المعنية، بما فيها التقرير الطبي الكاذب، وظهور «سهام» من جديد، فلم يعترف، لم ينكر، بل وجد نفسه في حل من الجواب، على أي استفسار في هذا الموضوع، مادام الحاكم – أي السلطة – إلى جانبه. وكثيراً ما كان يحرج، ولاسيما أن المرأة عادت إلى الحياة العامة، في كثير من ضوضاء الشهرة، فقد تحولّت إلى مغنية وراقصة، بالإضافة إلى مهمتها الأصلية. ولم يكن من الصعب على الحاكم، بما له في المدينة من ألسنة تحسن التنقل، مثلما تفعل عيونه المنتشرة في كل مكان، أن يقنع الرأي العام، بأن الشبه الفاضح بين سهام التي حزن عليها الجميع، وبين الغانية «الجديدة» – وقد أطلقت على نفسها اسم سوسن – ليس إلا محض مصادفة. والغالب أنه استطاع خلال أيام غيابها الطويلة، أو في فترة «موتها» المعلن، أن يروضها على أساليب جديدة في ممارسة الأنوثة، تُبْعِد الظنون، عن مريديها المفتونين على الأقل.. لقد احتفظ بها شهرين كاملين في مخدع منعزل، وأغدق عليها من ألوان الرعاية والمتعة والرفاهة، ما كاد ينسيها، بأن الابتذال قد قدّر عليها، منذ اختارت هذا الطريق الملوث، بل كانت تشعر أحياناً، وهي في غمرة عاطفية من خلواتهما الدافئة، بأنها – على الرغم من السمعة السيئة والشروط الاجتماعية القاسية – تستطع أن تتحدى أية امرأة «محترمة» في الاستئثار بأي رجل.. ولتكن هذه المرأة زوجة الحاكم نفسه.

والواضح أنه هو الذي كان يشعرها بهذا كله، حين كان يؤكد لها – وقد عبث به الخمر والمُجون – أنها وحدها عالمه الحقيقي، في علاقته بالجنس الآخر طبعاً، وأنه لم يصطنع قصة وفاتها الظاهرية، خوفاً من أزمة عائلية، بل من أجل ما يقتضيه المنصب الرسمي ليس إلا.

وقد يبدو لأول وهلة أنه لا مجال للإسهاب في مثل هذه الأمور.

والحقيقة أنها أصبحت أساسية، في التجارب الراهنة للدكتور توفيق، وقد امتد وعيه بطبيعة الحال، إلى كل ما يتعلق بالقضية، لا لأنه وجد نفسه من القلائل، الذين يُتاح لهم لقاء سوسن، واستسلامها في أي وقت يشاءون فحسب – ولا ننسَ أن الحاكم قد وعده بشيء من هذا القبيل – بل لأن الرجل المسؤول – وهو الآن أمام توفيق، محض إنسان عادي على عتبة الكهولة، يبحث عن الملذات – قد أقحم الطبيب

الشاب في الكثير من شؤونه الخاصة. لقد أوكل إليه مهمة الإشراف على صحته، وذلك يعني أن على الدكتور توفيق أن يتتبع قي يقظة، جميع التغيرات التي تطرأ على مزاج عضوي نادر، اعتاد على توتر الفعالية، والتنبه الحذر أثناء العمل، مثلما أدمن على المتعة الجسدية، في كل شيء. ومع أن الدكتور توفيق لم يكتشف أي خلل في تكوين الرجل ووظائفه العضوية. فقد كان عليه أن يبقى دوماً تحت الطلب، ولاسيما في الساعات المتأخرة من الليل، حين يبدأ الجسد أحياناً بمحاسبة صاحبه، على الإفراط في استهلاك طاقته. وهكذا أتيح للدكتور توفيق أن يكون على اتصال مباشر بالحياة العائلية، التي كان ينبغي أن ينعم بها الحاكم العابث.

زوجة جميلة طيبة القلب، ومنزل مترف أشبه بالقصر الأنيق، وأطفال مرحون، في حاشية من الخدم والأتباع.. إلى ما هنالك.

شيء واحد كان يحول بين رب الأسرة، وبين ما ينبغي أن يكون عليه – في تقدير الدكتور توفيق بالطبع – هو التساؤل القلق عما «ينبغي». هذا ما يُلاحظ في مزاجه للوهلة الأولى. وهي ملاحظة صحيحة، على الرغم من أنه يبدو راضياً عن كل شيء في الجو العائلي. إذا كان للطب – ويمثله الدكتور توفيق الآن – أن يضع يده على كلمة السر، في هذا التناقض فذلك أن الرجل «القوي» قد اعترف منذ البداية، بأنه في طبيعة الحياة – وهو يعني كيانه الجسدي «الحيّ» – ما يشبه الداء الخفيّ، يترعرع في الأعماق وينمو دون أن يشعر به أحد، وكل ما نعرف من أمره، أنه لا بدّ من أن يكون هو المصوّر الغامض لجميع ألوان الهموم العضوية
– إذا صح التعبير – مثلما يُقال عن نزعة الشر الكامنة في طبيعة كل إنسان؛ إنها الشيطان الداخلي الذي يعبث بروح البراءة بين حين وآخر، ويدفع إلى المعصية والخطيئة. في هذا التصور التقليدي تتراءى أقصى حدود الوعي الأخلاقي لدى الحاكم. والواضح أنه وعي حيادي، كما تدل عليه شخصية الرجل وتصرفاته. هناك واقع لا بدّ من التسليم به، والإذعان لما يمليه من السلوك، لا لأنه لا يُقاوم، بل لأن المقاومة لا تُجدي، بل كثيراً ما تكون نوعاً من الحماقة أو الجنون: وساوس الداء الكامن في الجسد، والنزوات «الشيطانية» الماكرة. قد يكون من الصعب أن نعزو «استهتار» توفيق، إلى تأثره، بشيء من «حكمة» رجل السلطة في هذا المجال، ولاسيما ما يتناول الجانب الأخلاقي – إذ قلّما يكون همُّ الجسد مشكلة في مثل هذا السن – غير أنه كان في الحقيقة، يشعر بنوع من الهيمنة الخفية، تحرّضه على الرغبة في الاستباحة على الأقل....

الحقيقة أن هذه النقطة هي وحدها التي بقيت موضع التساؤل «المريب» في وجدان الدكتور توفيق، من كل عناصر الفضيحة.

شيء بينه وبين نفسه، يبعث القلق أحياناً، ولكنه لا يُبدّل شيئاً من السلوك. والواضح أن الدكتور لم يهتم كثيراً بأن تكون المسألة أزمة داخلية، مقدار اهتمامه الشديد، بأن يفعل كل ما يشاء، دون أن يشعر

برقابة الآخرين. لماذا!. إنه نفسه يجهل. ولا يعرف أيضاً، أهو شيء في طبعه، أم أنه من ثمرات استسلامه الصامت لشخصية الحاكم؟، الشريك الأكبر في القضية، وقد أصبح بصورة عفوية، شريكه أيضاً في سوسن.

كان الطبيب يوافيها مرة في الغالب، خلال الأسبوع، وهو يعلم أن الحجرة الأنيقة التي كانت تستقبله فيها، قد أعدت من أجل كثيرين. أما منزلها الحقيقي فقد كان من أجل الحاكم وحده.

* * *

– 4 –

لماذا اعتاد توفيق أن يشرب الخمر في النهار؟

في أوائل نيسان، بدأت الغيوم الممطرة تنحسر عن فضاء حلب، وأصبحت زرقة السماء أكثر إشراقاً، وهي تطل على المدينة في صفاء عميق، خلال السحب الرقيقة المتناثرة، وهي صورة الربيع الوحيدة في هذه المدينة الرمادية، التي تفتقد انسياب المياه الصافية، واخضرار الشجر الظليل، وانطلاق النسمات الدافئة في أريج الأزهار العبقة، ونضارة البراعم المنعقدة على الأغصان الندية... هكذا تنسكب صورة الربيع في إحساس توفيق، وهو الدمشقي العريق الذي ولد بين الغوطتين، وألفت إحساساته منذ الطفولة، كل ما في الطبيعة من جمال غض يلّوح به تغيير الفصول.

وها هو ذا في أول ربيع من حياته في حلب، لا تملأ عينيه إلا الزرقة العميقة، والسحب الصيفية الشاردة، واغبرار الحجارة في كل مكان..

إذن، كان في مزاجه شيء من الحرص الفطري على الاستمتاع الحسي المرهف، بأشياء الطبيعة، على النحو الذي يستأثر بمشاعر أي فنان عادي على الأقل. هذا ما يكتشفه الآن، ويحس من خلاله، بأن للعالم صورته الباهتة أيضاً، إلى جانب مسرّاته الدافئة وما فيها من مباهج. الآن، أي في الساعة الثامنة والنصف تقريباً من صباح الأحد (5) نيسان، يوم عطلة عيد الفصح. كان قد ارتدى ثيابه وتناول الإفطار، وجلس أمام النافذة يدخن، في طمأنينة وادعة... طمأنينة الإحساس العميق باكتفاء الجسد، من كل ناحية، لولا هذا الحنين إلى ما اعتاد عليه من تألق الربيع. ومع أن هذا الحنين لم يكن خالياً من عذوبة الذكريات «الحسية»، فقد شعر توفيق بأن شيئاً ما، يمكن أن يرمم هذه الفجوة في غبطة النهار، فوجد نفسه يهمّ بمغادرة الحجرة، وقد خطر له – لأول مرة – أن كأساً من الخمر، في حانة شعبية صغيرة، تجلو شيئاً من مزاجه وتمنحه الصفاء. وهذا ما فعل. ولم يكن مخطئاً في تقديره، على الرغم من أن نشوته الصباحية الغامرة، كانت تمتزج بشيء من التساؤل القلق، حول هذا التدبير الجديد في مسايرة رغباته. كانت الحانة ممتلئة بالسكارى، في مثل هذا الوقت المبكر؛ وكان الدخان المتموج في زواياها المتقاربة، وقد اختلط بضوضاء الأحاديث، وأغاني المذياع الصادحة، يبعث جواً من الانشراح يستهوي جميع الذين يكونون على شاكلة توفيق، في اقتناص الغبطة في كل لحظات اليوم.

ومع هذا فقد تساءل – وهو يغادر الحانة – عما إذا لم يكن باستطاعته، أن يستغني عن هذه النزوة النهارية،... وهو الذي رصد كل ساعات منتصف الليل من أجل المُجُون؟.. غير أن هذا التساؤل ما لبث أن تبدد في أيام العطل التالية..

في أحد هذه الأيام كانت المصادفة الغريبة. كان يوم الجمعة، والساعة لم تبلغ التاسعة صباحاً، لم يكن توفيق يرتشف الكأس الأولى حتى تسرب إلى سمعه صوت أليف النبرات، من طاولة قريبة، تحلقت عليها وجوه جدّية الملامح، وأيدٍ تحتضن الكؤوس في حيوية مفرطة:

– اليوم أو غداً... لا بدّ أن تجري الدماء... ما دمنا لم نحسن الاستفادة من الحرب.. الذين لم يدافعوا عن بلادهم، يحتلون بلادنا من جديد ... ونحن الذين نساعدهم ونقف إلى جانبهم... مهزلة المهازل...

– لو تعرف ما هي الحرب!.. لا مجال لأية لعبة، حين يتكوّم البارود في كل مكان ... الشيء الصحيح أنه لا بدّ من الانفجار اليوم أو غداً ... هذا هو الشيء الأكيد...

هكذا أجاب كهل متورد الوجنتين، في مزيج من الجدّ وعدم الاكتراث. وقال آخر، بلهجة مماثلة:

– الخطأ أن الألمان لم يأتوا في الوقت المناسب.

فقال صاحب الصوت الذي استرعى انتباه توفيق:

– الألمان؟.. أية كارثة إذن كانت تنتظر البلاد! إنهم لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم فماذا يفعلون بنا؟..

فأجاب الكهل في شيء من الانفعال الطارئ:

– ولكنهم أصبحوا يحكمون العالم... شعب جبَّار...

– ولهذا سوف ينكسرون مع الأسف.. الذي يبدأ الحرب ولا يعرف كيف ينهيها... يختمها خصومه في الغالب... هذه عِبرة التاريخ...

بهذا رد صاحب الصوت في تقرير جدَّي، يكاد أن يبعث على الضحك في مثل هذا الجو العابث. وعندئذٍ تلفت توفيق في اهتمام يتبين وجه الرجل، فإذا هو أمام محمود الرامي، الذي التفت إليه بدوره، كما لو أنهما كانا يرغبان معاً في التعارف من جديد. وقال توفيق في دهشة مصطنعة:

– أهذا أنت؟.. الأستاذ محمود؟..

ونهض المعلّم في عفوية مرحة، يصافح الطبيب في مودة.

– من يتوقع أن نلتقي في هذا المكان؟..

ثم أردف وهو يقدم الطبيب إلى جلسائه، وقد بدا عليه شيء من السُكْر لا سبيل إلى إخفائه:

– الدكتور توفيق الجابر... صديق قديم... أبرع طبيب في الشام..

وتوجه الجميع إلى الطبيب الشاب في ترحيب عفوي واضح، على الرغم من أن الصفة «الدمشقية» لم تكن مستحبة في الغالب، لدى أبناء المدينة، الذين كانوا يأخذون على العاصمة «المترفة» – كما يقولون – أنها لا تصدّر إلا الأجيال «المائعة» من الشباب؛ ولم يكن في ملامح توفيق بجبهته السمراء العريضة، وتقاطيع وجهه الصارمة، وعينية اليقظتين، ما ينبئ بأنه من هذه الأجيال. ومع هذا، فقد استقبلته العيون في تحفّظ واضح، شعر به هو نفسه أول وهلة، وعزاه إلى سبب آخر لا يخلو من الغرور، هو أنه فوق مستوى المكان والحضور معاً؛ وخيّل إليه أنهم يتساءلون – في سرهم – كيف تنازل، بارتياد هذه الحانة «المتواضعة» التي يبدو فيها معلّم ابتدائي مسكين مثل محمود، شخصية لامعة يلتفون حولها، بمثل هذا التقدير والاحترام.

ولأمر ما، استثنى الدكتور توفيق صديقه المعلّم من هذا التساؤل «المتوهَّم»، لا لأن هذا الأخير لم يكن متحفظاً معه فحسب، فقد انتقل إلى طاولته في عفوية ساذجة، بل لأنه أعرب في صراحة غير متوقعة، عن اغتباطه بهذا اللقاء على هذا النحو الغريب.

– أهلاً دكتور!.. أتعرف أنني أتذكرك كل يوم.. نعم .. كل يوم.. بعد الحادثة اللعينة!.. وكان يخطر لي دائماً أن أزورك في المستشفى... أو البيت... زيارة صداقة.. ولكن.. يظهر أنني كنت أتوقع أن نلتقي مصادفة في مثل هذه الأمكنة...

هنا.. دكتور.. هنا.. تعرف الحقيقة عن الناس.. أقصد الأمراض الخطيرة التي يجب أن تُعالج قبل كل أمراض الجسد.

واعترضه توفيق وهو يتناول الكأس، وقد ارتسمت على وجهه سمات الفرح والفضول في آن واحد:

– ولكن... لنشرب النخب أولاً...

فاستدرك محمود وهو يمد يده بالكأس:

– صحيح هذا ما يجب أولاً.. كأسك.. كم أنا مسرور بوجودك هنا!..

وفيما كانا يتبادلان مجاملات «الطاولة» – كما يقولون – كان الآخرون ينسحبون بمقاعدهم في هدوء، إلى الطاولة الأخرى، كمن تنبهوا فجأة، إلى أنهم ملزمون بأن يفسحوا لمحمود، مجال الانزواء الودّي بصديقه. وقال توفيق، وفي لهجته شيء من الاستجواب:

– هل تشرب دائماً في الصباح؟..

– بلى!.. هذا هو الطبيعي.. الخمر لساعات النهار.. هي التي تمنح الأعصاب قوة من أجل العمل، وتجعل الحواس في يقظة مرهفة، مع حركات الأشياء وألوانها المتألقة.

لم يُفاجأ توفيق أن هناك من سبقه إلى اكتشاف هذه الحاجة «الحسية» الغريبة، وقد كان يظن أنها عادة المدمنين وحدهم، – وهم مرضى في نظره – ومن ثم فلا علاقة لها بالعمل أو «تذوق الأشياء» أو سواه، بل إن ما فاجأه هو المشاركة الغريبة بينه وبين محمود الرامي ذاته، في مثل هذا الحافز الدفين. وقال وهو يتفحص وجه الشاب في اهتمام جدّي عميق:

– أما أنا، فلا أعرف كيف خطرت لي هذه الفكرة، جوّ حلب، كامد في النهار، كما ترى، ولاسيما حين لا يكون هناك عمل.

ولكنني، كما تقول، أردت أن أعرف الناس في هذه الأمكنة... الظاهر أن الجميع لا يهتمون إلا بالسياسة... شيء مثير حقاً..

– لماذا لا يهتمون؟.. السياسة هي الحرب والاحتلال والغلاء، وإهانة الناس، والاعتقالات الظالمة... الجميع يعيشون في كابوس فظيع... الذين يسكرون والذين لا يسكرون...

– ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا... ما يحدث هو الذي يجب أن يحدث دون أن يستشار فيه أحد... العاقل يرى لكي يتسلّى...

فقال محمود في تأنيب غير متوقع:

– أنت تقول هذا، يا دكتور؟ وفي مثل هذه الأحوال اللئيمة؟.. لقد رأيت كيف كنت أتسلى شهرين في زنزانة كالقبر... الهواء البارد في قلب الشتاء، والأرض تنز بالماء ورائحته الكريهة، وليس إلا بطانية ملوثة.. كل هذا لأن سيادة الحاكم ظنَّ أنني أهتم بالسياسة...

فقال توفيق، وقد لاحظ أثر الخمر في حديث الشاب:

– أعرف هذا... ولكن.. ما دمنا في هذا الموضوع!.. ألم يكن «الظن» في محله!.. أعني... تصور الحاكم للقضية؟..

فضحك محمود قائلاً في اندفاع مرح:

– الماكر ... لم أكن أتوقع أن يفهم.. نعم.. لقد تعمدت إهانته، ولكن... أتعتقد أن هذا ما كان يهمه لا... القضية كلها عنده هي سهام... بصراحة، لا أعرف حتى الآن لماذا أماتها وأحياها بهذه التمثيلية الخبيثة!؟ كيف فهمت المسألة أنت، يا دكتور؟...

– أنا؟.. لم يخطر لي أن هناك مسألة بحاجة إلى تفسير...

إنه الحاكم... رجل شديد يفعل ما يراه مناسباً... مثلما يريد... وقد رأيت كيف كان بارعاً في الحل!..

– ولكنه لم يحلّ شيئاً... هذا ما يحيرني..

– ماذا تعني؟...

– أخفق في انتزاعها مني.

– سوسن!.. هل أنت متأكد أن هذا ما كان يريد؟.

– أيمكن أن يكون هناك شيء آخر؟... ثم.. إنها سهام.. وليست سوسن... ما تزال معي، كما هي، باسمها وجمالها البريء، وحبها الذي يزداد صفاءً وقوة.

– هي؟.. هل تلتقيان؟.

– طبعاً.. طبعا.. دكتور.. مثل هذا الحب لا يذبل ولا يموت، ولو تآمر عليه ألف حاكم.. كل يوم يجب أن أراها... وتراني... كل يوم، ولو خمس دقائق خاطفة. ومع هذا فإننا نتبادل الرسائل بانتظام... والصور أيضاً... من يومين أرسلت إليّ مجموعة من صورها مع هذه الهدية... انظر...

وأخرج من جيب سترته الداخلي، علبة دخان صغيرة مُذهبّة الحواشي، ثم أردف وهو يعيدها في حرص، وقد غمرت حديثه موجة الانفعال الذي يعرف به صغار العشاق:

– أي ملاك رائع، وضعته الأيام بين الأيدي الملوثة... ولكن... لكل شيء نهاية..

– طبعاً ... أعرف كل شيء.. إنها تصارحني بكل ما يحدث... وما تعجز عن قوله، تكتبه..

– بما في ذلك أنها ما تزال عشيقته؟.

– هي: عشيقة؟. لا... إنه يرغمها... أقصد.. يعتدي عليها... هذا هو الواقع.

– والآخرون؟.. لا بد أنها تحدثك عنهم أيضاً!.

– كثيراً.. لو تعرف كم أصبحت ذات خبرة في معرفة الرجال... جميع أنواع الرجال... ولكنها لا تحب إلا واحداً... الوحيد الذي تُعرّي كل نفسها من أجله..

– ولكن...

– ولكن ماذا؟.. أعرف بماذا تفكر!.. كيف تفعل هذا وهي تحب حقاً؟.. هذا سؤالك، على ما أظن، أم أنك تتساءل كيف أسمح لها، أو أرضى.. أليس هذا ما تريد!... يجب أن تعرف أولاً أنني أستطيع أن أحسم كل شيء في الوقت المناسب.. نعم... في أية لحظة، يمكننا أن نتزوج، ونذهب بعيداً... وهذه هي فكرتها في الأساس، ولكنها ما تزال صغيرة، كما ترى... في مثل هذه السن المتألقة تنزوي في بيت صغير وتأتي بالأولاد... ألا ترى أنه ظلم؟.. إذا لم تكن في حياة المرأة ذكريات مثيرة، تحاول أن

تنساها بعد الزواج، وذكرى حب واحدة، عنيفة، صارخة، تعيش عليها، فما معنى أن تتزوج؟.. صحيح أنهم يأخذون جسدها الآن، ولكنه جسد جميل، يجب أن يعرف الكثير من التجارب؛ قبلة حب طاهرة صادرة عن القلب، تغسل كل ما في الجسد... هذه هي نظرتنا إلى الأمور.. أنا وهي.

فقال توفيق في ارتياب، يلتبس بشيء من السخرية الودية:

– أنت وهي؟.. إذن أصبحت لكما فلسفة في الحياة أيضا؟.. أنت، ربما كنت على صواب؛ هذه وجهة نظر معقولة لدى معلم شاب، ما يزال في بداية الطريق... ولا بدّ أنك تستمتع بالمهنة وبهذا الحب أيضاً.. أما هي فلا أظن أنها سعيدة بهذا المصير، إلا إذا كانت من طراز نسائي عجيب، ولا يبدو أنها تتصرف هكذا، عن فلسفة خارقة وهي – كما تقول – ساذجة إلى هذا الحد.

– العكس هو الصحيح. السذاجة والبراءة هما اللتان تجعلانه أكثر حكمة من أعمق فيلسوف... صحيح أنها لا تحسن التفكير بما تفعل.. بل إنها لا تفكر على الإطلاق.. هذا مؤكد... ولماذا تتعب عقلها بالوساوس؟..

وتابع كلامه وهو يرتشف الكأس، ويشير إلى رأسه في حركة الغرور المألوفة في مثل هذا الموقف، بينما كان توفيق يحاول أن يكتم ضحكة استهزاء سافرة:

– العقل الذي يفكر... هنا.. نعم، هذا هو. لماذا تضحك؟؟ لا أمزح!. أفكاري وحدها تتحرك في توتر وجد، مثل العاصفة العنيدة التي تهب لاقتلاع الجذوع الهرمة... في الصحو والسكر، في الليل والنهار، أفكر دائماً عن الجميع.. أفكر بالمصائر جميعاً.. لأنهم أصبحوا عاجزين في هذه الأيام عن التفكير الصحيح... ولكن هذا شيء آخر... إنني أتحدث عن سهام وحدها، سهام بما هي فيه الآن، وما ينتظرها في المستقبل... جميع شؤونها، الصغيرة والكبيرة، توضع أمامي في كل يوم... هي التي تحدثني عنها، تضعها في عقلي لكي أختار لها الحلول المناسبة... حتى الثياب التي تفصلها، والأسبرين الذي تأخذه في الأوجاع، وأوقات الطعام، ومتى تنام وتخرج... تأخذ رأيي فيها جميعاً، ولا تفعل إلا ما أريد... ولا تؤمن إلا بما أقول... أما الذين تتحدث عنهم... الذين يتداولونها – بصريح العبارة – هؤلاء المساكين ... أعرفهم واحداً واحداً، أكثر مما يعرفون أنفسهم... أعرف أولاً أنهم جُبناء، لا يتجرؤون على مطالبتها، بأكثر من أن تسمح لهم بالاختلاس الجسدي العابر، تماماً مثلما يفعل اللصوص لحظة السرقة، أو المهرِّبون...

فاعترضه توفيق وقد بدأت الخمر تعبث بمشاعره..

– وهل تظن أنهم يريدون أكثر من هذا؟..

– طبعاً كلهم متزوجون في الغالب.. وأغنياء.. أعني لهم بيوت دافئة، وزوجات مغريات صالحات للإمتلاك، ولكن المرأة الوحيدة التي يعجزون عن امتلاكها كلياً، هي سهام.. أو سوسن.. لا يهمّ... الاسم

نفسه والجسد ذاته... ولا شيء آخر... كم كان ذكياً هذا الحاكم الكهل في هذه اللعبة! كأنه كان يقصد الرمز دون أن يشعر... من يدري؟.. امرأة أخرى.. شديدة المراس، مستعصية... تشعرهم – وهي المبتذلة المستهترة في الظاهر – بأنهم ليسوا في النهاية، إلا عملية حيوانية سخيفة، يسمونها الرجولة... هذا كل ما يستحقون...

وتوقف فجأة عن الكلام، وهو يتفرس في عيني الطبيب، وعلى ملامحه ابتسامة غامضة، ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس:

– بهذه المناسبة، دكتور، يجب أن تعتني بالغذاء أكثر... ولا بأس أن تجرب الحشيش أحياناً...

– أنا؟.. ما علاقة هذا...

فقطع عليه العبارة وهو يضحك في عفوية مفاجئة:

– لأنك سريع... متعجل أكثر ما ينبغي... كأنك محروم من النساء سنوات... هذا هو تعليقها هي.. بالحرف الواحد...

أحسَّ توفيق حرارة الدم في وجهه، إما حياء وإما ارتباكاً، وتناول الكأس، قائلاً وهو يضحك في عدم اكتراث طارئ:

– صحيح.. صحيح.. ولكنني أتغذى جيداً..

فقال محمود:

– لا شيء يُفسد الأمور في تلك الناحية... مثل تهافت الجسد...

وتبادلا الأنخاب وهما يضحكان في عبث ودّي غامر.

وحين نهض توفيق يغادر الحانة، شعر الاثنان بأنه من الضروري أن يتواعدا على اللقاء، في وقت آخر.. ضرورة صادرة من الأعماق. كان محمود سعيداً، بأنه استطاع أن يجد من يصارحه بالحقيقة، التي كانت تثقل وجدانه – على ما يبدو – وتثير في جوانحه رغبة متجددة في الاعتراف؛ وكان الدكتور توفيق أشد حرصاً على معرفة المزيد من حقيقته – إياه – حقيقة نفسه وحقيقة جسده، من خلال تجربة المرأة. ولأمر ما، أغفل أن الوسيط معلم سكير في الابتدائي، وأن المرأة ليست إلا فتاة عابثة رعناء، لا يستبعد أن تكون قاصر مجنونة. ومع هذا فقد سجل الموعد والمكان وهو يحس أنها كل النساء.

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- 5 -

السـهـرة

كانت ليلة الفصح. التراتيل الجماعية العذبة، تتصاعد من كنيسة اللاتين الجديدة في حيّ «العزيزية»، وأضواء الصليب في الأعلى تنثر على سطوح البناء الدكناء، ذرات شاحبة من النور، تلتمع في سكينة وادعة، تحت سماء صاحية، يوغل فيها سواد الليل، حتى ليكاد أن يخمد تألق النجوم البعيدة. الظلام يهيمن على جميع المنازل المجاورة، واصفرار الضوء في النوافذ المفتوحة، هنا وهناك، يلوح هامداً كالطلاء الأصم؛ لا يحمل من الحياة ما ينبئ بأنها بقايا سهرات حزينة. مع أنها ليلة عيد في الحي، الذي كان يزخر منذ الأصيل، بالحيوية والبهجة. الخطوات السريعة والوجوه الطلقة،ولعب الصغار، وازدحام الألوان الزاهية الأنيقة. في مواكب الفتيات المرحات. والنساء الحواسر. كل شيء كان يعد من أجل اللقاء العائلي المرح في كل منزل، إلا عودة محمود الرامي، إلى غرفته الأرضية البائسة، في منعطف الزقاق الحجري الصغير، قيد خطوات من باب الكنيسة الكبير. لم يكن للزقاق اسم، ولا رقم للمبنى، الذي وجد المعلم تحت طوابقه المتعددة، مأواه المتواضع.

ومن ثم كان عليه ألا ينتظر في الشارع كل زائر جديد، لئلا يخطئ المكان – أي الغرفة التي كان يشبهها – من الوجهة الجغرافية – ببعض الكثبان الرملية الموقتة، التي تهملها الخرائط المدرسية؛ ويطلق عليها – باللغة الحضارية – اسم «الغواصة» مع أنها لا تنخفض عن أرض الشارع أكثر من درجة أو درجتين؛ غير أن ارتفاع نافذتها الوحيدة الضيقة، في الجدار الوحيد الذي يشاركها الرصيف العام، وبابها الداخلي الصغير الذي يضطر حتى ساكنها الأصلي – على اختصار قامته – إلى الانحناء عند الدخول، وأركانها المزدحمة بكل الأشياء المنزلية، مع أكوام الكتب والصحف والدفاتر، باستثناء الزاوية التي يمتد فيها السرير الحديدي الضيق، بغطائه اللازوردي – بلون البحر في نهار الصيف ــ... كل هذا يضفي على الحجرة من جو العزلة والانغلاق ما يوحيه أي مكان منسي من العالم...

ومع هذا فقد كان محمود قد أعدّ هذا الجو، من أجل سهرة ممتعة. إذن لم تكن زيارة بل سهرة، أي دعوة عشاء لصديقه الجديد توفيق الجابر، حرص فيها على أن تكون مناسبة لتوطيد صلاته الودية بالطبيب الشاب، وأن تكون في الوقت نفسه – كما سوف نرى – برهاناً على ما وُصفت به سهام في لقاء الحانة، من انقياد له، وارتباط عاطفي عميق. وها هو ينتظر أمام الكنيسة. ولم يكن في تصوراته إلا المائدة التي أشرف على إعدادها منذ المساء، وهي ما ينبغي أن يضاف إلى محتويات المكان، مع مذياع كبير يحتل منصة واطئة تلتصق بالسرير، وعليه تمثال صياد من النحاس المحفور، وآنية صغيرة من

الخزف الصقيل وضعت فيها، بدلاً من الزهر، شمعة مضيئة؛ وثلاثة مقاعد خشبية من نسيج القش الملون. وعلى الجدار صورة فتاة بالألوان المائية، في عري مموه وملامح مشرقة، تذكِّر بوجه سهام، غير أنها – في الوقت نفسه – تُشعر بأنها ليست إياها...

أشياء أخرى كانت تحفل بها الغرفة هذه الليلة بالذات. موسيقى هادئة عذبة، من إحدى بقاع العالم، وزجاجات النبيذ والفتاة نفسها. وهي المفاجأة التي أعدّها محمود لضيفه المنتظر.

كانت تجلس في وداعة على حافة السرير وهي تدخن، وتقلب صفحات دفتر صغير. هكذا تركها محمود منذ لحظات، وخرج في الوقت المحدد وهو يقول في مودة حارة:

– ربع ساعة يا سلمى، لن يتأخر أكثر على ما أظن!.. تسلّي بهذه الصفحات... إنها من أجلك...

الحادثة – م 4

إذن هي سلمى؟! اسم ثالث، لا بد ن أن يضاف للتعريف بها، كما يجب؛ وهناك أيضاً مظهرها الخارجي الجديد. أي الهيئة التي جاءت بها هذا المساء. والغالب أنها تحرص عليها في كل موعد من هذا القبيل.الثوب الريفي المنسدل حتى القدمين، تارة يكون معرّقاً، وتارة مقلّم الحواشي، ولكنه زاهي الألوان في كل حين، تُتوجه عصابة تميل إلى البياض، تضم الجبهة والشعر في طيات محكمة، غير أنها تنحسر عند العنق، على نحو يدع النحر عارياً، متألق السمرة، حتى المنحدر الصغير من تباعد النهدين، حيث يلتمع فص من العقيق في سلسلة ذهبية دقيقة، هي كل ما يبدو في زينة الفتاة من الحلي، إلا إذا اعتبرت الحلقة المعدنية المزركشة بألوانها الفضية في الحذاء الصغير، من مظاهر الزينة، رغم أنه – على أناقته العصرية – أقرب إلى ما تلبسه المراهقات، اللواتي يخشين التعثر في الكعب العالي. مثل هذه الخشية كانت تلوح في كل تصرفات الفتاة: حركات يديها وطريقتها في الجلوس والحديث، حتى النظرة والتفاتة الرأس، والابتسامة، كان ظل الحياء والخجل العفوي يهيمن عليها جميعاً.

هذا ما ينبغي أن يقال الآن، لكي يكون هناك ما يسوغ للمعلم «العاشق» أن يسطر في يومياته «العاطفية» – وهي الآن بين يديها – هذه الانطباعات «النظيفة» عن حبه الصادق:

«17 كانون الأول – عودة حزينة إلى سكينة الحب، بين هذه الجدران الكابية. الأمطار الحالمة ماتزال تنهمر على المدينة الهاجعة؛ والصقيع الرمادي وحده، يطوف بالأرصفة المهجورة، يوقظ هنيهات الزمن، في كل مكان، إلا مخدعها الدافئ حيث الحرير من عبق البنفسج؛ والسمرة العارية، أنفاس الليل العاشقة... سلمى أمس، واليوم، وغداً... حتى خطواتي المتهاوية برعشة الأعضاء التي تهمد، وهي تدنو من القبر، حتى انطفاء الأمل في ناظري، وقد كللني بياض الشيخوخة، حتى آخر إيماءة من خلجة الحياة، سوف تبقى سلمى، هنا أو هناك، أو في أي ركن قصيّ من عالم مجهول... فوق الأيام والسنوات. فوق كل الأعمار... وكل أبعاد الزمن؛ حيث يتنهد حبها ويضحك، حيث يزدهر جسدها

بوعود الرغبات، حيث تغمض أهدابها على الرؤى المستحيلة؛ حيث توجد، يتعثر سير الزمن، وتتجمد اللحظات...

«28 كانون الأول – السماء الزرقاء والسحب المنتشرة في فضاء رحيب تعبث الرياح بصفائه، السحب الموشاة بظلال وردية من تألق الغروب... غلائل أثيرية كأنها أجنحة الزمن... سواد عينيها الصافيتين كأول غدير تتجمع فيه مياه الينبوع. والفجر بعيد، الزغب النوراني الوليد عند شفتيها، همساتها الواهية، بعد منتصف الليل.

«1 كانون الثاني – الساعة الأولى من العام الجديد. سكون الليل في ارتعاد الشموع الحزينة. الكؤوس الفارغة، والنشوة الضائعة في سديم ساحر الألوان من رؤى المستقبل. تفتحت أهداب الحلم، وانحسر وشاح الخيال عن أمنيات السنة الجديدة. كان هناك شيء منها: غمغمة همسة دافئة، أو عطر منديل، أو وريقات وردة نثرتها الأنامل الرعناء، حول الكؤوس في عبث طفولي. لأول مرة تعرف أن النور يُطفأ عند منتصف الليل، لكي يولد العام، وأن الناس يصنعون الفرح كله في ليلة واحدة، هذه الليلة، خوفاً من أن يخطئوا في صنع الذكريات الجميلة، في الأيام التالية. هذا ما تقول «الآن نطفئ الشموع هنيهات، من أجل قبلة حب. إذن كل الزمن المقبل ساعات وأيام... حقبة من العمر سوف تنساب دون أن نشعر، حتى انتصاف الليل من جديد، في السنة الآتية. لماذا لا نعرف متى ينتصف العمر؟ وماذا قطعنا من رحلة الحب؟ وكيف تبلغ الرغبات ذروة العنفوان وتبدأ الانحدار؟...».

ما الذي يعنيها أن تعرف؟. كنت أقول:

– سلمى!. ليس بيننا إلا سنوات قلائل... خمس أو أقل...

– لماذا يخطر لك هذا؟..

– لا أعرف. يبدو أن الحب لا يغفل شيئاً في مسألة الزمن..

– الحب؟.. كلمة دخيلة.. لا أعرف لماذا أراها نابية حتى الآن.

– ولكنها الحقيقة الوحيدة في وجودنا معاً.

– لا. إنها السؤال المثقل بالظنون. لا يرد إلا حين يكون هناك إحساس، بأن الآخر ما يزال سؤالاً؛ ليس بيننا «آخر»... انظر...

وتناولت يدي وهي تضعها في راحتها الدافئة:

– أحسُّ أن العروق نفسها تتشعب في اليدين، ويجري فيها دم واحد.

قلت وملء عيني وقلبي، دموع الحنان:

– هذا هو يقين الحب في حياتي، يا سلمى، ولكنني ما أزال أخاف... لأول مرة تقولين هذا... أهي نشوة الليلة أم الانفعال العابر؟.

– بل الإيمان الراسخ يا محمود... كل ما عداه عبث باطل.

من أجل هذا الحب، أستبيح كل شيء.. حتى الرذيلة والتلوث والعار. ما دام هذا الدم الواحد، يتدفق حاراً، صافياً في الشرايين... انظر... كم يبدو شفافاً طاهراً مثل ضياء النهار الوليد.. ألا تشعر بهذا؟.. مم تخاف؟.. أنا التي كنت أرتعد خوفاً من الوحدة، قبل أن أراك. الجميع كانوا في الطرف الآخر... كائنات غريبة، هياكل مفزعة من الدمامة والبغضاء، يكسوها اللحم الآدمي الكثيف، تغتصب حتى المكان الذي تحتله... نعم... هذا هو الإحساس الرهيب! الجميع وجدوا للاقتناص والاغتصاب.. كل رجل مع امرأة تُمتلك هو مشروع للقتل.

وتنهدت، وهي تتأمل ذبالة شمعة ترتجف، حتى لتوشك على الانطفاء؛ ثم همست وقد انسابت في لهجتها العذبة رعشة انتحاب دفين:

– لو أنك معي دائماً، يا محمود! لو أنكَ «أنا»!.

– إلى الأبد.

هكذا أجبت، في تأثر عميق، وأنا أُضيف:

– أعاهدك على أن أكون...

فوضعت أناملها الرشيقة على شفتي، وهي تغمغم في استسلام وديع:

– لا عهود!.. لا تعرف كم تجرحني هذه الكلمات؟.. حتى لفظة الحب، حين تُقال أو تُكتب أو تُصبح أغنية. أعرف أن كل شيء في علاقتنا، بسيط واضح، ومع هذا، فإنني أشعر بأن هناك قصة سحرية، أسطورة مجهولة النسب... نعم... أشياء خرافية لا تصدّق، ولا يجوز أن تُحكى.

وفي غمرة القبلات المتلهفة، والاستباحة العارمة، التي كانت تشيعها في خلوتنا عادة، نشوة الخمر، والعري الدافئ، والموسيقى العاطفية الناعمة، كانت سلمى تردد مثل هذه العبارات المبهمة:

«حين تصبح النظرة سؤالاً... وإيماءة الأيدي لغزاً... وكلمة البوح سراً بعيد القرار... ما يهمني، وأنت في كل جسدي وروحي، أن أمنح جميع رجال الأرض، كل ليلة، لذة ساعة قذرة؟...»

هذا الاعتراف البريء كان يغمرني بنشوة الحب، وصدق الوفاء...»

«2 شباط – السادسة مساء. ما يزال صقيع الليل يسدل ضباب الشتاء، على زجاج النافذة، في كآبة عذبة. سلمى هي التي أزاحت الستائر قبل أن تذهب» وأدارت المذياع على هذه الأغاني الرعناء

«نداءات عشاق مجهولين، عرفوا جميع تجارب الجسد، وانفعالات العاطفة؛ نزوات تنتحب وحب يتمزق... حين يصدح الصوت البشري زاخراً بالانفعال، ومع الموسيقى الحزينة، لا بد من أن يكون هناك شباب، يودّع عنفوانه، أو رغبة ترتعد أمام انطفاء الجسد. ولكن سلمى لا تعرف إلا الهمسات... بل هي تجيد الغناء في مرابع اللهو، ولكن من أجل الآخرين، أما حين نكون معاً، فالكلمات الخافتة، وارتباك العبارة والصمت. حتى أنفاسها تكاد أن تهمد كل ساعات الليل الغافية. هنا كانت تغمض أهدابها المرهفة، طوال الليل، وادعة، عارية، لا تلتقط منها الحواس، إلا أريج البنفسج، ورائحة الربيع، في صحو بستان من الكرز أو التفاح، لم تنعقد فيه البراعم بعد...».

وقلّبت سلمى الكراسة الممتلئة بالحروف، في اهتمام ونشوة.

لابد أن كل هذه الصفحات، قد كتبت عنها وتوقفت عند الصفحة الأخيرة. تاريخ الأمس. اليومية التي لم تتم.

«21 نيسان – ظهيرة غائمة ولكنها تَعد بشمس صيفية مشرقة. متى يبدأ موسم الصحو الأزرق؟ في النهار، وسواد الليل العميق؟.. اليوم هو الموعد.. من يعرف كيف يكون اللقاء مع هذا الطبيب المسكين؛ وماذا سوف يحدث؟. لم تفاجئها المناسبة. إنها تعرفه أكثر مما ينبغي، ولابد أنه هو الذي سوف يتهيّب كل شيء.

قالت – وهي تومئ بالموافقة: «ليأتِ... مادامت ليلة عيد؛ وهو ليس من المدينة!». أي صوت طفولي!!.. كما لو أنها تفكر لأول مرة، بسهرة ماجنة مع رجلين، أحدهما غريب، تجهل نبرة صوته ونواياه، وتعتبر لقاءه محض صدفة مثيرة...».

أغلقت الكراسة وهي تتناول لفافة التبغ من المنفضة، وتستأنف التدخين في قلق واضح؛ ولما كانت تشعر بأنه لا وقت لديها، للتفكير الجدّي والتأمل، فقد استسلمت لنوع من الانفعال العابر، تعرف به في مثل هذه الهنيهات الصامتة من الانتظار.

«أي رجل؟..» هكذا غمغمت في تأثر عميق، وهي تستعيد شيئاً من ذكريات محمود... «الرجل الوحيد الذي يعرفني ويحبني ويقدّسني دون مراءاة أو التواء. بل يشعرني أيضاً، بأنني المرأة الوحيدة التي تهيمن على «الكل»، وهي بالفعل أنقى نفساً، وأكثر شرفاً من أية امرأة... حتى امرأة الحاكم، ليس من المستبعد أن تكون ملوثة الروح، لا بد أن الغريزة تهديها إلى طبع زوجها في هذه الناحية. الأنثى تفهم في الفراش ما يفعل الرجل، مهما تكن بليدة الإحساس. والسكوت يدل على أنها «تدبر» شؤونها، ما دامت لم تلجأ إلى الطلاق... أما أنا... فها هو ذا محمود، يعلّمني الصراحة في كل شيء. بغي معلنة. وقديسة في حقيقة الأمر. ولا بد من أن هذا وحده، يريد أن يؤكده الليلة للدكتور توفيق.. وقد يكون هناك شيء آخر... من يدري؟...».

خلال هذا الحديث الداخلي، تناهى إلى سمعها، وقع الخطوات في الردهة القريبة، وقالت في نفسها: «مادام يحبني ويرعاني». ودخل الشابان وهما يتحدثان في شغب وضوضاء. ولم تنهض – وهي تصافح الدكتور توفيق – بل مدت يدها بعد ذلك إلى لفافة التبغ، وأطفأتها في المنفضة، دون اكتراث... والغريب أن الطبيب لم يُفاجأ بوجودها، والتفت إلى محمود وهو يشير إليها بإيماءة من عينيه، وقال ضاحكاً:

– إذن كل شيء أُعدّ في براعة!..

فأجابته سلمى في هدوء ودّي:

– إنه يوم عيد في الحي كله!.. ألم تلاحظ أن...

فقطع عليها العبارة قائلاً:

– بلى... رأيت الأنوار وسمعت الترانيم... ولكن الأهم هو نهاية الشتاء.. في هذه الأيام الأربعة، يعود برد كانون كما هو، في صقيعه وأمطاره، ثم ينتهي الشتاء أبداً... المدينة كلها تُصاب بالزكام...

وأردف وهو يهمّ بالجلوس، يتفحص المائدة:

– النبيذ الأحمر!.. هذا هو المعقول.. لماذا لم تسكبي حتى الآن؟.

واستدرك وهو يشير إلى ثيابها:

– ولكنك ملفوفة بهذا الشكل... لست بحاجة للتدفئة... السيد محمود... لم أكن أريد إزعاجك... المسألة زيارة أصدقاء عابرة... لا أعرف لماذا خطر لي أنه من الممكن أن تكوني هنا... بل الواجب...

فقالت، وفي عينيها بريق من الإغراء، يلتبس فيه الحياء بالرعونة:

– طبعاً... حين تكون سهرة في غرفة محمود، لا بد من امرأة...

ولاحظت بسرعة أنه فهم غير ما تعني، فأردفت – وهي تبتسم في شيء من المكر البريء:

– لا يستطيع وحده أن يقوم بكل واجبات الضيافة.

وكان محمود قد فتح زجاجة النبيذ وملأ الكؤوس. وشرب الثلاثة نخب اللقاء في مرح صاخب؛ ثم استغرقوا في تداول الأحاديث المختلفة عن تغير الجو، والمرضى، وطباع الحاكم، والوضع السياسي، ونهاية الحرب، إلى أن وجدوا أنفسهم بصورة عفوية يتناولون أكثر المواضيع حساسية في مثل هذه السهرة: شخصية المرأة وكيف أنها – مهما تحاول أن تبدو كائناً إنسانياً منسجماً مع نفسه (وهو من تعابير الدكتور توفيق) – لا بد أن تظهر في النهاية صورة نموذجية للتناقض. والواضح أن الحديث كان عاماً في البداية، غير أنه لم يلبث أن تركز على «سلمى» بالذات، وكانت قد احتفظت بطابع الجد والوقار، رغم ضوضاء العبث، الذي كانت الخمر والموسيقى والدخان، تهيمن به على المكان.

تساءل الدكتور توفيق ضاحكاً:

– هذا أحد الأدلة: ثلاث نساء في واحدة، سهام وسوسن وسلمى.. وما زالت دون العشرين بعد... الثالوث «س...»... بأي اسم سوف تتزوجين؟. ثم تصبحين أماً؟..

فأجابته «سلمى» بهذا التساؤل:

– تعني أُصبح امرأة نظيفة؟. عادية؟.. هذا ما تقصد إليه. أعرف أنني ما أزال حتى الآن، الثالوث البغي، في نظرك، ونظر الجميع... ولكني أعتقد أنكم جميعاً على خطأ؛ جميع الرجال على السواء، عدا محمود... إن حقيقتي هي سلمى.. العاشقة وحدها هي المرأة النظيفة... ولكن من الصعب شرح هذه الأمور...

قال توفيق – وقد بدا عليه الإعجاب الواله بتألق عينيها، وإشراق وجهها وكلماتها العذبة ــ

– لا شيء يحتاج إلى الشرح، لقد حدثني محمود قبل الآن بقصة الحب هذه... ولكنني... بكل صراحة، لا أُومن بالحب، دون وفاء.. أقصد... دون وفاء جسدي...

قالت:

– ما علاقة الوفاء بالجسد؟.. لا بد من استعمال الجسد، بشكل أو آخر، دون أن يمس ذلك علاقتنا العاطفية.

والتفتت إلى محمود، كمن تستنجد به في توضيح هذه النقطة من رأيها، وأردفت:

– ومع هذا فإن كل شيء يتعلق بالشخص الآخر؛ إذا كان راضياً، فلا مجال للأخذ والرد... لا.. بل هناك نقطة أهم، هي ما أريد أنا... إنني أستطيع أن أردع أي رجل عني... أن أرفسه وكل رغباته، إذا شئت. أما محمود، فإنه وحده الذي يفعل ما يريد، أمامه لا يخطر لي حتى التفكير بأنني قادرة على التمنع أو المقاومة، عدا أنه الإنسان الوحيد، الذي يعلّمني ما هو الحب، وما هي متعته الحقيقة...

قال توفيق، في لهجة لا تخلو من التهجم المازح:

– من الغريب أنك تجيدين التمثيل إلى هذا الحد!.. حتى الآن، كنت أعتقد أنك تعطين وتأخذين أيضاً في الممارسة الفعلية للحب!..

فأجابت في ابتسامة خبيثة:

– الممارسة؟.. نعم من المفيد للمرأة أن تعرف أكثر ما تستطيع عن طباع الرجال في هذه الناحية... ولكن متعة الحب شيء آخر..

وهنا تدّخل محمود، وكان طوال الوقت. يصغي في بهجة غامرة، وهو يرتشف الكأس بين الحين والآخر، وينسق صحاف الطعام على المائدة:

– رأيي أنه الفرق الأساسي بين المرأة والرجل. خلافاً لما يظن الكثيرون، أعتقد أنها هي التي تريد أن تعرف وتختزن التجارب، من ناحية الجنس طبعاً، في حين يكتفي الرجل بالمغامرة العابرة...

صحيح أنه يبدو حريصاً على التنقل بين المخادع، ويستهويه أن يستبدل كل يوم، جسداً بآخر، غير أنه يبقى أبداً في حنين دائم إلى «الواحدة» التي يرضيها لكي تمنحه الوفاء.

فقال توفيق متسائلاً:

– التي يرضيها، أم ترضيه؟..

– كل امرأة ترضي أي رجل، حين يقتصر الأمر لديه على الممارسة.. وهذا ما يكون في الغالب، ولكن «القلق الجنسي العميق في حياة الرجل، يرجع إلى ارتيابه، في القدرة على إرضاء «واحدة» فحسب، الواحدة التي تمثل «الجنس» كله،... ربما كان خوفاً من العجز، أو أن هناك وراثة بعيدة في أعماق الرجل، تشعره بأنه «مغضوب عليه» – كما يقولون – من قِبَل المرأة.

وضحكت سلمى وهي تتناول كأسها، وقالت في عفوية مرحة وهي تلتفت إلى محمود في إعجاب:

– هذا هو الصحيح... «المغضوب عليه»!... تعبير مناسب... دائماً كنت أشعر بهذه الحقيقة «الرجولية»؛ ولاسيما حين تبدأ لحظات المباشرة. العيون تتألق والأصابع تنتعش في حيوية دافئة، كما لو أنها تصبح كائنات واعية، تتصرف في معزل عن إرادة الرجل، والشفاه تغمغم في ارتجاف غامض. كل شيء في سلوكهم – أعني الرجال – يدل على الارتباك، ولكنه ارتباك مطمئن: كيف أن ما كان ممنوعاً محرماً، أصبح ممكناً، تجوز فيه كل أشكال الاستباحة... الغضب الأنثوي السحيق، تحوّل إلى رضا وتسامح... إذ ذاك تختلف مواهب النساء. الذكية هي التي تجيد اللعبة، فلا تكتفي بالاستسلام فحسب، بل تُحسن إظهار الرعونة والمجون. وهذا ما أفعل عادة. ففي هذه الحالة وحدها، يتعرى الرجل تماماً بكل طبيعته المضحكة، فجأة أراه وقد أصبح حادثة آلية، محض حركات عابثة معظمها لا لزوم له... ذات مرة وكنت مع الحاكم نفسه، لا أعرف كيف خطر لي أن الحيوان، يمكن أن يكون أكثر تعقلاً وحكمة؛ إنه لا يفقد توازنه هكذا، إلا في المناسبات الموسمية المتباعدة...

وضحكت في شيء من الاستهتار، وشفتاها الورديتان تتلاعبان بنفث الدخان، وكان توفيق في غمرة من الذهول، أمام هذه الملاحظات التي صدرت عن الفتاة، في شيء من السذاجة، ولكنها في الوقت نفسه، كانت – في نظره – تحمل نباهة غير متوقعة. والأرجح أنه تخيُّل نفسه موضع الرقابة، في هذا المجال، وهو الذي اتهم – على لسان محمود بما تعابُ به فحولة الرجل – وقد سبق التنويه بذلك. ومع هذا فقد شارك الفتاة مرحها الصبياني قائلاً:

– لا أظن أن الأمر يختلف كثيراً... حين تكون هناك عاطفة... أو حب حقيقي...

فاعترضت بلهجة جدّية صارمة:

– بل يختلف كل شيء... عندئذٍ تشعر المرأة فعلاً بعظَمة الرجل...

وكانت كلمة «العظَمة» هذه، كما لفظتها، ذات إيقاع غريب في نفس توفيق. خُيّل إليه أنها كانت تصدر عن كل ما في صدرها من إيمان، وما في أعصابها من توتر وحرارة. بل أحسّ في الوقت نفسه، أنها كانت تتحداه، لأنها – كما هو واضح – كانت تعني الرجل الآخر... واستمرت في الحديث بنفس العفوية والسذاجة:

– بلى... عندئذٍ تؤمن المرأة بأنه الكائن الوحيد الذي يجب أن يسيطر عليها، بجسده الراسخ كالأرض، مثلما كان يتفوق عليها بعقله... هذا هو شعوري في مثل هذه الحالة. كل شيء يمكن أن يزول من الوجود ويتشتت، إلا هذا الجسد الذي يمنح المتعة والحماية في آنٍ واحد... كما لو أن الحياة لا يمكن أن تأخذ شكلاً محسوساً آخر. أعني.. فيه القوة والصلابة...

وتحرك في خديها وهج احمرار خفيف ينمّ عن شيء من الحياء العابر. فقال توفيق:

– إذن أنت تعتقدين بتفوق الرجل؟..

– طبعاً... إنه الأعقل دائما...

– كل رجل؟

– بلى.. كل رجل. الشيء الوحيد الذي يتميز به عن كل امرأة، مهما تكن عاقلة مدبرة. لا لشيء إلا لأنه يستطيع في الوقت المناسب، أن ينصرف إلى التفكير وحده...

وتَدَخلَ محمود كمن يحاول أن يشرح وجهة نظرها:

– هذا هو الصحيح، يا دكتور، إذا رجعنا إلى ما تعنيه سلمى حقاً، بعبارة «أعقل»... إن لها أفكاراً واعية في هذا المجال؛ العقل في نظرها هو القدرة على تجاوز الواقع. أن يستطيع الإنسان تصوّر نمط آخر، لحياته الراهنة، مهما تكن مقبولة، ممتعة... أسلوب جديد في ممارسة الحياة، لا يشترط فيه إلا أن يكون على أنقاض الشكل القديم. لا أعرف من أين جاءتها هذه الأفكار، ولكنها، في رأيي، على صواب. هناك شيء من الرفض لا تقوى المرأة عليه، لا لأنها «أحبولة» الحياة – كما يقولون – أو وسيلة للحفاظ على الغرائز... الجنس... النسل... العائلة... الخ، بل لأنها لا تؤمن بالخيال.

وتوقف هنيهة وهو يرفع كأسه في رعونة:

– ما لنا ولهذا الحديث الجدّي... لنشرب نخب سلمى... نخب الثالوث س... كما تقول... إنها هي الخيال الرائع..

وارتشفوا الكؤوس في لغب مرِحْ... ثم استطرد محمود متسائلاً، وقد استعادت لهجته شيئاً من الجد:

– أليس الخيال هو المجهول؟.. وهل هناك مستودع للمجهول أجمل وأخصب من المرأة؟.. باستطاعتها أن تمنح كل عام، كائناً بشرياً لا يعرف إلا الله ماذا يصنع، وكم يحمل من المفاجآت للأرض ومَن عليها...

فرفعت سلمى يدها في حركة احتجاج رشيقة:

– لا... لا.. يا محمود... ليس هذا ما أعني... بل هذا في رأيي ينتقص قيمة الرجل. فهو من هذه الناحية يمكن أن يكون لعبة، في يد المرأة أو أداة... ما أعنيه هو أنه وحده، يستطيع أن يفكر، ويصنع الحياة، بصورة تغاير ما وُجدْنا عليه، ما صنعته لنا الطبيعة... هناك شيء أهم من الخيال، هو روح المغامرة. إن الرجل هو الوحيد الذي يغامر، في حين تعجز المرأة حتى عن التفكر بالابتعاد خطوة أكثر...

وضحكت في عذوبة، وهي تنظر إلى عيني الدكتور توفيق في تساؤل، كما لو أنها تريد أن تتبيّن في أعماق نفسه، إلى أي حد كان يفهم ما تريد أن تقول.

أما هو، أي توفيق، فقد كان في شبه ذهول مما يسمع. كان يبادلها نظرات التساؤل، ولكن من أجل شيء آخر: كيف يمكن أن توجد فتاة طائشة رعناء، شبه قاصر وشبه مومس، أن تفكر على هذا النمط، في مثل هذا المنطق الجديّ؟. لقد تناسى ظاهرة الحب «الحقيقي» النموذجي، الذي كانت تحاول – كما يتصور – أن تنتشل به نفسها، من وضعها الملوث الفاسد. وهو الآن في صدد ذهنها المتألق «العجيب»، – هكذا بدا له – وهي تُشعره في قوة وتصميم، بأن كل ما تفعل، لم يكن إلا ثمرة للتفكير الهادئ العميق؛ مع أنها – كما كان يعرف – لم تبلغ من الثقافة، إلا مستوى قراءة التعريف بالصور، التي تنشرها الصحف والمجلات؛ وكتابة الرسائل بأسلوب أقرب إلى الكلام العامي. ولأمر ما، تصاعد من أعماق وعيه الباطني، شعور غريب بأنها منذ أن تعرّف بها، وتعاقبت بينهما «الخلوات» المشبوهة، كانت تسخر به في استهانة جارحة.

وقال يحدث نفسه وهو يسكب الخمر في كأسها: «.. هكذا تعود يا توفيق إلى حقيقتك «التافهة». هل أنت أكثر من طبيب عادي... بل مُستخدم في التمريض.. يمكن أن يستبدل به أي ممرض آخر، في أي وقت... أمن أجل هذا، أضعت سبع سنوات كاملة، من عنفوان العمر، في دراسة التشريح ووظائف الأعضاء، وكيمياء الدواء؟.. صحيح أنك كنت تعيش حقاً... تستمتع بكل مسرّات الشباب، ولكنك ما تلبث أن تتحول إلى حادثة آلية، مثل أي كائن طبيعي آخر... حتى رجولتك التي كنت تظن أنها مثار

الزهو، تتحول في نظر هذه البغيّ الساذجة، إلى صورة بائسة للخور والتفاهة... الرجل وحده هو الأعقل، لأنه القادر على المغامرة. هذه حكمتها الحصيفة... وأنت؟.. متى كنت رجلاً؟..».

الواضح أن حديثه الداخلي هذا، لم يكن في مثل هذا السياق المنطقي الواضح، ولاسيما أن جو السهرة، كان يزداد مرحاً وعفوية وإشراقاً، ساعة بعد ساعة؛ وهو الأمر الطبيعي مع النبيذ الجيد، والطعام الشهي، ووجود فتاة جميلة متألقة مثل سلمى. بل إن مثل هذه المشاعر الدفينة، قد لازمته طوال السهرة، التي أوشكت أن تمتد إلى ما بعد منتصف الليل، كانت تظهر فترة في تيار وعيه، ثم تضمحل وتضيع في ضوضاء البهجة الخارجية، لكي تعود من جديد بين الحين والآخر. وفي إحدى هنيهات هذه العودة الداخلية، أحس الدكتور توفيق موجة من الكراهية والحقد، لا سبيل إلى فهمها، تنتزعه بكل كيانه من جو المودة والألفة، في علاقته بالاثنين معاً: سلمى ومحمود. وانعطف بحديثه الباطني على هذا النحو الغريب.

«... فليكن... ليس من الضروري أن يحظى الإنسان الشريف بتقدير امرأة قذرة... هي وصاحبها المتشرد، العديم الأخلاق. كيف تنازلتُ فَقَبِلْتُ مثل هذه الدعوة... أنا، توفيق الجابر!.. وماذا يعنيني إذا كانا على هذا النحو من التآلف والحب؟... فليذهب بهما معاً داءٌ مباغت. ولكن.. أليس من المحتمل أن تكون الدعوة كلها، لتوجيه هذه الإهانة؟ «لست رجلاً».. هي.. من أجل أن تُذكرني كيف أتهافت عليها مثل البهيمة، وأمرّغ كل كبريائي عند قدميها، من أجل شهوة زائفة...

هكذا بدأت ساحة الوعي تمتد وتتسع في مشاعر الطبيب «المسكين» – كما أصبح يبدو لنفسه في هذه الخواطر – ومع أنه كان يشعر بأن هذا الوعي قد تركز الآن على ناحية الاستهتار والمجون، في علاقته بالفتاة، وفي ذلك ما يشير إلى أنه قد بدأ يفقد السيطرة على فكره وخياله – فقد كان يجرحه في الأعماق أن يجد نفسه فجأة، ضحية مكر فاجر. لقد غاب عنه أنه لم يطالبها مرة، بأكثر مما كانت تمنحه في كل خلوة، ولم يخطر له من قبل أنها يمكن أن تكون أشد إثارة وأبعث للذة، حتى مع الحاكم نفسه أو مع هذا العشيق «الأبله» الذي أقنع نفسه بأوهام الحب «الوحيد» وترهاته... ولكن... ها هو ذا – ما نزال نستقرئ مشاعر توفيق – يمحو كل الذكريات الدافئة، في نوبة هيجان، لا بد أن نشوة الخمر مصدرها الأول... بل يقتلع من جذور أعصابه وحواسه، كل ما اختزنه الجسد من الملذات الماضية!..

والغريب أنه منذ أن بلغ هذه الهنيهة الحاسمة، من انفعالاته العاصفة، وصمم على انتشال نفسه من حالة «الأسر الجسدي» – وهو تعبير ورد عفواً في خواطره – أحس رغبة عارمة في امتلاك المرأة للمرة الأخيرة، وفي هذه الليلة بالذات. ولا ريب أنه كان قد أصبح في مرحلة من النشوة، لا بد من تتويجها بإرواء نزواته الجنسية، على نحو أو آخر. هذا ما اعتاد عليه في سهراته اليومية العابثة، حتى قبل أن يعرف سلمى... ومع أن موعدهما كان عادة في يوم آخر، من أيام الأسبوع، فإن نزعة غامضة، لا يمكن إلا أن توصف بحب الأذى والشر، قد حتمت على مزاجه أن يقتنصها الآن، وهي في أكثر

المظاهر براءة وبعداً عن الابتذال، ولم يجد صعوبة في التلميح بهذا القصد. وقد ازدحم الجو بتبادل الأنخاب الأخيرة، وأوشكوا على الاكتفاء من الطعام والتدخين وضحكات المرح الصاخبة؛ وفوجئ أن سلمى – كما دلّت عليه نظراتها الأليفة ومجون حركاتها العفوية – كانت تتوقع منه هذه البادرة، بل أشعرته بأنها هي التي كانت تريد. همست في حنان مثير:

– لو أن بيتي قريب، لكانت نزهة ليلية ممتعة... ومع هذا... أنت الذي سوف توصلني في مثل هذه الساعة...

فأومأ توفيق بالإيجاب، والفرح يملأ جوانحه.

ولما كان على محمود أن يستيقظ مبكراً، كما أعلنت سلمى، والساعة تتجاوز الواحدة والنصف – وفي ذلك إيذان بانتهاء السهرة – ودُّع الزائران مضيفهما السخيّ، في غمرة من تعليقات المزاح الماجنة، وقالت الفتاة تشفع كلمات الشكر بقبلة «أخوية» صادحة على إحدى خديه:

– انتبه إلى برودة الليل... وإلا صداع النبيذ البليد... طوال النهار...

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- 6 -

نهاية السهرة وأزمة توفيق

في مثل هذه الساعة من الليل، تصبح الطرقات المقفرة، والأزقة الصامتة، في اتساع الشوارع الكبيرة، أو هكذا كانت تبدو للمرأة والرجل. وهما يترنحان وحيدين على الأرصفة، والسكينة توغل في ركود الهواء، وتخمد في ضياء المصابيح المتباعدة، حتى الارتعاشة الخافتة. لا شيء يتحرك في هدأة الليل العميق، إلا انسياب البرودة في الفراغ، وتألق النجوم الصغيرة، وانحسار الظلام، كما لو أن بقايا الشتاء تتناثر على الأرصفة والبيوت، في ملاءة أثيرية من اللون الرمادي الباهت، كانت الغيوم – حتى الأيام الأخيرة – تطوف به مثقلة بالأمطار الربيعية الخرساء، وتطرد من الزوايا القاتمة كل ظل هامد... أو أن الفجر بدأ العودة قبل الأوان.

– جو رائع!.. لو يتاح للإنسان أن يستمتع بكل الأمكنة، كل أوقات الليل... كلها ساعات يقظة.. ولكننا اعتدنا أن ننام..

هذا ما قالته سلمى في تساؤل ساذج، وقد قاربا المنزل. كانت خطاها الصغيرة تتنقل على حافة الرصيف في اضطراب واضح. وقال توفيق متمايلاً، كمن يستيقظ من حلم غامض:

– من يدري... ربما من أجل هذا، كانت الخمر... أن نرى الأشياء الليلية في خدر يغرينا بالرقاد... ولكنني... منذ الصغر، كنت أحس أن الليل وحده هو الذي يستيقظ حين يغفو الجميع... يبقى ساهراً حتى ساعة يعتكر الظلام قُبيلَ الفجر، عندئذٍ يغمض أجفانه فترة لكي يستريح... هل رأيت الليل في مثل تلك العتمة؟.. عندئذٍ يكون ليلاً بالفعل...

وتبادلا ضحكة مقتضبة؛ ثم قالت سلمى في مزاح لا يخلو من العبث الماكر:

– حين لا نعرف الخيط الأبيض من الخيط الأسود... بالطبع... عندما أشتغل ويكون عليّ أن أرقص أو أغني... لا أعود إلا في مثل هذا الوقت... الليل يستر...

– ماذا تقصدين ؟..

– لا شيء... ولكنها فكرة خطرت لي... عندما تقول إن الليل يكون الليل...

– أهي عبارة مهمة إلى هذا الحد؟..

– ربما... أنت ترى أنها أضحكتنا معاً...

– صحيح... ولكن ما علاقته بسواه؟.

– الليل؟..

– بلى...

– كما لو أنه في امتحان، أليس هذا ما تعني؟..

– ماذا أعني؟.. لا أعرف.. ولكن مسألة الامتحان هذه..

فقطعت عليه العبارة وهي تضحك في مجون واضح:

لا أحد يخطر له أن يمتحن الأشياء الساكتة.. إنها تسير حسب طبيعتها... أما الذين يملكون الوعي والتقدير.. فلا بد من التساؤل عما يجب أن يكونوا .. في الوقت المناسب..

هنا، أخذت لهجة الدكتور توفيق تميل إلى الجد، وهو يقول في شيء من التعثر، تمليه النشوة:

– إذن هناك... امتحان؟.. امتحان لي؟..

الحادثة – م 5

ولم تجب سلمى بل أسرعت في خُطاها، وما تزال تمسك بذراعه في نفس الألفة والاطمئنان. والواضح أنه لا مجال للتنويه بالنقطة الجدية الطارئة، التي انحرفت بسياق الحوار، إلى مثل هذا الصدام النفسي المبهم، وكان جو الحديث بين الاثنين في غاية الانسجام والدعابة، حتى نهاية قولها : «الليل يستر...» ومنذ أن تلفظت بعبارة «لو أن سواه... الخ» أحس توفيق شيئاً من التحدي. غير أنه لم يتبين موضوع هذا التحدي، إلا بعد حين، ولأمر ما، لم يصدق أن يكون ذهنها قد انصرف إلى ما سوف يحدث في خلوة الليلة، على هذا النحو الماجن، مع أن كل خيالاته وخواطره، كانت تحوم حول هذه المسألة، منذ أن أصبحا وحيدين في الطريق. والغالب أن خوفاً غامضاً من التخاذل، كان يعتمل في أعماق ذاته، دون أن يجرؤ على التفكير فيه. وها هي ذي تتهمه سلفاً فيما يشبه الدينونة. ولولا أنهما أصبحا قيد خطوتين من المنزل، لانطلق من جديد في مشاعر العداء، التي اجتاحته خلال السهرة، ولاسيما أنه – كما قال في نفسه – والفتاة تقف أمام الباب، وتتلمس المفتاح في حقيبتها الصغيرة – جُرح في الصميم... «وخلال الدقائق الصغيرة التي استغرقها اجتيازهما الرواق المظلم، وإضاءة البهو، ألح عليه هذا الهاجس الجديد: «إما أنها تجدني أقل جدارة بإرضاء نزواتها العنيفة، وهي سكرى (لا بد من الإشارة إلى أنه لم يعرفها قبلاً في مثل هذه الحالة من النشوة) وإما أنها تريد بأساليب التمنع وسواها – أن تؤكد الخطأ الذي اكتشفاه معاً–ــ هي ومحمود – في هذا المزاج «الجنسي» «القاصر».

ولم يكذبه الحدس. فلم تكد تتعرى أمامه في دفء مخدعها العابق بالطيب، وقد وشته نعومة الستائر، والثياب الحريرية ملقاة هنا وهناك، وما كاد هو نفسه، يشرع في مجاراتها، وقد زايله الارتباك «النفسي» الآنف الذكر، حتى فاجأته بهذه الكلمات الغريبة:

– الليلة يا دكتور... في هذه المرة... ولا مثل كل المرات... لست الآن، لا سوسن ولا سعاد.. بل سلمى.. سلمى العارية، الحقيقية، بانتظار توفيق الحقيقي.. إلا إذا كان ينبغي أن تحمل اسماً آخر...

والغرابة أنه لم يكترث بما تريد أن تقول؛ وقد التقطه في وعي، يقظ، سريع، بل أثّرت فيه نبرة الصوت المتحدية، على نحو مفاجئ صارم، نبرة يانعة مختمرة، يتدفق فيها الرضوخ للغريزة، والتهالك على اللذة، وقسوة الزجر والسيطرة في آن واحد. هذا ما شعر به، وقد أصبحا معاً على الفراش الناعم، وأطفئ النور إلا شمعة واهية الضياء، أمام المرآة، اعتادت المرأة أن تجعلها الشاهد الوحيد على الغمغمات الدافئة في كل خلوة مماثلة..

ومع هذا فقد أخفق الرجل «المسكين». واقترب الليل من ساعة العتمة «المذكورة» ثم اجتازها إلى هنيهات الفجر الوليد، وسلمى تحاول عبثاً، بكل ما أتقنت من وسائل الإغراء والإثارة، أن تجعل النهاية كما ينبغي. وحين رأته ينهض في كآبة، ويرتدي ثيابه للخروج، قالت في حنان غير متوقع، مفعم بالمودة والإشفاق:

– لا بأس يا توفيق، إنه ليس موعدنا الأسبوعي على كل حال...

ولم تنسَ أن تدعوه إلى المبيت عندها حتى طلوع النهار. ولكنه رفض.

* * *

– 7 –

كيف انزلق توفيق في الإساءة إلى الآخرين

بعد يومين أوقف المعلم محمود من جديد، بأمر من الحاكم نفسه، بتهمة التحريض على الشغب، وإعداد المظاهرات العدائية للسلطة في أوساط الطلبة؛ واستدعيت الغانية سوسن للمعاينة الطبية، ثم أُمرت بالانسحاب من مرابع اللهو، ومحافل الحياة العامة، للاستشفاء من المرض الخبيث.

هذا ما تناقلته المدينة. ولم يخفَ إلا على القلة من المعنيين بهذه الأمور، أن وراء الحادث الأول، توصية سياسية، أكد بها الدكتور توفيق للكثير من معارفه – وهو على مائدة الشراب – أن له رصيداً من الثقة لدى الحاكم، لا يستهان به، وأن التدبير الذي يتناول إقصاء «الفتاة الماجنة» كان النتيجة الطبيعية لتقرير طبي «كاذب» وقعّه الدكتور توفيق الجابر، وهو في حالة يحسد عليها من الوعي والتصميم.

ولا ريب أن كثيراً من الأمور قد عادت فيما بعد إلى سيرتها الطبيعية. وربما استطاع الدكتور توفيق، أن يستعيد علاقته الودّية بالاثنين معاً، بعد أن انحسرت عن مزاجه الغريب، موجة الغيظ المكتوم. ولكن الفضيحة كانت قد وقعت بالفعل وعرفت، والغالب أنها أصبحت مثاراً للحوار الداخلي في مشاعر الطبيب الشاب، أطول فترة ممكنة، والدليل على ذلك أنها الشيء الوحيد، الذي استأثر باهتمامه، وهو الآن يهم بمغادرة المدينة دون عودة.

* * *

- 8 -

حيث المنـــــزل الأبـــــــوي

ينحدر شارع الصالحية، من منعطف ظليل في سفح «قاسيون». غابة صغيرة من أشجار الصنوبر، تتألق بالنضارة طوال ساعات النهار، كما لو أن مطراً سحرياً يغسلها كل صباح، في الشتاء والصيف. يزعمون أنها من بقايا الترف الأنيق، عرفت به الفيحاء، يوم كانت جميع المنازل رحبة الفناء، مزهرة الشجر، تنساب فيها السواقي أو تتعالى النوافير، برذاذ هادئ بين أوراق الزنبق العريضة، وارتعاش الرياحين. مثل هذه الحدائق المنزلية المغلقة، كانت تتناثر في الأحياء الآهلة، على جانبي الشارع الكبير. ولكنه لم يحتفظ باسمه الشهير، إلا في الخط الصريح الذي يمتد، بعد انحداره، من الساحة الصغيرة في الجسر الأبيض، إلى «عرنوس»، حيث كثرت فيه روافد الطرقات الحديثة، فاتسع أخيراً، في كثير من الرحابة، لساحة جديدة، خيل للجميع أنها سوف تغير ملامحه الريفية الأصيلة، غير أن المخطط الجديد للمدينة، حمل إليه المروج الصغيرة والشجيرات المغروسة، وقد تناثرت في ملتقى الشوارع، على نحو ينبئ بأن ظلال البساتين التي تقهقرت أمام الجدران الحديثة في أطراف المدينة، يمكن أن تغزو من جديد، قلب الأماكن الصاخبة؛ في البدء كان اخضرار الريف. هذا ما يوحي به الشارع أيضاً، وهو ينزاح قليلاً، لكي يتابع استقامته حتى البوابة التي حمل الاسم ذاته، مع أنها قد تنكرت للصالحية منذ أمد بعيد. لقد أصبحت، هي أيضاً ساحة رئيسية في صميم العالم المتحضّر من دمشق، ملامح المدينة الكبرى التي ترسمها مخيلة الكهول، في جميع الأحياء، عن مستقبل العمران في نهاية الشارع: المباني الضخمة التي بدأت تحد اتساع الفضاء، والأرصفة المزدحمة بالأغراب، وقوافل السيارات المتلاصقة، والإعلانات الضوئية الصارخة، الضجيج الذي لا يخمد طوال النهار.

إن شارع الصالحية يحفل بكل هذه الأشياء. غير أنه أبعد ما يكون عن صفة الحضارة، إما لأنه أقدم مكان عام في دمشق، أي أنه يمثل أولى المحاولات المضطربة، للانتقال من حياة البداوة إلى المدينة، ومن ثم فهو ضائع الملامح: إنه شارع رئيسي، وسوق تجارية، ومتنزه ممتع في آن واحد، وميدان مشهور للتظاهرات السياسية، وحي للسكن أيضاً... وإما لأن الناس قد ألفوا أن يروه منطقة داجنة – إذا صحَّ التعبير – أشبه ما تكون بالطريق العام، في قرية كبيرة. فإلى أمد قريب كان بعضهم يظهرون فيه بثياب النوم، وكانت الأشجار تظلل حوانيته الصغيرة من الجانبيين، لقد قطع الكثير منها في الأعوام الأخيرة، غير أن أطياف الأغصان المتشابكة، والجذوع الكابية، وعبث الرياح بمهاجع الطيور، حتى في شهور الصيف الحارة، ما تزال في ذاكرة الذين شهدوا هذه التغيرات على الأقل، إلى جانب الطابع البدائي العتيق وهو ينتظم كل المنازل القديمة، وقد تحولت قواعده الأرضية إلى مخازن صغيرة،

مكتبة علي بن صالح الرقمية

تتلاصق في ازدحام صارم، يوحي لأول وهلة، بأن أصحابها قد تقاسموها بعد عراك طويل، واضطر كل منهم إلى أن يقبع بزاوية، تعشعش فيها كل بضاعته، ومن ثم كانت العناية الخاصة باللافتات الكبيرة تطل بحروفها الضخمة، ليس من أجل الغرض التجاري فحسب، بل لكي تؤكد أيضاً أن المكان الصغير، قد يضم شخصية مرموقة، لا يتميز عنها أي اسم لامع في السياسة والأدب والوجاهة الاجتماعية، أو بتعبير آخر، شخصية جديرة بأن تلفت الأنظار.

شيء من التقاليد الأصيلة في هذا الشارع العريق، في جميع الشوارع الكبرى يمر الإنسان ضائعاً في الزحام، لا يعنيه أن يراه الآخرون، أو يهتموا به إلا في «الصالحية»؛ الجميع هنا يشعرون بأنهم مراقبون، أو ينبغي أن يكونوا تحت الرقابة. نوع من حب الظهور، أو توكيد الذات على حد التعبير الدارج، حتى الذين أتيحت لهم شهرة مريبة، كالمتشرد الذي يوقف المارة في توبة عاصفة من الوعظ الديني، وهيئته تعيد إلى الأذهان صورة متصوف تقليدي، لا يشك بعدوى الإيمان، حين يكون هناك من يجرؤ على مجابهة المعاصي بكلمات الله ووعده الحق؛... في الشارع نماذج شتى من هذا الطراز، تعلن رفض الانسياق مع القطيع... منها المراهق الذي يحرص على المظهر النابي في الشعر والثياب والكلام... والمتسوّل الذي لا يعترف بالتسوّل، فيوكّل نفسه برعاية القطط والكلاب، والأفاعي البيض، في بعض الأحيان، أو يبيع الأشياء الصغيرة في إلحاح، لا يخلو من القسر غالباً، يعترض سبيل الآخرين دون غاية، إلا أن يعترف بوقاحته الآخرون. إنه أيضاً يريد التفرد بشيء ما، يجعله من أبناء الشارع البارزين.

بهذه الميزة كان شارع الصالحية مكاناً للجميع. إن جميع أهالي الأحياء المجاورة يعدّون أنفسهم من رعاياه الشرعيين. يأتون في شيء من التعالي والكبرياء، لا تفسير لهما، إلا أنه في الأزمان الغابرة، كان المنطقة الوحيدة التي يخرج إليها الإنسان من بيته، لكي يراه الآخرون ويتحدثوا إليه، أو يعرفوا المزيد من خصاله الشخصية ومكانته المرموقة.

وقد تغير الكثير من العلاقات بين الناس، واقتحم الأغراب زحمة الأرصفة وزوايا الدكاكين، حتى أبنية المنازل، ولكن الشارع احتفظ بجوه الأليف. لم يزل مكاناً محبباً للمصادفات الجميلة، وما يزال سره الكبير أنه يضع الجميع تحت أنظار الجميع... هذا في الغالب، ولاسيما عند الظهيرة أو قبيل المساء، عندئذٍ، يكون في أوج النضارة والعنفوان. بل ينبغي أن يضاف الشباب والجمال.

إن أكثر من ثمانين في المائة من السابلة – حسب التقدير المألوف – لا يتجاوزون العشرين من العمر، وهو ما يذكر أيضاً عن الرشاقة والوسامة. ولاسيما في الجنس الآخر، ومن ثم لا بد من الإشارة إلى الصحة والنظافة والأناقة. وهما من الخصائص العريقة في هذا القطاع الخاص من رواد الشارع.. فالجميع إذن في غاية الاكتفاء؛ شعب يتغذى جيداً، وينام كل الساعات، التي تقررها قواعد الطب، بل يضيف إليها ساعات أخرى من راحة الكسل الممتع... ولا عجب، فإن الشارع هو قلب دمشق – من

ناحية الشهرة على الأقل – ودمشق هي الواحة الندية، ذات سبعة الأنهار في اتساع صحراوي بعيد الأرجاء، ظامئ التراب...

من روافد الصالحية زقاق قديم اسمه «الزهراء» يبدو لأول وهلة أشبه بطريق مسدود. في هذه الأعوام، كان يتعرج في منعطفات كثيرة، ودروب ترابية، حتى يبلغ أحد البساتين المندثرة، لم تبقَ من معالمه الريفية إلا بئراً جافة، وساقية يضيع ماؤها في ركام موحل من العشب والتراب، هنا شيد البيت العربي المشهور بطوابقه الثلاثة المرتفعة. وقرميده الأحمر، والأسرة القديمة التي تعيش فيه منذ أجيال باسم «آل جابر»... قيد خطوات، يرتفع بيت مماثل، ربما كان أقدم عهداً، ومن ثم احتفظ بشجرة دلب هائلة، تكاد أن تملأ فضاء المكان، كله، وتأوي إليها قوافل العصافير منذ الأصيل، في صداح جماعي صاخب.. يصبح عند المغيب زمجرة مدوية، تنذر بعاصفة أو زلزال... أو حادثة إنسانية خارقة تزعزع في يوم واحد، كل ما نسجته مئات السنين، من أعراف التحفظ الصامت، وحذر الكتمان وخوف العار في سلوك الكائنات البشرية، العريقة التي يأهل بها كل بيت كبير، في مثل هذا المكان.

«حادثة تهدم بنيان الأسرة دفعة واحدة».

هذا هو التعبير المناسب عن توقع (الانفجار) كما كان يهيمن على تصورات «الشيخ محروس الجابر» على الأقل، ويعبث بوجدانه الطيب، لا لأنه كان عميد الأسرة فحسب، يتمثل في الأعماق مسؤولية الوصاية العائلية أمام الله والناس، بل لأنه كان أيضاً عديم الثقة بالرجل الثاني، في صرح الهرم العائلي – على حد تعبيره – وهو شقيقه الأصغر، والوحيد، توفيق الجابر. أما الآخرون فقد كُنَّ ستاً من الأخوات، تجاوزن جميعاً سن الرشد، فيهن الأرمل والمطلقة والعانس، وقطيع من هذه الرعية القاصر، زوجة جاره وذريتها، لسبب غريب، هو اعتقاده بأن هذا الجار كان ضعيف الشخصية، متساهلاً في شؤون الأخلاق والتقاليد والدين. غير جدير بالحفاظ على السمعة الدمشقية التي ينبغي أن تصان بأي ثمن، لأنها تمس الجميع؛ هذا الاعتقاد هو الخيط الأول في شخصية الشيخ محروس. لقد كان هو، وحده هذا «الجميع»، بمهابته الدينية، ووجاهته الاجتماعية، وخوفه الدفين من كل معصية، مثلما كان في نظره كل إنسان آخر، من العائلتين وبيوتات الحي والمدينة بأسرها، موضوع امتحان صعب، لمتانة الخلق الشامي – كما يقولون – وليس من السهل أن نتبين التناقض في مثل هذا الموقف: إعلان الوصاية على سلوك الآخرين خشية الانزلاق في الخطيئة، والاعتراف الضمني بأن كلاً منهم هو نموذج للكل، إذا تلوث، وصم الجميع بالمهانة والعار.

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

– 9 –

حول الأنموذج الروائي

ها هنا، لا بد من الإشارة إلى أن فكرة «النموذج» لم ترد عبثاً، لقد كان ينبغي أن تتصدر الكلمة الأولى من هذه الرواية، بكل ما تحمله من طابع تقليدي مهترئ، تجاوزه الفن القصصي منذ زمن بعيد. ولكن .. ما يستطيع الأداء، إذا كانت التجارب الإنسانية الحية التي التزم بها، قد اختمرت في أرضية جماعية، مغلقة، لا تمنحه من الأشخاص والحوادث والأشياء، إلا ما دمغ بالملامح العمومية.. وأصبح جديراً بأن يجسد شيئاً من «الكل»؟.

ومع هذا فإن خطر الاصطفاء يبقى ماثلاً؛ ولا بد من الاعتراف بأنه يفسد الكثير من عفوية العمل الفني : لماذا كان «الأنموذج» هذا لا ذاك، مادام الواحد يمكن أن يكون الجميع؟ لا سبيل إلى الجواب. المهم أن لا يبلغ الفن حد الوقاحة، فينزلق إلى الزعم بأنه هو الذي اختار، وأن له غاية أخلاقية في هذا الاختيار!.

ومن يجرؤ على مثل هذا الزعم المغرور أمام الشيخ محروس، بل مَن يستطيع الإدعاء بأن رجلاً «كلياً» من هذا الطراز، يمكن أن يوضع في ساحة الرؤية الفنية – على حد التعبير الدارج – وتكتب عنه كلمة واحدة، دون أن يؤخذ فيها رأيه، حتى لو كانت من آيات النثر القصصي. أو رسمت أجمل صورة فنية عن أنبل إنسان؟ باستطاعة الكاتب أن يمارس حرية الأداء، في معايشة الأزهار والشجر والناس جميعاً، وكل تجارب الحب أو الفضيلة أو البر، وتستعصي عليه الحرية في وصف التفاتة عابرة، من عيني الشيخ محروس، وهو يسأل زائراً في الصباح عن صحته وأحواله؛ إنه يشعر منذ الوهلة الأولى؛ بأن جميع الكلمات والتعابير قد ماتت واندثرت، ولم يبق إلا صيغة «لفظية» واحدة، لا يعرفها إلا الشيخ محروس ذاته!.. وإذا كانت الأعضاء والوظائف تتلازم في بنيان كل كائن حي، فإن في شخصية هذا الرجل ما يوحي أبداً، بأن له القاموس الخاص، الذي يتلازم وخصائصه وتصرفاته؛ قاموس لا يحسن انتقاء ألفاظه أحد سواه.

ومع هذا فإن «الحادث» الروائي الذي يتصدى له فن الأداء القصصي في هذا الصدد – كان على ما يبدو – أشد خطورة من جميع المحاذير التي تفرض التقهقر، أمام العشرات من الشخصيات المماثلة للشيخ محروس، بكل مهابته وفرديته الجماعية المهيمنة، وقاموسه الخاص...

الحادث الروائي تاريخ إنساني حي. وفي مثل هذا التاريخ يموت الأشخاص، وتطحن الأعمار، وتنطوي الملذات بكل عنفوانها وحماقتها، وتضمحل . وتتساقط التجارب البشرية مثقلة بالحب والبغضاء. بالأمل والقنوط، بكل مواقف التمرد والإذعان، لكي يبقى هناك ما يمكن أن يلتقطه الفن، وينسج منه شيئاً من استمرار الحياة الإنسانية، حتى في مثل هذه الأمكنة المعزولة الصامتة، التي يتابع فيها الأحياء كل رتابة الماضي، وأخطائه المتكررة. لكي يكون ثمة مجال للكتابة – على الصعيد الفني – لا بد من أن يدرج الشيخ محروس، بين هؤلاء في تحدٍ وجرأة، بل أن يصبح الموضوع الأسهل تناولاً، والأكثر تعبيراً عن كل الأحياء.

* * *

- 10 -

صعدت (ليلى) عربة الخيل في شارع صغير مقفر من حي «الميدان». في هذا الحي كانا يلتقيان بعيداً عن كل معارف الصالحية. ينتزعان من هدأة المساء، وخفوت ضيائه، ساعة النزهة اليومية كل أسبوع، عدا الخميس والجمعة. في هذين اليومين يلحق الاثنان بالمشاريع العائلية. حتى هذا الموعد الخريفي الصامت، كانت النزهة سيراً على الأقدام، إلى نهاية الشارع، يعودان بعد ذلك بالحافلة أو (الباص).. أما اليوم فهي المرة الأولى التي تذعن فيها ليلى لهذا التحول في مكان اللقاء. لقد شجعها أن العربة كانت شبه مغلقة. ولم يكن العاشقان قد قطعا إلا شوطاً قصيراً في ملامسة الأيدي، واقتراب الجسدين، كان توفيق في نشوة عاطفية غامرة، وهو يحتل مكانه إلى جانبها، ويحس، أول مرة أيضاً، أن باستطاعته أن يطوّق خصرها بذراعه، دون أن يراه أحد، وأن تعبث أنامله المتلهفة بحواشي ثوبها الحريري. دون أن تجرؤ على التمنع أو المقاومة . قال في نفسه:

– هكذا نستطيع الخروج من المدينة، ونذهب إلى أبعد...

ولكنها كانت قد طلبت إلى السائق أن ينطلق في اتجاه الشوارع الآهلة. والتفتت إلى توفيق وفي عينيها حنان لا يخلو من الارتباك:

– لا بد من مكان معقول نأخذ العربة من أجله؟..

– على أن يكون بعيداً..

هكذا أجاب توفيق وهو يشاركها الاضطراب، ويقول للسائق:

– السبع بحرات...

وابتسمت ليلى في شيء من الطمأنينة، على الرغم من أن مخيلتها اتسعت على الفور لمكان النزول، أين سوف تتوقف العربة، وكيف يفترقان؟ كم تراءت لها المسافة قصيرة بين السبع بحرات والصالحية،!.. وخطر لها فجأة أن هناك مسجداً، وأنه سوف يكون وقت خروج المصلين؛ وكثير من «أتقياء» الصالحية، يؤدون الصلاة الخامسة هناك. قد لا يعرفها أحد، أما عن توفيق الجابر، فالجميع سوف يتساءلون؛ ولا يستبعد أن يكون الشيخ محروس نفسه على باب الجامع، وتذكرت كم كان توفيق يردد أنه إذا كان لهذا الحب الوليد من مستقبل حقيقي.. فالشيخ محروس وحده هو الذي سوف يكتب سطوره الأولى. وقد كان بينهما اتفاق ضمني واضح على معنى هذا «المستقبل»... أن تتحول العاطفة المختلسة إلى ظاهرة اجتماعية يعترف بها الجميع. وما من أحد غير عاهل الأسرة، يحق له أن يقدم إلى

المجتمع صيغة الاعتراف. كان توفيق يردد أيضاً: «في كل تجربة أولى مشتركة بين المحبين، تتوحد المشاعر».

إذن لابد من أن يكون هو أيضاً على جانب من الارتباك الذي تعاني منه الآن، مهما يكن عابراً، بسيطاً، أي لا يفسد غبطة اللقاء. خوف ساذج ممتع، من أن يضبطا معاً في مثل هذه النزهة الغرامية المريبة.

قال توفيق في نفسه:

«– على كل حال، لن يحدث شيء إلا في النهاية... أما الآن...».

وغمغمت ليلى في تحذير كاذب، وهي تلتصق به، وتسلمه مواقع أصابعه المتمادية من جسدها الغض:

– توفيق!.. لولا حوافر الخيل!.

– ماذا تعنين؟.

– الجلبة تلفت الأنظار.. والسائق من البلد..

– هذا هو الأفضل.. الضوضاء تمتص الأحاديث.. بعد اليوم لا مجال للحذر حتى عند المشاجرة..

وقالت في ضحكة هادئة:

– مع هذا، أحس أن للحركات صوتاً يسمع، وللأفكار أيضاً...

– فلتكن أعمق إذن!...

هذا ما قاله في رعونة طارئة، وقد امتدت يده تحت الثوب ولامست ساقيها في نهم مثير، ولم يبدر عنها ما يدل على الاعتراض، على الرغم من أن اهتزاز العربة كان يزيده إمعاناً في العبث العفوي! بل همست في تساؤل مفعم بالإغراء:

– توفيق!.. هذا ما يجب..

– من أجل اللمسة الأولى.. الحياة كلها سحر..

– ولكن اليد ما تزال غريبة..

– ماذا تقصدين؟.

– أقصد الاعتياد.. أخاف منه.

– هذا ما تقولين دائماً.. لماذا التفكير قبل الأوان؟.

– من أجلنا معاً.. لن يتزعزع شيء... هذا صحيح...

ولكن ذات يوم.. يتخاذل الجسد... والصقيع يمتد في الشرايين... إنها كلماتك على كل حال..

– بلى.. بلى.. هذا ما أحس به في البداية...

أما خلال هذا الحوار الهامس المثقل بالإبهام والرمز، كان توفيق ينحني على الفتاة في غمغمات صامتة، ويقبلها في لهفة، بل يقضم شفتيها نهماً، كما لو أنها القبلة الأولى والأخيرة. لقد استسلمت في البدء، غير أنها أطبقت شفتيها في تمنع ودي لا يخلو من الغواية، وأحس توفيق في ثغرها الناضر، برودة غير متوقعة، ولكنها مثيرة، وامتزجت في إحساساته ليونة شفتيها وهمهمة الردع المكتومة، ورائحة العطر، وقد خالطها شيء من طعم الحليب وعبق الغار معاً.

وفي غمرة المتعة الحسية الغامضة، خيل إليه أن كل ما في وعيه يتراجع إلى الماضي ويتقهقر، وأن ما يستبيح مشاعره الآن من ألوان الحس ليس إلا ذكرى بعيدة من أولى تجارب الطفولة المنسية، وأن انسياقه في هذه الذكرى هو الذي يمنحه مثل هذه «اللذة» المختلسة، أكثر مما يمكن أن تمنحه الممارسة الجسدية في الحب.

– ولكن لا مكان الآن لمثل هذه العبارة، مادام كل شيء في اللحظة يلتفت إلى براءة الطفولة...

هذا ما قاله لنفسه وهو يبتعد عن ليلى في اكتفاء دافئ، كانا قد بلغا نهاية الطريق، وتوقفت العربة، وهبطا معاً في حذر شديد، زاد من ارتباكهما أنهما كانا يشعران معاً بأن ما تضمنه برنامج النزهة، كان أكثر مما ينبغي، وقالت ليلى في تصميم مفاجئ وهي تحس اللهيب في وجنتيها:

– أعود وحدي... غداً نلتقي في المكان نفسه..

واختلطت بالمارة دون أن تتيح له فرصة الكلام.

كان هذا في أول شارع بغداد، حيث يتسع الفضاء صوب الشمال، وتطل النهايات البعيدة من جبل قاسيون، رمادية كابية، تعشش فيها البيوت القديمة، في اغبرار شاحب أصفر، وتتناثر خلالها شجيرات صغيرة، يتحرك اخضرارها النائي في جو موحش من العزلة، لا صلة لها، بالغياض الندية الظليلة التي تؤلف بساتين المزرعة، في هذا الجانب الخصب من الغوطتين. هذا ما التقطته نظرة توفيق، وهو يستعيد وعيه الحسي بما حوله من أشياء. كان قد انتقل إلى الرصيف الآخر في حذر واضح. نوع من مراعاة ليلى في مخاوفها الصبيانية. وانطلق مسرعاً في اتجاه المسجد، دون أن يتبين هدفاً واضحاً، إلا أن يؤكد لنفسه – على ما يظهر – بأنه غير ملزم بالفريضة. غير أن ارتباكه النفسي – وقد تجلّى في اضطراب حركاته – كان قد ألغى العالم الخارجي كله من حوله عدا انسحاب ليلى، وتوقّع مصادفة غريبة تتيح له

أن يتحدى شيئاً في هذه الفسحة، من الزمن. والغالب أنه كان ملزماً بهذا التحدي. هذا هو شعوره العميق: لا بد من أن يُفرض شيء على السلوك البشري حين يستبيحه الانفعال العابر. تفرض العبادة على المؤمن لأن غياب الشمس يناديه في صوت الآذان. إن واحدا في المائة من المصلين أو أقل قد تعودوا على إيقاع الصلوات الخمس في وقتها المحدد؛ وفي ذلك ما يُدين شخصيتهم الدينية المتماسكة، فمن يدري كم أفقدتهم العادة «المقدسة» – الصلاة من تأجج العاطفة الدينية!. وإذا افترضنا أن النداء هو الذي حرّك فيهم مخافة الله شأن الآخرين، فليس من المعقول أن تكون الآلاف المؤلفة من المتقين، في مزاج واحد ساعة الصلاة، أن يكونوا في حاجة «عاطفية» ملحة إلى التوسل بعزاء الروح ومحبة الله الواحد...

في هذا المسار كانت تنمو مشاعره العدائية العنيفة، إذا كان عليه أن يفترق عن حبيبته، بمثل هذا الحذر الخائف، وأن تنحسر تجربة القبلة الأولى – كما دعاها في سريرته – عن مثل هذا القلق المذعن، فكم كان ينبغي عليه أن يحمل من الحنق والنقمة على رقابة الجميع! ووقف في عتبة المسجد، كمن يهمّ في خلع الحذاء، وهو مصمم على أن لا يفعل. كان يتلمس بين المصلين – وهم يدخلون ويخرجون – وجهاً يعرفه حتى لو كان وجه أخيه، لكي يقول له في جرأة حاسمة: «ماذا تفعلون تحت القبة المضيئة، يا عبيد الله، تشبكون الأيدي، وتغمضون العيون، وتضعون الجباه على الأرض، لكي يحق لكم، باسم الخالق العظيم أن تلعنوا الذين يباركون عظمة الخلاق، وما أغدق الله على البشر من حب وجمال. هذا هو الذنب الكبير؛... إذا كنتم من أجله تصلون فلن يغفر لكم إلى أبد الآبدين!..».

ردد توفيق هذه العبارة بصوت مسموع فتلفت حوله في حيرة. تذكر أن من عادته ألا يخاطب نفسه أحياناً على هذا النحو، غير أنه لا يفعل ذلك إلا إذا استأثر به الهيجان العاصف، وأصبح عاجزاً عن السيطرة على تصرفاته، بما فيها الشتائم والكلمات النابية، في مثل هذا الموقف المفاجئ من التوتر الداخلي، كانت قدماه تتوجهان في عفوية مألوفة، إلى إحدى الحانات المبعثرة في أزقة شارع العابد أو منطقة البرلمان. وهذا ما كان.

* * *

- 11 -

لم تكن بقايا النهار الرمادي قد انحسرت بعد عن زوايا الحانة، بمقاعدها الخشبية المبعثرة، وروادها القلائل، وقد أوغلوا في الصمت العميق. لا شيء يوحي بالحركة واللون إلا وميض مرتعد، يتموج به اخضرار العين السحرية في المذياع القديم. حتى الأغنية المتصاعدة في إرهاق باهت، كانت أقرب إلى الهمود. قال توفيق في نفسه وهو يجلس ويدخن ويرتشف العرق صامتاً مثلما يفعل الآخرون: «حتى الغناء البشري خالٍ من صداح اللون. أين الكهرباء؟..» – وتلفت حوله في كآبة عذبة. كان صاحب الحانة في الباب يرقب المارة على الرصيف. وكان الرصيف مغسولاً نظيفاً يلتمع على حجارته الصغيرة الدكناء، ظل ضياء شاحب، لا مصدر له إلا مصباح علّق في منطعف الشارع، يبدأ به عادة عالم الحانة الصغير، في مخيلة جميع روادها المدمنين. لم يكن توفيق قد أصبح بعد واحداً من هؤلاء، وإن كان شعوره بحب المكان والألفة فيه، قد نما خلال الأشهر القليلة من النزهات الغرامية الأخيرة، إلى الحد الذي جعله يفتقد كأس العرق المسائية كل غروب، ويحن إلى هذه العزلة الأبدية التي يطوقه فيها صمت السكارى الآخرين، وليس لهم من مظاهر النشوة على ما يلاحظ، إلا نفثات الدخان وبريق العيون. وغمغمات الأحاديث الثنائية المقتضبة، يستغرق بعدها المكان كله في السكون من جديد، وتتمادى أغنية المذياع السخيفة في إيقاعها المتكرر الرتيب، كما لو أنها المطربة – ذات الصوت الأغبر – كما أحس توفيق – لا تريد أن يستمر في سماعها أحد، أو أنها ترفض أن تفسح المجال لأي صوت آخر، يمكن أن يحرك الأسماع أو يبعث شيئاً من الدفء في هذه المشاعر الغافية.

هكذا كان يبدو الجميع، حتى توفيق نفسه كان يحس متعة عميقة بأنه يستسلم أيضاً، لعتمة المساء الباردة، في «حياء انفعالي» – إذا صحّ التعبير – يتراءى فيه الإنسان والعاطفة والخيال، أشبه بالأشياء الملقاة جانباً، دون فائدة، إما لأنها استهلكت وأصبحت عديمة النفع، وإما لأنها لا تستخدم في أمر مفيد.في مثل هذا الشعور يلتفت الوعي البشري عادة إلى تجارب الماضي، في نوع من الباطنية العفوية، عند الكأس الثالثة، ينهلها توفيق في تذوق مرهف لنكهة العرق الحادة، ثم يتغلغل الدفء الخدر في كيانه، وتستيقظ الصور موشاة بأغنى ألوان الحركة والحياة. ومع أن الناس من حوله: رواد الحانة، ومشاة الأرصفة، وكل سكان المدينة، يحافظون على الشيئية المحايدة، الآنفة الذكر، وهو أيضاً لا يتحرر من هذه الصفة، فإن تيار الحنين الوافد، يملأ العالم كله في مخيلته المتيقظة، بكل الكائنات البشرية النابضة بعنفوان الحساسية وجموح الانفعال، ولكنها كائنات العالم الذي انطوى الآن، وكان ينبغي أن يصبح من الذكريات المنطفئة، تضمحل صورها يوماً بعد يوم لولا أن الهنيهات الراهنة تحمل مثل هذا الهمود

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الأغبر، وأن نزهة اليوم – على ما فيها من القلق والارتباك – كانت منعطفاً حاسماً في تاريخ حبه الوليد، ولم تخطر له القبلات واللمسات والأنفاس الدافئة، في تعليل هذا الانعطاف، بل كانت كل مشاعره تزدحم حول نقطة واحدة هي: أن ليلى بدأت تستسلم. لعله كان في ريبة من استجابتها العاطفية المطلقة، وهذا هو الغالب ومن ثم بدا له استسلام الجسد أكثر تعبيراً من بوحها الحقيقي بالحب، وتصميمها الأكيد على الوفاء إلى الأبد... ولأمر ما جنحت به الأفكار الدافئة إلى ماضيه السحيق في قصة الاستسلام هذه. ليست ليلى الآن موضع الحنين، بل المرأة كلها، منذ بزوغ الأنوثة العذراء في وعيه الجسدي الغامض، إلى أن بدأت تقتنص بالإثارة الطاغية واللدونة المرهفة معاً، كل مشاعره الغضة، وتستبيح فكره وخياله... تناول الكأس من جديد وهو يحدق في انسياب الدخان والسكون معاً، كما لو أنه يكتشف فجأة في أغوار نفسه، حقيقة متألقة كانت مستعصية على الوعي، حتى هذه الهنيهة، وغمغم: «الصوت!. بلى.. إنه الصوت وحده».

يسهل القول أن الخمر وحدها كانت قد استقرت به عند هذه النقطة، مثلما يحدث للسكير الذي تفضي به النشوة البطيئة إلى فكرة ثابتة. غير أن «توفيق» كان في أوج التألق الذهني، والسيطرة على شتات الذكريات القديمة. بل إنه كان في دهشة من أن تكون تجاربه البعيدة، مع الأصوات النسائية – كما سوف نرى – من الذكريات الحقيقية التي تستعاد. ومع هذا فقد وجد في هذه الاستعادة الآن، شيئاً جديراً، بل الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يتعرى بكل تفاصيله، إما لكي يجابه السكون «البليد» الأدكن الذي يحيط به، وإما لكي يستوثق من أنه حبه الوحيد، الحب الذي هو كل تجربة الحياة، ومن ثم فإنه يتوطد ويتسع، ما دامت له مثل هذه الجذور.

غير أن هذا كله، لم يبدل شيئاً من برنامجه الليلي في مثل هذه الأحوال. توالت الكؤوس مع الجولة الاستكشافية في عالم الذكرى، ساعة أو أكثر. ثم انتقل – كعادته – إلى سهرة صاخبة مع الأصدقاء، في النادي الليلي المعد لهذا اليوم. وبعد منتصف الليل عرّج الجميع على منزل مشبوه. والغالب أنه أرجأ قصة الأصوات أو نسيها كلياً، في غمرة هذا الإيقاع المألوف لنزوات الجسد....

* * *

- 12 -

بدأ توفيق أزمات المراهقة، في سنوات لا سبيل إلى تحديدها، من الاهتمام الجنسي المثير بعالم النساء الغامض. لم يكن جسده بعد قد عرف التغيرات العضوية التي تحول الطفل إلى «رجل صغير». ومع هذا فإن أعصابه وأفكاره وأخيلته، قد راهقت كما ينبغي، وأصبح بمقدوره أن يجني، بين يوم وآخر، هنيهات ممتعة من لذة الجنس. حتى مثل هذه الكلمات كانت تخدش مشاعره «الوجدانية» الساذجة. ولا تجري على لسانه، وهو شأنه في العبارات «البذيئة» الشائعة. كانت لديه من «أفظع» المحرمات على السمع والقول، بل قلما كان يجدها مكتوبة على مقعد في المدرسة أو دفتر أو جدار، دون أن يسارع إلى محوها في استنكار «هيجاني» قبل أن يقرأها ثانية أو يراها الآخرون. غير أنه احتفظ بحقه المطلق في استخدام الجسد والخيال والرسوم العارية والكتابات «الجنسية» في القصص والمجلات. من أجل هذا اللون من لذة اليوم. وحين أسعفته العضوية بأولى بوادر النضج النفسي، أصبح الأمر أكثر من هواية.

هذا هو شعوره بعد أن انحسرت تصوراته «الدموية» في هذا الصدد، وانطلق وعيه في سيره الواقعي المعقول. وعندئذٍ أصبحت نبرة الصوت لدى جميع النساء موضع اهتمامه الجدي الآسر.

لم يكن الأمر مقصوداً، بل محط إرهاف في السمع أقرب إلى الحس العفوي، شعر بأن بعض الأصوات الأنثوية تنساب في جوارحه، بليونة عذبة تشبه انسكاب الحليب في إناء من البلور الصقيل. هذا ما كان يقول.

وكان يحس شيئاً من الحياء المبهم، لأن اللواتي تصدر عنهن مثل هذه الأصوات، كنّ من النسوة الناضجات، ذوات الأجسام الممتلئة وأثداء المرضعات. والغالب أن هذا الحياء – برغم ضآلته في وجدان توفيق – لم يكن إلا ثمرة لتفكيره الغامض بالإثم. نعم.

لقد كان – لفرط انسياقه الغريزي في طلب اللذة – يتخيل امتلاك امرأة من هذا القبيل، امتلاك؟. لا. الكلمة لا تعبر عن التصور. حتى ولا الاستباحة العنيفة الجامحة، ففي ذلك شيء من المقاومة يمكن أن يبديها الطرف الآخر.. الظاهر أنه لم يكن في مزاج توفيق مثل هذا الاستعداد للمغامرة الفروسية، التي يمليها الحب عادة بين الجنسين، ويشترط في الغالب أن تكون هناك امرأة معينة، تتعاطف ثم تتمنع طويلاً، وأخيراً تستسلم. أما «امرأة» توفيق هذه فلتكن مثلاً أرملاً شقراء ممتلئة في الحي، أو زوجة جار غافل، أو عذراء محرومة تخطاها زواج «الشباب» واختمرت أنوثتها من أجل ليلة رعناء.

– ما زلنا في العالم السحري لرغبات توفيق – حيث ينبغي أن تكون الثمرة قد أيعنت روحاً وجسداً، وأصبح لزاماً عليها أن تمنح نفسها بسخاء وحنان.

هل كان توفيق يتصور التجربة بسهولة الأخيلة المناسبة، في إيقاع الصوت الدافئ؟ أم أنه الاستمرار العذب بما يحمله حنين الطفولة من طمأنينة وأمن، أمام ترقرق الألفاظ الناعمة، التي كانت تهدهده بها الأم أو الجدة أو إحدى القريبات. المهم أنه كان منقاداً بالصوت وحده. وكم نسج له هذا الانقياد «الحسي» الغامض من صور وقحة ظلت تواكب ضجيج الرغبة الجنسية، طوال أعوام المراهقة واليفاع. فلا ريب بأن هذه الوقاحة، لم تقتصر على الخيال – وهو كما يقول توفيق نفسه – «سطو» على الواقع – بل إنها صفة التصرفات النابية التي درج عليها في هذه السنوات، منها اختلاس المناطق المحرمة من جسد المرأة، وكم كان يقترف من الحماقات في هذا السبيل، فإلى جانب الرقابة اليومية لنوافذ الجيران، واصطياد المناسبات «العائلية» وغيرها. في هذا الوقت كان قد اهتدى إلى «العادة السيئة»، وهو اهتداء غريزي لا علاقة له بأي نداء أنثوي. وتلك هي المشكلة التي شغلته أمداً في فجر يقظته الجنسية: كيف يمكن الحصول على اللذة منفصلة عن الجنس الآخر؟ في بادئ الأمر وجد أن الغريزة في طبيعتها، أكثر تواضعاً مما كان يتصور. وهل أدل على ذلك من الاكتفاء «الذاتي» والاستغناء عن العالم، ولكن الهموم التي كانت تلح عليه بعد كل استجابة، زعزعت هذا الاعتقاد في نفسه، وأيقن مع الزمن أن متعة الوجود «الجسدي – إذا صح الأداء – هي الرغبة وحدها»، أي أن هذا الجسد لا يكون ينبوعاً لاكتفاء اللذة، إلا عندما ينزع إلى العالم، كما نقول مثلاً إن «الرئوية» الممتعة في الرئتين تمتصان الهواء الذي هو وحده المعنى الحقيقي، لما لهما من وجود «ممتلئ» أو بتعبير آخر إن «النزوع الرئوي» – وهو يتمثله توفيق بهذا الصدد – هو الحقيقة الحية لمثل هذه العضوية. ولا بد أنه نزوع بريء، يمكن أن يتجلّى في الأعشاب والأزهار والحيوانات الأليفة وسواها، فمن حق الكائنات جميعاً أن تتحرك وتمارس الوجود. أما في تجربة توفيق – وقد أحكمت اللذة وحدها نسيجها اليومي – فإنه أبعد ما يكون عن البراءة. لقد كان صورة فاضحة للاستباحة دون أي رادع. ويوماً بعد يوم أصبح يجد نزوعه الجنسي هذا، أشد جموحاً وشراسة، وهل يقال غير هذا، في إنسان وقف على عتبة سن الرشد وهو يريد جميع النساء، ويؤمن أنه لا يكون رجلاً حقاً، إلا إذا استطاع الحصول على حقه الكامل، في مشاركة جميع الرجال، تذوق هذه الكائنات الجميلة الناعمة، ولاسيما التي يوحي إليه إيقاع صوتها الأرعن، أنها امتلكت أكثر من مرة، في مخادع حصينة تغمرها الأسرار العطرة، وأصبح من حقه – هو توفيق الجابر الممتلئ حيوية وشهوة – أن يضيف ما لم يمارس بعد من عنفوانه، إلى هذه الأسرار. لقد وردت عفواً صفة «الجمال». والحقيقة أنها لا تملك في أحاسيس توفيق أي رصيد بديعي، في هذه الحقبة من تفتحه الجنسي على الأقل.

فكثيراً ما كانت نزواته العابثه تستقر على عانس دميمة، أو فتاة مبتورة الساق، أو زوجة مكتهلة، ليس فيها ما يجذب، إلا أن رجلاً آخر قد استهلك نضارتها سنوات وسنوات، وآن لها أن «تثار» لذبولها

الحزين بليلة «آثمة» بطلها توفيق. إن عبارة «الإثم» أيضاً تذكر عفواً دون أن يكون لها المدلول الواقعي عند توفيق. مادامت كل امرأة صالحة لكل رجل، فليس من المقبول أن لا تجرب حظها مع توفيق بل إن هذا ما يمليه «الوجدان الطيب» حين تسنح الفرصة المرتقبة.

في هذه النقطة كانت الأزمة «النفسية» المرهقة تعبث بمزاج توفيق، أزمة الصوت النسائي أيضاً. وكيف يتأرجح بهذا الوجدان بين الإغراء «البهيمي» المحض، وبين نداء الحب العاطفي، الذي يجعل المرأة – وهي ما تزال جسداً يتوجه إلى الحواس بالطبع – حضوراً دائماً للشغف الجامح. إن جميع الشهوات الحسية المماثلة ترتوي حيناً ثم تهمد، في انتظار ميعادها الجديد، حسبما تقتضيه وظائف الأعضاء في إيقاعها الطبيعي، إلا هذه النزوة التي تفرخ عند كل ارتواء، شرارات وليدة من حماسة العصب والدم، ما تلبث أن تنمو على الفور، وتتشعب من جديد بهموم الجنس المثيرة.

تلك هي أزمة توفيق – على الأقل – بل قصة حساسيته المرهفة بوقع النبرات الصوتية، تنساب من كل هذه الشفاه الوديعة، الحذرة، الهشة، تصقلها الحمرة أحياناً، أو تغمغم نضارتها باللمسّ الظامئ، أو تنساب عبر أخاديدها الغضة، بحة نداء.

وهناك الشفاه المتوارية المبعدة وراء الحجب، أو في زوايا البيوت، أو الشرفات العالية. هي أيضاً تمارس هيمنتها اللفظية، كل ساعات اليوم حتى صياح امرأة مسترجلة، في حديث تافه أو شجار – وما أكثر ما يحدث في منازل الجيران – لم يكن خالياً من هذا التحريض، الذي يزداد تغلغلاً في وعي توفيق، كلما ازدادت خلايا جسده نضجاً واستثارة. قيل له ذات يوم إن الحبال الصوتية هي وحدها التي تنقل أول الأمر، ما يطرأ على وظائف الجنس من تغيرات، فأصبح معنياً يتتبع الإيقاع الصوتي من فتيات الحي، قبل الزواج وبعده. وأضافت حساسيته المفرطة في هذه الناحية، أن هذا الإيقاع يصبح أكثر تعبيراً عن التمنع والمقاومة، مما يدل – في حدود تصورات توفيق بالطبع – على أن الرجل هو الذي يستأثر عادة بالمتعة الكاملة، ومن ثم فإن المرأة تحتفظ بموقف العذراء، ما تزال في عتبة مغامرة مجهولة النتائج. ولما كان جميع الرجال الآخرين لا يملكون ما أتيح له، من وعي النداء الجنسي الكامن في الصوت – وهو ما يزهو به بينه وبين نفسه على الأقل – فإن نبرة التوتر النسائي الصائح، سوف تعلو أبداً في كل حي مماثل. صرخة احتجاج ماكرة على عدم الاكتفاء، قد يشفع لها أنها عفوية ساذجة إلى حد ما. لولا أنها في الوقت نفسه، إنذار صريح باحتمال الخيانة الزوجية. وكم كان يستمتع بانسياب خواطره على هذا النحو الأرعن.. وأي عالم ممتع غني بالشؤون الأنثوية الصغيرة، كان ينبسط في مشاعره الخبيثة، بفضل الأصوات وحدها، وهو ما يزال في صدد علاقتها «الخيالية» بما قبل التجربة وبعدها فحسب؟..

ومع هذا فلم يخطر له مرة أن يتساءل: لماذا حساسيته الصوتية هذه؟.وإلى أي حد يتفرد بها بين الآخرين؟ وكم ينبغي أن تكون استعداداً «وراثياً» في كل فحولة، تحار في أنوثة «داجنة» مغرية، طيعة،

ولكنها – كما رأينا – أشد مناعة وأصعب مراساً، في الاستجابة الدافئة لوظيفتها الأساسية؟ أهي وراثة الحجاب، والاختباء، وأخلاقية التستر على محاسن المرأة، ونوايا الرجل؟ أم أنها صفة التردد والخوف في طبع توفيق؟ هذا هو الغالب لقد كان أجبن من أن يُقدم على أية بادرة في العمل أو القول، تعبر عن نزعاته الملوثة هذه؟ بل كان يتظاهر بالعفة والبراءة أمام الجميع، حتى أنه كان يبدي «الغضب» الأخلاقي المتزمت حين يسمع شيئاً من الأحاديث العارية. ويحرص على استنكار كل تصرف يشير إلى الجنس على نحو أو آخر، إلى أن جاء يوم، ووجد نفسه في إحدى دور البغاء، مع عدد من رفاق الليل: فاضطر إلى الاستمرار في الرياء بصلات غريبة، واضطروا هم أيضاً
– بالدنس والقذارة – إلى أن يوكلوا به مومساً ساحرة، لم تجد صعوبة في الانفراد به بعد أن توزع الجميع في حجرات الدار.

غير أنه رفض الاستجابة، وعاد إلى المنزل وحيداً، وهو يحسدهم جميعاً على أنهم يفعلون ما يريدون، وقد عجز عن اجتياز الجدار، الذي يفصل بين الرغبة والفعل. ومرت أيام قبل أن يتنبه إلى أسباب هذا العجز، النبرة المتمزقة في بحة الصوت، تتشابه فيها البغايا جميعاً، وأن هذه المرأة بالذات كانت فتاة صغيرة لم تبلغ العشرين، وقد احتفظت ذكرياته الحسية أعواماً بملمس نهديها «المتحجرين» وتماسك بشرتها الغضة.

في إحدى ليالي الشتاء أتيحت له الشجاعة، على أن يكون ما هو في حقيقته، كما يحس في نفسه، بعيداً عن التظاهر الكاذب، فاقتنص بعض الساعات الموحشة من الظلام، وارتاد المكان المشبوه. كان الدفء يشيع في أرجاء المخدع، والمرأة حاسر تستعجل الأمر، حسبما تقتضي به المهنة القذرة. وكان توفيق في غاية الارتباك، رغم أن كلمات المرأة مفعمة بالطمأنينة والحنان، بل كان في همساتها القليلة نوع من الاستسلام اليافع، لا مجال فيه للتردد أو الحذر.

ولم تكد تتعرى أمامه، وهي تترنم بأغنية شائعة، حتى استيقظ في كيانه شعور عميق، بأن أحدهما يقدم على تضحية من أجل الآخر، ومن ثم فهو أحوج ما يكون إلى الشفقة والعطف. أما أنها هي الضحية، فهو أمر مفروغ منه، ولاسيما أنها قد تجاوزت الأربعين على ما يظهر – ولا بد من أن تكون قد أصبحت أماً ذات يوم، وكان باستطاعتها أن تتلافى هذا المصير الحزين. ومع هذا فقد تبين له – وهي تمارس عملها في مهارة وإتقان – أنه ليس من الصعب، أن يكون هو الذي يضحي بشيء ما من أجلها: عنفوان «البكر» وهو يدنس، مغامرته الليلية المختلسة، من أجل شيء عابر يمكن أن يؤجل.

وفجأة وجد نفسه يسأل المرأة في شيء من التنديد:

– كيف تختارين مثل هذه الحياة؟

فالتفتت إليه وهي تضطجع في عدم اكتراث، وما يزال إيقاع الأغنية، يتموج في صوتها بكل الطمأنينة التي كان ينشرها دفء المكان، وانسياب العطر في الفراغ، والعري المتألق في ضوء الحجرة الخافت. لم يكترث توفيق أنها تجاهلت سؤاله الجاد. والأرجح أنها لم تفهم ما إذا كان يريد، أو أنها تعمدت أن تكون دعوتها الصامتة هذه، هي الجواب البليغ. هذا ما شعر به على الأقل وهي تتفرس في عينيه اليقظتين بابتسامة ماجنة، كما لو أنها تلفت نظره إلى أن كل شيء في هذه الساعة قد أعد من أجله، أما هو فإن هذا «الذي أعد من أجله»، لم يكن في تصوره إذ ذاك، إلا جسدها العاري. أول مرة في حياته، يجد نفسه في حل من كل تحفظ، كان يفرض عليه التعثر في متعة النظر أو اختلاس المحرم في هذا الجنس؛ ولأول مرة أيضاً يكون عليه، هو نفسه، أن يقرر بملء إرادته، حدود الاستباحة، بعد أن كانت – حتى في أخيلته الجامحة – وقفاً على الجسد الأنثوي. ومع أنه لم يكن أقل جموحاً في ممارسة التجربة بالفعل هذه الليلة، فإنه كان يشعر طوال الوقت، بأنه في امتحان صعب أمام شخص ماكر، تراءى له جسد المرأة وهو في عريه الكامل، أضخم مما ينبغي، وشعر بالنشوة أعمق وأشد اكتفاء، غير أنه ما لبث أن أحس بالدم يتسلل شيئاً فشيئاً في كل جوارحه، حسرة مبهمة كئيبة لا تفسير لها – على ما يبدو – إلا أن التحدي الذي هيمن به هذا الجسد على مشاعر توفيق في بادئ الأمر، لم يكن تحدياً يقتضي مثل هذه الفحولة، بل كان شيئاً من الإذعان المشفق، عبّرت عنه المرأة في سذاجة وهي تفتح الباب الموصد، وتغمغم بنبرة حيادية هادئة....

– احذر البرد؟.. واعتن بالغذاء..

فقال ضاحكاً وهو يتخطى عتبة الباب:

– الجو دافئ في الخارج أيضاً..

فأردفت:

– اضبط أعصابك أكثر في المرة القادمة.. تغذ جيداً واشرب كأساً أخرى..

ولأمر ما، زايلته الهموم الصغيرة الطارئة، طوال الطريق وجعل يفكر في غبطة صامتة، كيف ينبغي أن يطيل أمد اللقاء المقبل، وقد صمم على أن يوافي المرأة نفسها كل ليالي الشتاء، «مثل هذه التجربة الأولى لا بد من أن تتوطد وتترسخ، كما هي الحال في كل حب أول». على هذا المنوال كانت تسير كل خواطر الطريق.

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- 13 -

وعلى هذا النحو كانت الحقبة الجامحة من رعونة توفيق في التجربة المشبوهة. لقد احتفظت كل مشاعره بهذه الصفة، على الرغم من حياده المطلق «أخلاقياً» أمام نزواته . والغالب أن الحسرة لم تفارقه إثر كل لقاء، ولعلها أن تكون وحدها مصدر الريبة، فيما أقدم عليه؛ غير أن هذه الحسرة ما تلبث أن تتبدد في هنيهات قصار، تملأ خياله من جديد، بما ينبغي أن يكون عليه في الليلة التالية . ولما كان قد اختار هذه المرأة نهائياً وألف «الموضوع» الجسدي الحي للتجربة، فقد أصبحت الأصوات الأنثوية، ذات وظيفة جديدة في هذا المضمار: لقد تجاوزت مهمة الإثارة العشوائية، التي تتوجه إلى صاحبة الإيقاع الصوتي ذاتها، مثلما كان الأمر في بدء يقظته الجنسية، وأصبحت جميع النبرات «المثيرة» روافد عفوية، تصب في تيار واحد لا يقاوم، هو الحنين إلى المخدع الأول. حنين جارف، موغل في الوفاء، لا مكان فيه لأي حب أو عاطفة إعجاب، أو حتى الحرص الغريزي على الامتلاك. كان يعرف أنها بغي الجسد والروح، وأنه ليس أكثر من مناسبة موسمية في حياتها «الليلية»، ومع هذا فقد وجد نفسه في نهاية الربيع، أشد إخلاصاً لها من أي عاشق حالم. والحقيقة أن هذا الإخلاص كان مفروضاً عليه – كما بدا في الآونة الأخيرة – وكم من مرة خطر له أن تكوينه الجسدي ومزاجه الخاص وما تتفرد به عضويته المعقدة. هي التي تنطلق به تلقائياً، إلى هذه المرأة كل حين، وترفض عليه في الوقت نفسه كل جسد آخر. كل حين؟ بل في جميع الأحيان. فلم تمض الأيام الأخيرة من ربيع السنة، حتى بلغ به الأمر حد الإدمان المخيف، بل ما هو أكثر من الإدمان.

أصبحت كل ساعات اليوم، فترات انتظار ممتع من أجل المرأة، وأصبحت هي أيضاً تتراءى له في كل النساء، كلهن يبتسمن في تحفظ ويتحدثن في خفر، ويصرخن أو يتهامسن، بأصوات متباينة الإيقاع، تعبر عن شيء من الشخصية المتميزة التي تخفي أضعاف ما تعلن، وهو ما تنم عنه الثياب والعطور، وتصفيف الشعر وحركات اليدين، وطريقة المشي والتفات العينين. أما هي فإنها الكائن «النسائي» الوحيد، الذي لا يتكلم إلا قليلاً ولا يرى إلا عارياً، مستسلما، راسخاً في غوايته كالبحر الهادئ، أو السماء الصاحية، أو الاخضرار الدائم، العريق للصنوبر أو الزيتون. شيء من سرمدية البقاء يوجد أبداً هناك، من أجل المتعة الأزلية ولم تغفل المرأة عما آل إليه توفيق في هذه العلاقة.

وليس غريباً أن يكون مثل هذا «الوفاء» غير المتوقع، قد استهواها في شخصية الشاب، فجعلت تعبر له – في حدود واقعها المهني – عن شيء مماثل. بدأت توحي له في مواقف عملية جريئة، بأن معنى التجربة والاستمرار فيها على هذا النحو العذب، يفرضان كل ألوان العبث والفجور، وإلا أصبح

التكرار مثاراً للخيبة والسأم الحزين. والغالب أن تمرسها في «البغاء» – إذا صح التعبير – أو أي شيء مماثل، يجسد طبيعة المومس في كيانها، قد دفعها إلى إجراء تعديل بسيط في استسلامها المعهود، فأصبحت تتدخل في مواعيد اللقاء، وتبدي رغبتها في مشاركته مرحلة التمهيد اليومي، وكانت هذه المرحلة من صنعه وحده، خارج المخدع بطبيعة الحال. وكانت لبقة عفوية في مثل هذا التدخل على ما يظهر، فلم يجد توفيق غضاضة، أي يوم، في الإذعان المطلق لما تريد، ولاسيما أنها بدأت تغض النظر عن الأجر – كما يقولون – كأن ترفض «المحاسبة»، اليومية، أو تقترح عليه أن يستبدل بالمال هدية رمزية، وما أشبه ذلك. ولم تمض فترة، حتى أصبحا يتواعدان في بعض المقاهي الصيفية خارج المدينة، يتناولان الغداء ويفرطان في الشراب، ثم يعود إلى غرفتها لانتظارها. وكان حذراً بادئ الأمر في ارتياد المكان خلال النهار، غير أن الخمرة كانت تمنحه الشجاعة؛ ثم أصبح يكتشف الأوقات «الميتة» – كما يقول – تكاد أن تخلو فيها الشوارع، ويستبعد الجميع، حتى حرس المنطقة، أن تخطر لشخص مثل توفيق زيارة من هذا القبيل .

« لكل هنيهة من ساعات النهار والليل، نكهة خاصة، وفي كل فصل وكل موسم... من دون ذلك يبقى الجسد أبداً بهموم الحرمان ».

هذا ما كانت تقول بين حين وآخر، وكان توفيق يردد ما تعنيه في ذات نفسه، ويحس نوعاً من كبرياء الرجولة لا سبيل إلى وصفه، إنه يعرف المرأة في كل لحظة من اليوم... من هنيهة طلوع الفجر، إلى فترة الظهيرة الهامدة، إلى الساعة الموغلة في ظلام الليل.

وامتدت هذه الحقبة من الاستجابة لنداء الحياة – كما كان يدعوها توفيق – أياماً وشهوراً وتعاقبت فيها الفصول والأعوام، دون أن يتسرب إلى أحاسيسه الفتية الدافئة – أي ظل من سأم التكرار. بل استقر لديه يوماً بعد آخر، أنه ما يكاد يتصور أن الفعل نفسه، يمارس في المكان ذاته، والشروط المعتادة، حتى يهيمن عليه اعتقاد جازم، بأن شيئاً جوهرياً يتغير في كيانه الجسدي، ويجعل التجربة جديدة إلى أبعد حد. كان مزاجه الحار مصدر هذا الاعتقاد، وكثيراً ما يرفده يقين أشد رسوخاً، بأنها – أي المرأة – تصبح كل مرة في تكوين عضوي. حتى لون عينيها العسليتين، كان يتدرج من شفافية البلور النقي في ضوء الشمس، إلى عمق البنّي الجانح إلى السواد، في لقاء الأماسي. كم كان يبدو هذا العمق «اللوني» الجميل، متموجاً بما لا ينبغي أن يعرف من أسرار الحب الماجنة!...

وعلى الرغم من انسياقه الجامح في هذه المتعة، ووعيه المتزايد بأنه لن يقوى على التراجع، إذا ساورته الشكوك في جدوى هذا الإدمان، فإنه لم يتساءل، ولو مرة واحدة، كم يحسن بالإنسان أن يقمع مثل هذه النزوات! أو أن يلتمس لذة الوجود البشري، في مجال آخر. لقد امتد هذا الوعي في الفترة الأخيرة إلى طبيعة هذا الوجود، كما يجسدها توفيق ويلخص بها – كما كان يردد أيضاً – أغنى صورة لعنفوان الحياة.

وخطر له أكثر من مرة، أنه قد يكون «شيئاً» لا أكثر، تعلن به هذه الحياة عن امتلاءها واستمرار غبطتها الرائعة، غير أن هذه «الشيئية» كانت من مصادر زهوه وشعوره الدائم بحريته، لم يكن قد عرف بعد ما يكتنف الحب – وهو يمارسه بالعصب والدم – من انفعالات الشوق والحنين، وأحزان الهجر والحرمان، وغليان العاطفة المتأججة وما إلى ذلك؛ بل كان الاكتفاء يغمر كل شخصيته «العاطفية» في هذا الصدد بروح الطمأنينة والسكينة، حتى ليبدو له في بعض الأحيان أن أية امرأة تمارس أنوثتها على هذا النحو، هي كل النساء، وأن ما يستهوي كبار العشاق من إغراء التنقل، ليس إلا مرضاً مبعثه الضعف والعجز؛ بل إنه ليس أكثر من هواية قلقة لا تذكر، أمام الإدمان الحقيقي، الذي يتفرد وحده بجرأة الفحولة والإيمان بحكمة الجسد. ولم يغرب عن ذهنه أي يوم طوال هذه المرحلة الطويلة، أنه كان مستباحاً، أمام الصوت الأول في تجربة الجنس الآخر... صوت النضج الأنثوي المهيمن، يحمل كل وعود الاستباحة، وكل ما في الاستجابة العفوية من ازدهار الحنان...

إلى أن جاءت مرحلة ليلى.. وبدأ صوتها يتناهى إليه عبر أمواج مزدحمة مجهولة من أحاسيس حب جديد.

* * *

- 14 -

لم يأت الصوت وحيداً هذه المرة، بل كان يتغلغل فيه لون الشحوب المراهق: الوجه الغض الحزين، تتنهد خلاياه في براءة صامتة، أو يتحرك في ملامحه نداء خجول، ولكنه مفعم بنوع غامض من اليقظة الدافئة، كل شيء فيه كان في وعي توفيق، بعيداً عن عالم الرغبة والامتلاك. فالفتاة دون العشرين، وفي عينيها الواسعتين بريق ساذج، يحمل الصفاء والتساؤل في آن واحد... الإذعان والسيطرة معاً. وحين تكون البداية مع إيقاع النبرات الراعشة، وحيرة النظرة، والشحوب المرهف، فلابد من أن يكون الجنس، ذا طابع شعري لم يعرفه توفيق من قبل. كانت الفتاة ما تزال في طريق النمو، وهو ما كان يحسه الشاب منذ الرؤية الأولى، وتؤكده أيضاً أنها ما تزال عذراء، يحملها الخفر العفوي، على أن تلملم ذاتها أمام الآخر- حتى لو كان مثلها - أنثى - وتطوق جسدها بجو مبهم من عدم المساس، أيقن فيه توفيق أن هذه «العذراء التي لم تجرب بعد» قد اكتملت روحاً وجسداً منذ أمد بعيد، وأن هذا الصوت الطفولي، بإيقاعه المتوتر الصادح، ينبئ بأشد ألوان التمنع والمقاومة. هذه معركة حقيقية دفينة بين كائنين، يملك كلاهما جميع أسباب الانتصار. هذا هو شعوره أول وهلة. في تجربته الماضية كان الموقف في غاية الوضوح، كانت المقاومة تصدر عن مزاجه، إياه، لا عن المرأة. ومنذ أن روّض هذا المزاج يوماً بعد يوم، أتيح له أن يمتلك الساحة - ما دمنا نستخدم مفردات الصراع - أما الآن فإن كل المبادرات المتوقعة، منه أو منها، تبدو له موضع ارتياب غامض. حتى الصوت نفسه، كان مشوباً بآلاف التساؤلات. كان جميلاً عذب الوقع، واثقاً من نفاذه إلى أعماق القلب، وكان أيضاً حاد النبرات، كأنه صادر عن وتر مشدود إلى أقصى حد، حتى ليكاد أن ينقطع وها هنا تكمن ميزته المؤثرة؛ فهل هي الميزة الخاصة بأصوات العذارى جميعاً في مثل هذه السن؟ لقد كان عالمهن غريباً عن إحساسات توفيق طوال الأعوام. فالفتاة، كل فتاة صغيرة كانت عنده خالية من كل ما يثير الاهتمام، ما دامت من الكائنات المنيعة التي لا تُمتلك في الحال. وليس من المستبعد أن يكون اكتفاؤه العريق، قد أكد في كيانه الذاتي فضاء رحيباً من السكينة والصمت، تصبح فيه الهمسة الصافية ذات صدى يملأ كل مكان. ولم تكن همسة بل نداء يطرق السمع في إلحاح عنيد، ويبدو في الوقت نفسه هشاً سريع العطب. صحيح أن نبراته تتلاحق في انسياب متماسك، أشبه باتصال الخلايا الحية، غير أن كل إيقاع فيها، كان ينذر بالتوقف المفاجئ؛ ومن ثم كان توفيق يحس أيضاً أن في الإيقاعات جميعاً، شيئاً من طلب الحماية، بل حاجة دفينة لا تخلو من التوسل واللهفة، كما لو أن الفتاة لا تتلفظ بكلمة «مسموعة» إلا لكي تشعره بأن وجودها - وقد جعلته العلاقة الناشئة حضوراً دائما - هو أسمى وأغلى من أن يبتذل، أو يفرط فيه، وأن على توفيق - وقد آمن بهذا الحضور - أن يتصدى لحمايته، بكل ما لديه من فروسية وشهامة.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

أهي البداية الطبيعية في كل حب حقيقي؟ أم أنها ظاهرة خاصة بهذا التجاوب العاطفي الوليد، بين ليلى وتوفيق. تجاوب آني عابر، ليس فيه من خصائص الحب المذكور، إلا أنه يمكن أن يستمر ويترسخ ويتحول مع الزمن، إلى علاقة عاطفية مسيطرة، تلزم الاثنين معاً بأن يتمثلا المستقبل على نحو جديد، أن ينسجا من نظرات الغزل المتبادلة، والهمسات المتلعثمة، والتفاهم على المواعيد وانتظارها القلق، خيوط مصير واحد، لا يتبينان منه حتى الآن. إلا أن ليلى ملزمة – إلى حد القسر الداخلي – بأن تحشد كل ما في أنوثتها من فتنة الصبا، ورهافة الصوت، وإغراء التمنع، لكي يحمل توفيق مسؤوليته الكاملة في الولوع بها – دون جميع الفتيات. وحماية وجودها «الهش» – كما كان يشعر به – بل كانت تطمح إلى أبعد من ذلك: أن يكون أسير التزاماته «الغرامية»، في كل حين، فيرى الأشياء بعينيها، ويرصد إحساساته اليومية ومشاعره، بما يقدر أنه من عالمها الذاتي الخاص. وربما أغراها بهذا الطموح، ما كانت تراه في سلوك توفيق من مظاهر الانجذاب العفوي الجامح، منذ الأيام الأولى. لقد وجدت نفسها لديه ملء السمع والبصر؛ ولم يشعرها أي يوم بأن فيها ما يوجب الحد الأدنى، من إعادة النظر، كالتساؤل مثلاً عن نصيبها من الجمال، أو طريقتها في الحديث وإشارات اليدين، أو ذوقها في الزي أو الموسيقى، أو حتى وجهات نظرها في الحوادث والأشخاص؛ هذا إذا تجاوزنا – بالطبع – طغيان الصوت الساحر، وقد كان القطرة الأولى في تدفق هذا السيل الغامر، من تيار الحب العاصف وانفعالاته الجامحة.

والغريب أنه لم يكن باستطاعة توفيق – وهو الذي استنفد الكثير من مغامرة الجنس في علاقته السابقة – أن يتصور ليلى أقل انجذاباً، وخضوعاً لجموح العاطفة. لم يكن يراها عاشقة فحسب، بل فريسة حب مجنون – كما يحلو له أن يقول في نفسه – لن تستطيع التراجع عنه إلا بالفضيحة أو الانتحار. ولم يكن في سلوكها ما ينم على مثل هذا المزاج العنيف، وهو مفترض في جميع لداتها من «أوانس» المدينة المترفات، غير أن ما ينبغي أن تكون عليه، وهي على عتبة حبها الأول، كان وحده كل حقيقتها في وعي توفيق.

فليس من المعقول أن تمنحه مومس مبتذلة من تجربة الجسد، في التعبير عن هذه الناحية من الكيان الأنثوي، وتتكر عليه العذراء الطاهرة، وقد شرعت في اللعبة الخطرة، أن يحظى بالامتلاء العاطفي في أبعد ما تصل إليه أغوار النفس السحيقة!.

شيء من الاقتناع الداخلي، قد يكون من الوهم؛ ولكنه كان يسيّر كل مواقفه الانفعالية من تغلغل هذا الصوت على الأقل.

كان يتشعب في كيانه شيئاً فشيئاً كأنه الحداء الغامض، تجري به الدماء كأنه إيقاعها الطبيعي في الأوردة والشرايين، الإيقاع الذي ينبغي أن يستبدل بكل نبضات القلب القديمة، وحركات الأعضاء، ويصبح الناظم الوحيد لكل خلجات الأعضاء، وحركات الخلايا.

وما دامت نبراته يمكن أن تختزن، فإن حضور الفتاة لم يكن ضرورياً في البداية. فخلال شهور طويلة لم يكن لهما إلا القليل من مناسبات اللقاء. وأي لقاء! مقابلة طارئة في الشارع لا أكثر، وابتسامة صامتة، أو تحية عابرة في مكان غير منعزل . ولكنهما كانا يشعران معاً ببوادر حياة داخلية جديدة، تعتمل في أعماق الوجدان وتنضج يوماً بعد يوم. وكانا يشعران معاً أيضاً بأن عليهما أن ينتظرا أطول فترة ممكنة، قبل أن ترتسم الملامح الواضحة لهذا التغيير الدفين، مثلما يحدث للبذور القديمة، اليابسة حين يلقيها الفلاح في باطن الأرض، وهو في ارتياب من قدرتها على النبت والنماء..

وها هنا يبرز الجانب الفاضح في طبيعة توفيق؛ صحيح أنه كان يؤمن بهذا الحب، وأنه قد صمم على الانتظار الطويل – هذا ما كان يصارح به نفسه كل ساعات النهار – ولكنه في الوقت نفسه، لم يبدل إلا القليل من انسياقه في مواعيد المرأة الأخرى، أي يميل إلى أن يختصر اللقاء المعهود في إحدى ساعات الليل المتأخرة، أو أن يلغيه يوماً أو يومين في الأسبوع. دون أن يؤثر هذا في عنفوان الرغبة، أو يضعف من حرارة النزوات.

هذا ما يشير إلى فضيحة التناقض في شخصيته – كما ذكرنا – لولا أنه وجد نفسه فجأة، على عتبة تجربة جديدة لا سبيل إلى تفسيرها على الإطلاق.

فحين رأى أنه في سبيل الانسحاب البطيء من استجابته «الفاجرة» للمتعة المشبوهة، وأن كل خطوة صادقة يخطوها في علاقته العاطفية «البريئة»، تحتم عليه التراجع، عن هذا الماضي «الفحولي» الملوث، العاصف...إلى آخر ما يمكن أن يوصف به استخدام الجسد، من أجل الملذات الآنية الصرفة، بل حين تأكد لديه أن هذا التراجع هو ما يحدث بالفعل، كما لو أنه أمر محتم، ساورته ريبة غامضة في جدوى التجربتين معاً، وهما على طرفي نقيضين؛ وتنبّه ذات يوم إلى أن الظروف تتيح له نوعاً جديداً من الاستجابة، يمكن أن يتعايش مع واقعه «النسائي» الراهن. حدث في هذه الحقبة أن تعرف إحدى الفتيات اللواتي يقفن عادة عند منتصف الطريق، ويترجمن عاطفة الحب، أو تعاطف الجنسين، إلى مغازلات نهمة لا توصف بالبراءة، ولكنها لا تحمل الدنس أيضاً؛ بل تعبّر عن الرغبة الجريئة، السريعة، في اقتناص المسرّات المماثلة ضمن الحدود الممكنة. ولا نعرف إذا كانت مثل هذه الرغبة شيئاً من طبع توفيق، أو أن الفتاة هي التي خلقتها في جوانحه، وإن كان الاحتمال الأول، هو الأقرب إلى الحقيقة؛ فقد كان توفيق أقل تحفظاً في مسايرة النزوة الوليدة، وأشد اندفاعاً في جني ثمارها المباشرة.

كان الصوت أيضاً سبيله إليها. لم تكن الفتاة في الجمال المتألق الذي تنفرد به ليلى؛ وكانت تتجاوزها بسنوات، ولكنها في الوقت نفسه، كانت ذات سحر خاص، يحتفظ بكل نكهة الحسان اللواتي بدأن يطرقن باب الزواج، وما زلن يملكن كل رصيد الإغراء البكر، الذي يزيده التعجل والخوف من الحرمان، رونقاً مثيراً، يوحي بكل ألوان النهم الجسدي والعاطفي معاً. كان إيقاع الصوت وديعاً،

عريض الانسياب، دافئ الحاشية، يحمل بين العبارة والأخرى، إجهاشة مؤثرة تظللها الدموع. كل مرة، كان ينعكس في مشاعر توفيق بانطباع حسي، يختلف باختلاف المتعة المختلسة. كان مع القبلات النهمة مثلاً، أشبه بالبحر الهاجع في ليلة قمراء من ليالي الربيع، وحين تتمادى ملامسات الأكف، في مداعبات تبلغ حد الوقاحة، كانت الكلمات تتعثر بالحنق الذي يلتبس بين التصنع والعفوية، وتعلو النبرات الصارمة كأنها حواجز من الأسلاك الشائكة، الصعبة، ولكنها غير مرئية . ومع أن هذه العلاقة كانت تزدحم بالأحداث الانفعالية العاصفة أحياناً، أو تبدو أقرب إلى «المناوشات» الصغيرة العابثة أحياناً أخرى، فإنها بقيت شيئاً طارئاً في وجدان الشاب المثقل بالتناقض، ومع هذا، فلم تمض فترة على «مواعيده» ومغامراته حتى بدأ يشعر بأن هذه الفتاة قد أصبحت ضرورية في وجوده العاطفي، بل أصبح يفتقد الكثير من همساتها وقبلاتها في انثناءات جسدها الأنيق، حتى عندما يكون في نزهة «شعرية» مع ليلى، أو في مخدع المرأة الأخرى. أي ثالوث عجيب في تجربة الحب! بل أية تجربة متباعدة النزعات، يتلفت خلالها قلب لم يتعد هيجان المراهقة، إلى نداءات شتى، تأتيه من جميع الجهات، وتتغلغل كلها بآن واحد في كل نبضات العصب، وخلجات الوجدان!...

لقد كان لنا أن نتساءل عن آفاق أخرى يرتادها هذا المزاج العابث، في انقياده السحري الأرعن للجديد من أصوات النساء... والمتوقع أن تكون استجابته لحب رابع، أو علاقة خامسة، في الاندفاع ذاته والحنين الجارف إلى دفء الحياة؛ غير أنه لا مجال لمثل هذا الاحتمال، فسرعان ما استأثرت ليلى وحدها بكل هذا الكيان العاطفي الصارخ، بل استبدت حتى بخطرات الفكر وجموح الخيال، ورويداً رويداً، أيقن توفيق أن القوة السحرية الوحيدة التي تنسج مصيره، دون أن يشعر، بدأت تمحو كل نزواته الأخرى أمام حبه الحقيقي، كما لو أن تجاربه مع كل نساء الأرض، بما فيهن المومس وفتاة الزواج – كما كان يدعوها في سره – لن تكون إلا محاولات متعثرة خاطئة، لابد من تصحيحها ذات يوم. وكان هذا اليوم في خريف دمشقي هادئ، تغمره زرقة السماء الصاحية، لم تتشعب فيها بعد غيوم المطر. وكانت الأغصان المتشابكة في شارع بيروت، ما تزال تحمل أوراقها الشاحبة في انتظار الرياح التي تأخرت طويلاً هذا العام. في هذا الشارع كانت نزهته اليومية المختلسة كل غروب، مع ليلى. وبدأ يترقب هذه الساعة منذ الصباح، ويمتلئ خياله بألف حوار، صامت، يعده من أجل خطواتهما الهادئة على ضفة بردى، حيث الرصيف الطويل قد أقفر إلا من أوراق الشجر الهرمة، وإيقاع النهر الذي يربو ماؤه كل يوم ويعلو. كل أشياء الطبيعة وما يترعرع فيها من صور الحياة ونمائها المتفتح، أصبحت من عناصر النمو أيضاً والازدهار في حب توفيق، ولاسيما مياه بردى، وقد حملت أمواجها المترقرقة في انسيابها الخريفي الصامت، ما يوحي بارتواء الجذور وخصوبة المستقبل... وكم هيمن هذا الإيحاء على مشاعر العاشقين الصغيرين، بصور غامضة من مسرَّات الحياة الممتلئة، منزل تعمره الغبطة، وتتألق حواشيه بالأزهار، وتتعثر في فنائه خطوات طفل لاغب...

زاوية صغيرة من طبيعة توفيق، كانت في ظلال المجهول: أن لا يملك الحب لديه خطوة اليقين الراسخة، إلا وهو أشد استسلاماً وإذعاناً للّسنة الطبيعية المألوفة، في علاقة الجنسين!. كيف تفهم إذن كل تصرفاته الماجنة، والنزوات المتناقضة التي يتحدى بها الجسد مثل هذا المصير المحتم؟..

المهم أن الحب بكل جوهره وحقيقته هو الذي يولد الآن... ويولد معه التاريخ الطبيعي، الخاص بكل ألوان الانفعال والهيجان، والتثبت العاطفي في شخصية توفيق المتميزة، الشخصية التي بدأت تصنعها ليلى وحدها، وقد ملكت القدرة على أن تجعلها، حتى هذه النهاية، أكثر تعبيراً عن أصالة الرجل في الوقت نفسه... ذلك أنه هو ذاته: أصبح على يقين داخلي راسخ، بأنه قد بلغ سن الرشد، كما ينبغي، أي تجاوز حتى مرحلة الشباب، بترهاتها العابثة، من أجل ما يدعوه بحكمة الحياة بعد الثلاثين...

* * *

- 15 -

كيف كان الحب؟ تشير الوقائع التمهيدية التي لعبت دورها في نشوء هذه العاطفة، أن البداية كانت أقرب إلى حنين طفولي قديم، عاش طويلاً في مخيلة توفيق، منذ أن بلغ العاشرة من العمر: أن يستأثر بقلب فتاة – كما كانت مفرداته الأولى – وينزع من وجودها الأنثوي المرهف، كل المودة والحنان والوفاء؛ أن تكون قد خُلقتْ من أجله وحده، ويترعرع حبها مع نمو جسدها، خلال الزمن، فتتحول المودة إلى ولوع ووجد، ويكبر حنانها ويتسع، إلى أن ينصهر فيه كل تعاطف إنساني مع أي كائن آخر: الأب، الأم، والأخ والصديق. . حتى العواطف العميقة الأخرى كالإيمان بالله، وصداقة الأشياء الجميلة والحماسة الوطنية، وما إلى ذلك من الروابط المماثلة التي أشبعته بها التعاليم، على أن يكون الوفاء الأبدي تتويجاً فطرياً لهذه العلاقة، يضفي عليها وعلى الفتاة خاصة، هالة من المهابة والقدسية. في غمرة هذا الحنين «المثالي» الدافئ بدأ توفيق يحلم برسائل الحب. فما كاد يصبح قادراً على التأليف بين الكلمات وجمع العبارات الأدبية البليغة في هذا الصدد، حتى شرع في كتابة الصفحات العاطفية المحمومة، في نجاوى مؤثرة موجهة إلى فتاة الغيب، وعلى الرغم من أن هذه الرسائل كانت ترصع في الغالب، بالجمل المنقولة عن قصص الحب وأشعار الغزل ، فقد كانت تنطوي على تحديد واضح لفلسفة الحب ذاته، على النحو الذي يجعله مرتبطاً – حتى قبل الوجود – بالفتاة التي يحب، ويقضي بأن يجثو عند قدميها، ويجابه من أجلها مغامرة الموت في كل مناسبة. هذا بعد ديباجة مشرقة من التغزل بالأهداب التي تجرح القلب، والشفاه المرهفة مثل أوراق الورد الأرجواني في نيسان.. والخطى الرشيقة التي تنبت الأعشاب الندية من وقعها الهامس.. ولما كان توفيق في الوقت نفسه ذا مزاج واقعي بالفطرة – كما رأينا – فقد استقر لديه – وهو يبدأ مرحلة الرسائل في الحب – أنه يكتب عن أشياء حقيقية، وأن فتاة من هذا الطراز الرائع، توجد حتماً في مكان ما من العالم، بل في المدينة، بل ينبغي أن يكون منزلها قريباً أيضاً، تفتح فيه نافذة بعض ساعات اليوم، لكي تستقبل رسالته على الأقل. ولما كان أنانياً بالفطرة كذلك، تدور الأشياء جميعاً حول شخصه، فقد أيقن في وقت مبكر أن فتاة الوهم هذه، ليست إلا روحه الضائعة منذ الأزل، وأنها لن تكتفي طويلاً بالانتظار، بل سوف تبحث عنه في لهفة صارخة، لا لكي تتحرر من أحزان الضياع فحسب، بل لأن هذه العودة هي وحدها التي تمنحها كيان الحياة الحقة، مثلما تمنحه، إياه أيضاً، كل معنى وجوده على الأرض... وجوده إنساناً راسخ الجذور في تاريخ الحياة. ورجلاً قادراً على احتمال المشقة والكفاح من أجل الآخرين. ولا ريب في أن هؤلاء الآخرين لم يكونوا في تصوراته العذبة، إلا الحبيبة أولاً، ثم بقية السلالة «التوفيقية» التي سوف تمتد بعشرات الأذرع والعيون والأقدام، إلى آفاق المستقبل. في بعض الأحيان كان يقف على شيء من التناقض في مثل هذا

الطبع العاطفي: أن يكون قد جُبِلَ على الروح العملية الضاربة، التي لا تفهم من الحب إلا نتائجه المباشرة.

يوجد الحب حين يوجد الحبيب، وأن يوغل في أحلام الانتظار. ولكنه تناقض وهمي. ذلك أن توفيق كان يصدق كل ما يتصور. حتى اللحظات الحاسمة، هنيهات البوح الأول، حين ترتمي أميرة «الأحلام» على صدره، وتمرغ شعرها عند قدميه... الخ، كان يراها حقيقة لا بد من أن تحدث ذات يوم. أحياناً كان الارتياب يستبد به على نحو لا يخلو من اليأس، وكانت روحه العملية تملي عليه هذا التساؤل المطمئن: «أيمكن أن يمنح الرجل كل هذه الأعوام من فتوة القلب، عشرات الأعوام، دون أن يُقدر له مثل هذا الانتصار على الحياة؟..». هذا ما ورد في إحدى رسائله في سياق شعري، يُفهم منه أنه انتصار على من يحب بل على الجنس الآخر كله. ولم يكن مخطئاً في هذا الادعاء، إن السطور الأولى من الجانبين كانت تؤكد شيئاً من هذا القبيل، ولم تكن حروفاً وكلمات تسطر على أوراق الرسائل الأنيقة، أو المعطرة، في معظم الأحيان، بل كان إيقاع الصوت، والصوت وحده، هو الذي يمنحها كل هذا التأثير العميق، في تكوين الصيغة الجديدة لحب الاثنين معاً.

كانت ليلى تقرأ الرسالة تلو الأخرى، وهي في لهفة إلى أن تراه يردد بلهجته الحارة، ما كتب من همسات البوح وعبارات الود العميق؛ وكان أيضاً، لا يبدأ تلاوة الرسالة في شغفه المعهود، إلا لكي تستعيد مسامعه رنين كلماتها العذبة، ولاسيما حين تتلفظ باسمه، أو تقول له وهما يتواعدان من أجل لقاء جديد: «إلى الغد.. سوف آتي من كل بد، مهما تكن ظروف البيت فلا تنسَ يا توفيق...».

في كل مرة كان يعدها بشيء.. كتاب أو هدية صغيرة أو موضوع هام... ولم ينسَ في أي يوم أن يأتي إلى الموعد، قبل نصف ساعة على الأقل، وأن يقوم بجولة استطلاعية في المكان حذراً من الرقباء، أو حرصاً على دراسة الجو الممكن من أجل مشروع اليوم: نزهة أو زيارة مكتبة، أو الاقتصار على جولة «في العربة» تتيح لهما الحديث الآمن، والاتفاق على الموعد التالي. ومع هذا كله فإن تأكيدها عليه بأن لا ينسَ في كل وداع، كان يملأ مشاعره ثقة بالنفس، بل يجد فيه تلميحاً ذكياً إلى أن الكلمة الأخيرة هي له وحده، وكان في هذا ما يداعب كبرياءه ويزيده إمعاناً في الاستسلام لها بآن واحد.. وفي كلا الحالتين كان يستمتع بأن يمارس كل حريته على النحو الأمثل، فكم تبدو عبودية الحب أو الوقوع في شراك الآخر.. – كما يقال في هذا المجال – نوعاً من الاختيار النبيل – على حد تعبيره – لا سبيل إلى تفتح الشخصية واستقلالها إلا من خلاله!.

تلك أشياء تضمنتها الرسائل المتبادلة أمداً طويلاً. كان توفيق يمهد بها لكل مقطع عاطفي مؤثر، تسفر عباراته الأخيرة عن الاعتراف اللانهائي، المطلق، بأن فتاة آسرة مثل ليلى، إما أن تكون في عبودية حبها أسمى صور التحرر، وإما أن لا يكون الحب على الإطلاق. ولم تكن، هي أقل إصراراً على مثل هذا الشرط الغرامي الأصيل، في نهاية كل رسالة أيضاً:

«لا شيء يربطني بالعالم، ويرصد عليّ الأنفاس، إلا طيفك الحبيب. وحده يعلمني أنني لا شيء، أمام قلبك النابض بكل ما هو نبيل على الأرض.. وحده يروضني على الإذعان، حتى لو كان ذُلاً، أليس بحسبي أنك تطويني بين جناحيك، وتمني عليّ بدفء الطمأنينة، في عالم باهت يغمره الصقيع..».

هذا ما ورد في آخر رسائلها، وكان توفيق قد ملأ كيانها بأشياء مماثلة، تجاوزت كل مناجاة مكتوبة، إلى عبارات الكلام الهامسة، ومن ثم بدأت مرحلة الألفاظ الناعمة ذات الإيقاع المثير. كان من الطبيعي أن تصبح ليلى أكثر تحفظاً في كلمات البوح «الجريئة» وأن تترك له سبيل التمادي اللفظي، ولاسيما في التلميح إلى بعض الشؤون «العملية» التي كانت تقابلها باحمرار الخدين وإسبال الجفون..

وكان واضحاً أن هذا التحفظ، لا يعني أكثر من الدلال المألوف، في كل علاقة من هذا النوع، غير أن توفيق، وجد فيه مع الأيام، شيئاً من تحدي الكبرياء. وخيل إليه ذات يوم، أن ما كتب في الرسائل – وهو في غاية الجرأة والاندفاع – لم يكن إلا ثمرات الانفعال العاطفي، المبالغ فيه لدى الأمزجة المراهقة، وما دام لم يأخذ طريقه إلى المخاطبة المباشرة، وينمو خلالها، فقد يكون محض نزوة آنية. والغالب أن ليلى لم تدرك ما كان يعتمل في خواطره بهذا الصدد، فكانت تحرص على أن يكون وجودها إلى جانبه، واهتمامها بمواعيده، والسماح له بصحبة هذا الجمال.. الخ، هي أقصى ما لديها من التعبير عن مشاعرها، حين يكون ثمة مجال لتبادل الأحاديث. بل إنها كانت تجد في هذه الاستجابة الصامتة، أبلغ جواب على ما يطلب إليها، من الرضا والاستسلام. وقد أوردت هذه الملاحظة في وضوح، حين سألها توفيق ذات أمسية «لو أن العوائق وضعت أمامنا ولم نستطع اللقاء والحديث؟.».. فأجابته بالملاحظة المذكورة، ثم أضافت «لا شيء يمكن أن يكون عائقاً إلا إذا كان منا..»، ولم تقدر خطورة هذا التصريح، ووقعه العنيف في نفس توفيق. إذا لم يكن العائق دخيلاً، فلابد من أن الأمر في منتهى الصعوبة. هناك حقيقة لا سبيل إلى إنكارها هي أن ليلى.. الرسائل الملتهبة، والنظرات الدافئة، ونبرات الصوت المشحونة بالتوسل والإغراء معاً، هي غير ليلى العاشقة، التي تتحدى المجتمع كله لكي تلاقيه، ولكنها ترفض الاسترسال في أي حديث، يتناول واقع الحب، في همومه وانفعالاته ومستقبله. وها هي ذي تعترف بأنه موقف ذاتي. فلا شيء يفرض عليها، ولكنها مع ذلك تجابه كل شيء بالحذر والتكتم وعدم الاكتراث.

هذا هو الموقف الجديد عند ليلى، ولأمر ما، كان توفيق يراه تحولاً خطيراً في عاطفتها تجاهه. قد يكون واهماً، ولكنها الحقيقة أن ليلى تقاوم في عنف، بل تتحدى كل كبريائه، لكي تؤكد له تمسكها النهائي، بكل ما ورثته من الكبرياء، إن عبارة «الوراثة» هذه، قد خطرت له تلقائياً وهو في حوار خيالي مع فتاته العاشقة، وهذا ما درج عليه: بعد كل لقاء كان يستعيد كل الأحاديث المتبادلة ويضيف إليها – من تصوراته بالطبع – ما كانت تريد أن تقول ولكنها لم تجرؤ بسبب هذه الوراثة. إذن كانت على خطأ أو شيء من المكر، حين قالت له بأن العوائق لا يمكن أن تكون من الخارج، بل هي منّا.

«لا» – هذا ما تردد في خواطره ذات يوم في عناد صارم – لا، ليس هناك ما يُفرض على هذا الحب إلا إذا خضعنا فيه لما يريد الآخرون.

وكم شعر توفيق بالألم والهوان، حين كشفت له هذه الخواطر المحمومة أن كل هؤلاء الآخرين قد ماتوا، منذ أمد بعيد. إنهم الماضي المندثر الذي ما يزال يجد أدواته «البشرية» في أُناس يعيشون اليوم. وعلى هذا النحو، بدت له ليلى، بعقليتها الجديدة كما تعبر عنها هذه التصرفات، أداة طيعة أيضاً لوراثة الماضي. إنها هي العائق الدخيل، لكن دون أن تشعر. وتساءل أكثر من مرة، لماذا لهذا الجمال المرهف أن يوحي إليه بكل صور البراءة والصفاء والعنفوان. وفي غمرة هذا القلق (النفسي) الضائع، وجد نفسه يبحث عن حقيقتها (المتوارثة)، وأصبح كل همه خلال جميع اللقاءات (الغرامية)، أن يعرف من هي ليلى في الأصل؟. وماذا أضيف إلى عنفوانها الحي، من أسباب التمنع المرائي خلال العصور.

لقد قيل إن الإنسان لا يفهم حقاً إلا ما يحب، وأن الحب بذاته هو أرقى ألوان المعرفة، وأكثر تغلغلاً في حقيقة الطبع البشري. ومن ذا ينكر مثلاً وعي الأم العميق، لكل ما يمس ابنها، منذ أن تضعه في هذا العالم، إلى أن تطويها عنه همدة الموت الجائر؟.. ويقال أيضاً إن «الحب – المعرفة» هو الذي ينسج الخيوط الحقيقية لكل هوى جامح، بين العشاق أيضاً، وقد لا يكون هذا الهوى إلا الصراع المتبادل بين الرجل والمرأة، من أجل أن يكتشف كل منهما طبيعة الآخر. على أنها حقيقته هو أيضاً، ومعنى الوجود البشري كله.لم يغب عن توفيق شيء من هذا، منذ أن بدأت ليلى تغزوه بدورها وتهيمن على كيانه، غير أنه يضطر الآن إلى إعادة النظر في هذا النطاق من وظيفة الحب. إننا لا نفهم إلا ما يقاومنا ويناصبنا العداء، أو يتذرع بشيء من الكبرياء، لكي يشعرنا دائماً بأن هناك مناطق محرمة مجهولة، تمتنع عن فكرنا، مهما نعرف عنه، كما لو أن مثل هذه المعرفة الكلية المطلقة، تقتضي الاستباحة المطلقة أيضاً، وعندئذٍ يضمحل الحب أو يموت. أو هكذا بدا الأمر لتوفيق، وهو يتبين جدار المقاومة الأصم، الذي أصبح يسور شخصية ليلى – على حد تصوراته – منذ أن لوحت له – تلقائياً أو عن قصد – بأن في أعماقها كائناً آخر، قد يكون إياها، أو دخيلاً على طبيعتها، ولكنه في الحالين يفرض كل الشروط الصارمة التي تجعل الحب الطليق ويقين المعرفة معاً، من المسائل المعلقة حتى النهاية..

ومع هذا لم يطرأ على هذه العاطفة المشتركة، ما ينبئ بأن هناك أزمة متوقعة، بل إن ليلى كانت – على نحو خاص – في حالة من الطمأنينة الداخلية، لا يساورها أي ارتياب، بأن الأمور تسير على ما ينبغي، وأن من «الحماقة» – كما رددت مراراً – أن يُعاد النظر في أي شيء، على الرغم من أنها كانت تحس أحياناً في بعض الغموض، أنه بدأ يستدرجها في كثير من البراعة والتهذيب، إلى الحديث عن نفسها، ومنحه المزيد من التفاصيل عن تاريخها العائلي، كما لو أنه قد افترض أن «الآخر» الذي يكمن في قراراتها، هو البيت الذي نشأت فيه.

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- 16 -

ولدت ليلى في عائلة سورية شأن معظم الأسر الدمشقية العريقة، أي ليس لها جد مشهور، أو ولد شاذ، عبقري أو مجنون، ولم تعرف منذ مئات السنين فضيحة تستحق الذكر، حتى ولا حقبة من الثراء العريض أو الفقر المدقع، لها ما قبل وما بعد، مع أن معظم الأسر التقليدية المحافظة في دمشق، قد عرفت مثل هذه الحقبة «الحاسمة» في بعض السنوات المتعاقبة. وكانت ليلى الأخت الثانية بين ثلاثة من الأشقاء الكبار، كانوا وما يزالون إلى الآن – أي فترة تعرفها بتوفيق – من رجال الأعمال الناجحين. وذلك يعني أنها أحيطت منذ الصغر برعاية منزلية نادرة، لا لأنها كانت بنتاً فحسب، بل لأنها الأخت الصغرى أيضاً. كانت شقيقتها تكبرها بسنوات، ولم يقدر لها أن تظفر بالزواج المناسب في حينه، إما بسبب غرورها – كما يُقال في العائلة – وإما لافتقارها إلى الجمال، وهو ما يحجم الجميع عن ذكره، بل كانوا على النقيض، يوحون إليها في كل مناسبة، بأنها تزداد أنوثة ورقة، كلما تقدمت بها السن. ولا ريب في أنها رفضت الكثير من الخاطبين، أو كان ينبغي أن ترفضهم – كما يوحون إليها أيضاً – لأن مصاهرة العائلة ليست بالأمر السهل. الثراء والوجاهة والسمعة الممتازة. والحقيقة أنها لم تُخطبْ على نحو جاد، إلا مرة واحدة، أجمعت فيها الأسرة أن الرجل غير مناسب، على الرغم من أنه كان ثرياً، وابن عائلة، أي إن الزواج – لو تم – كان مضموناً عدة سنوات، ولم يعلن عن أسباب الرفض، إلا ما نُسِبَ إلى موقف الفتاة وحدها، وقد منحت كل حريتها في إبداء الرأي وتقرير المصير، فتذرعت بطوله المفرط، وإدمانه على الخمر، وأنه على شيء من السماجة وثِقَلِ المعشر، يجرحان حساسيتها المرهفة. هذا ما قيل.

والواقع أن كلاً منهم – أي أفراد الأسرة – كان قد رشَّح في تصوراته الذاتية، خطيباً أكثر ملاءمة للبنت أو الأخت، وكان بعضهم ولاسيما الأم والأخ الأكبر، يعمل سراً في من أجل ذلك، ولم يرد اسم الخاطب الوافد في قائمة المرشحين. حتى الفتاة نفسها كانت تتلفت «بقلبها» إلى شخص آخر، ووجدت في هذا الرفض، نوعاً من الاستباحة الممتعة، لكل ما فيها من كبرياء الأنوثة، ولم يخطر لها أنها سوف تتجاوز الثلاثين – كما هي الآن – دون أن يمنحها «ابن عائلة» آخر، مثل هذه الفرصة التي تكسبها والأسرة معاً، مجالاً جديداً للزهو الاجتماعي. وكبرت ليلى في مثل هذه الغمرة المهيمنة من الانسياق مع الوجدان «العائلي» في نظرته الخاصة إلى مسألة الزواج. والكلمة الأولى في هذه المسألة هي أنها منذ أن تجاوزت المراهقة، أصبحت تنمو من أجل الزواج. ولما كانت زهرة البيت الجميلة، وعنفوان شبابه المتفتح، فقد كان الجميع – كل بمفرده طبعاً – يعدّون الخطط الذكية من أجل مستقبلها المشرق، مثلما فعلوا من أجل أختها الكبرى. هذا هو الإحساس العميق الدائم في قرارة ليلى، طوال فترة الانتظار. في

كل يوم كانت تراقب ملامح الوجوه، وتحاول أن تقرأ في العيون، ما يُنبئ بأن المشروع قد تمَّ، وأن الأم سوف تختلي بها ذات مساء، لكي تأخذ رأيها في صهر العائلة المقبل. ولم يغبْ عنها أنهم أخفقوا حتى الآن في قضية أختها الكبرى، مع أن هذه الأخت المسكينة – ولم تصبح مسكينة إلا في العامين الأخيرين – هي التي أصبحت تحمل أسباب الإخفاق، في الغالب، أمام تألق الجمال الرائع، تغزو به ليلى بيوت المدينة، يوماً بعد يوم.

ولم تكد تبلغ الثامنة عشرة، حتى بدأت الهمسات الجانبية لدى الكثير من نسوة المدينة تقتحم المنزل، وأشرقت هذه الهمسات بالعديد من المشروعات «السعيدة» المشرقة، حين عرف أنها – أي ليلى – قد نالت الشهادة الثانوية، في تفوق غير متوقع. إذ كان ينبغي أن تَصْرِفهَا مستلزمات الجمال والأناقة، حتى عن الدراسة، ولاسيما أن أختها، بقيت ترسب في فحوص الكفاءة سنوات متعاقبة. غير أن «ما لم يكن متوقعاً» أكثر من هذا، كان يتناول ناحية أخرى أشد خطورة، هي وضعها الجديد أمام الآخرين. أو مدى علاقتها «المصيرية» بالأسرة كلها. على حد مشاعرها الخاصة. طوال أعوام الطفولة والمراهقة كانت تجدُ الحماية العائلية أمراً لا بد منه. لم يكن يعنيها الحنان أو الاحترام أو إيحاء الثقة بالنفس، مقدار اهتمامها الملّح، بأن هناك من يحميها. حتى المشروعات التي كانوا يخططون لها – كما تتصور – من أجل مستقبلها، كانت في نظرها نوعاً من الحماية «النبيلة» تصدر عنهم، وهي تملك كل شرعيتها الضرورية، لا لأنها – أي ليلى – كانت عاجزة عن تدبير شؤونها فحسب، بل لأن العالم الخارجي كان مثقلاً بالأذى والفساد. أو هكذا يجب أن يكون في وعيها الناشئ – على الأقل – لكي يتراءى لها خطر الانزلاق عند كل مبادرة شخصية، للاتصال بالناس، تتجاوز بها وساطة «العائلة». واستمر هذا الوعي في هيمنته عليها، كل هذه السنوات «الحماية... خوفاً من...» ثم بدأت عناصر هذا الموقف تأخذ شكلاً أوضح، إنها الآن في أوج «اكتمالها» الاجتماعي – إذا صحَّت العبارة – إنها تمتلك كل الشروط التي تسوّغ لها التفكير بشيء من الانفصال المشروع: أن تكون طرفاً في إنشاء بيت آخر (عن طريق الزواج بالطبع) وأن تحسن التفكير فيما ينبغي أن تقول، أو تفعل، حين تصطدم بأناس العالم. مهما يكونوا عليه من المكر والذكاء المخادع.

ورويداً رويداً بدأت تحشر نفسها في زمرة هؤلاء «الحُماة» أو بتعبير آخر، أصبحت تفكر بأنه ليس من الصعب، أن تستغني عنهم في بعض شؤونها الخاصة، أو تقصي بعضهم نهائياً عن التدخل.

وهو ما تبلور بادئ الأمر في عزل الأم والأخت، تراءت لها الأولى ضحية مسكينة، لتكرار الأعراف والتقاليد. لم تكن أميّة الذهن فحسب، بل كان ظلام الجهالة يُطبق على عاداتها وانفعالاتها. وذوقها أيضاً. حتى عاطفة الأمومة لديها كانت تمارس في انسياق «أعمى» لما يُرضي الآخرين. العناية والخدمة واللهفة الغريزية، عند المرض أو الجوع. لا يذكر مثلاً أنها منحت أحد أولادها قبلة حنان صادقة، تحمل شيئاً من الحب الخالص وحده. ربما كانت تفعل قبل أن يعي الأطفال، أيام الرضاعة، مثلاً أو في بواكر الطفولة الأولى، والغالب أنها كانت تختلس مثل هذه القبل، فالعرف في الأسرة على الأقل،

أن مثل هذا التعبير العفوي عن الحب يفسد التربية، يحفز الولد على التطاول، ومن ثم تموت في نفسه مهابة الآباء، ولا يتورع عن الخروج على كل خلق قويم. واستعادت ليلى كل ما صنعت من أجلها هذه الأم المسكينة، فلم تجد ما هو جدير بأن يذكر، من الناحية المعنوية بالطبع. كانت مربية نموذجية في مجال النمو الجسدي والغذاء وعادات النظافة. ولا شيء أكثر. حتى الوصايا «السرية» الخاصة بتغيرات الجسد إبان المراهقة، لم تأتها من الأم. والغالب أنها كانت تجهلها هي أيضاً: وقد لا تعرف إلا القليل من حقائق الجنس والحمل والولادة، رغم أنها قد أنجبت كل هذا العدد. هذه صورتها – على الأقل – في يقين ليلى. فكيف تمنحها الحق في الحد الأدنى من الوصاية؟.. شيء آخر كان عامل الحسم في القرار الأخير، الذي دان الأم نهائياً، هو شخصيتها المرائية، إن ليلى هي التي توصلت إلى هذه العبارة في صدد بحثها الداخلي «الجريء» عن جدارة المرأة المكتهلة. إن المعايشة اليومية قد كشفت للفتاة الناشئة، أن كل ما تمتلك أمها من قدرة على إثارة الاهتمام، وفرض السيطرة أحياناً، إنما يرجع إلى غلوائها في ادعاء الشقاء والضعف، ونكران الذات أمام الآخرين. قد تكون من اللواتي يستمتعن بتعذيب النفس، وقد تكون بنيتها الجسدية «الهشة» ذات تأثير في إقناع الآخرين، بأنها تستحق الشفقة والعناية، ومن ثم يجب أن يشعرها الجميع، بأن كلمتها لا تُرد، وأن موقفها من كل مسألة – مهما تكن تافهة – هو الموقف الصحيح، الذي يحسن تبنيه. وهذا ما كان يحدث في الغالب، رغم أن مزاجها «الواهي» وصحتها السريعة العطب، كانا موضع الارتياب لدى الجميع. ولكن ماذا يمكن أن يقال في كيان نسائي، مائة بالمائة، يستعذب البكاء أحياناً في أبسط مناسبة، ويحرص على تذكيرهم – على الأقل – بأنها تعرضت للموت سبع مرات، في مناسبات الوضع العسيرة – لقد أجهضت مرتين – وأن هذا الكيان أيضاً – وقد أصبح قيد البلى – لم يتجاوز أي يوم، ما أورثته الأجيال السحيقة من إذعان الفكر والروح؟..

من أجل هذه الحقيقة بالذات، أسقطت الأم من الحساب، والغريب أن ليلى قد أزاحت أختها الكبرى أيضاً، في مثل هذا التسويغ. كانت تبدو لها نسخة أمينة عن أمها. حتى في الرياء المذكور، وهناك كان سبب وحيد آخر، هو أنها لم تتزوج حتى الآن. أو بتعبير أوضح، لم يُزوجوها في الوقت المناسب، لذلك فإن عليهم أن يعترفوا بجدارتها، وأن يمنحوها حقاً مماثلاً، في فرض الرأي، دون اعتراض والمطالبة بالتقدير والاحترام.

على هذا النحو كانت المرأتان شبه معطوبتين في وعي ليلى. ولم يكن يعنيها من هذا كله، إلا أنهما تقفان على الحياد، في صراعها الحقيقي مع البقية، الصراع الذي انطلقت شرارته الآن، وهي تجابه حالة الحماية القديمة، يفرضها أب محافظ شديد التمسك بالتقاليد، وأخوة يغدقون عليها الحب والرعاية، في الظاهر، غير أنها كانت – وما تزال – تشعر إزاءهم بالرهبة، لأنها تجهل ما يضمرون، وما دامت هناك رهبة، فلابد من أن تكون النوايا شريرة، ثمة جدار وهمي من الشك وسوء الظن، كان يعترض سبيلها كلما خطر لها أن تتصرف في شيء من الحرية، إذا أرادت أن تستجيب لنزعاتها العفوية في شؤون العاطفة، – على نحو خاص – ولأمر ما، كانت هذه الشؤون تقتصر على كل علاقة (متوقعة)

بينها وبين أي رجل. كان الجدار يعلو ويزداد صلابة وقدرة على الردع، كلما تقدمت بهم أيام الشباب، وخيل إليها أن الوقت قد حان، من أجل مغامرة صغيرة – على الأقل – تتخطى بها المشروعات (العائلية، التقليدية) في هذا المضمار. صحيح أنها أصبحت تجد نفسها الأجمل والأقوى مكانة، والأشد ذكاء وحيوية، ولكن من الوجهة النظرية، أو بالقياس إلى أمها وأختها وكل لداتها الأخريات. أما وهي تجابه هذه القوى البشرية الهائلة، التي يمثلها ذووها، أو الأربعة الذكور – على وجه التحديد – فقد كانت على يقين من أنها الأضعف والأقل تجربة وحصافة، والأدنى في كل شيء، حتى جمالها الآسر. – رغم كل ما يمنحها من الغرور والكبرياء – كان يستمد جدارته (في تقديرها) من هذا السياج المحكم، الذي تطوق به منذ البداية. فما شأن الجمال وما سحره، إن لم يكن صعباً عزيز المنال؟ في القديم كان المحب يجد السيوف المشرعة، والأسنة المشحونة بالغضب، إذا حاول الدنو من (فتاته). وكان يكتفي بأن يتلفت بقلبه أو يرنو بنظرة دامعة، ومن ثم يتأجج حبه ويصبح هوى جامحاً، يضرب به المثل، أو يتحول هو إلى شاعر فذ، يمنح الآخرين إيقاعاً مبدعاً كخفقات القلب البشري، كل ذلك لأن الجمال الذي يظلله الموت هو الذي يجسد عنفوان الحب، في حين لا يحمل الجمال المستباح، إلا كل عاطفة مبتذلة، تعبث بكل سحر، وتلوث كل فتنة... في مثل هذا الإيحاء الذاتي، بدأت ليلى تتعايش والسطوة العائلية «المكتومة» – على حد شعورها الداخلي – دون أن تكون هناك حادثة أو مناسبة، تؤكد لها أنها على صواب في الخوف أو المهابة.

حتى خيالها كان حذراً في هذا المجال. من ذلك مثلاً أنها كانت تحلم بشاب وسيم بالطبع – يحبها حتى الجنون، دون أن تعلم، ثم ينتحر من أجلها، بعد ان يترك رسالة بهذا الشأن. أية فضيحة هائلة؟.. من ذا يصدق أنها لم تكن تعلم، وأنها لم تستدرجه أو تشجعه – على الأقل – أو تشكو إليه ما تعاني في المنزل، من ألوان التضييق والحرمان. وها هنا كل العار. فليس من المعقول أن يكون «العاشق» مهذباً وهو على عتبة الفناء، حين يورد عبارة تهجمه على التقاليد، التي تحميها هذه العائلة بالذات، أو كلمة احتجاج مهينة على أنهم – وهم وصاة الأسرة الشرعيون – قد خنقوا أنبل عواطف الشباب، لدى ابنتهم المسكينة.. إذن كانوا يعرفون العلاقة «الآثمة» ويراقبون. وهو أقسى اتهام جارح يوجه إلى الأسرة، ولا يعلم إلا الله كم سوف يلوك الرأي العام هذا الخزي العائلي، وقد أرجعته ليلى في خواطرها الواهمة إلى نقيصة واحدة، كانت تعبث بكل وجدانها «الدامي»، هي أنهم لم يحسنوا تربيتها، بل ربما كان في أعراف الأسرة – وقد بقيت طي الكتمان حتى هذه الفضيحة – أن تنزلق كل امرأة جميلة، بسبب تكوينها الأخلاقي الواهي. ولا بد من أن ينسحب هذا الحكم على عدد لا يحصى من أوائل الجدات السوالف، أتاحت لهن التربية الرديئة، أن ينقلن هذه الوراثة «السلالية» من جيل إلى جيل.

الحادثة – م 8

مكتبة علي بن صالح الرقمية

في هذه النقطة أوغلت أفكار ليلى في تمثل «التبعية» المطلقة التي تعاني منها الآن. وليس غريباً أن تتشعب بها الخواطر، إلى كل المظاهر الفرعية، من حكمة الإذعان الأنثوي، دون أن تستأثر بها طويلاً قصة الحب. فلم يكن توفيق قد اقتحم حياتها العاطفية بعد.

وكانت كل مخاوفها في هذه الناحية تتجمع حول الزلل المتوقع، حين تتصل بأي رجل «غريب» لم ترشحه العائلة، ثم تسربت هذه المخاوف إلى أبسط تصرفاتها اليومية. فإذا خطر لها أن تشتري حذاء، كانت تقف في المخزن في حيرة واجفة: إلى أي حد سوف يُعجبون بطراز الحذاء؟ وهل يتفق الكعب العالي مثلاً وذوق الأب أو الأخ الأصغر؟ وما هو الثمن الذي يمكن أن يبعث الارتياح لدى الأخ الأكبر؟ وقد كان الأكثر اهتماماً بالتوفير؟ وغير ذلك؟.

ولم يتوقف الأمر عند حدود «الأربعة الكبار» فقد أصبحت مع الأيام تعنى بالرضا العام كله، كما تمثله لداتها وكل معارفها في المدينة. وكم مرة أحجمت عن إبداء الرأي في فيلم سينمائي، مهما يكن رائعاً أو سخيفاً – إلى أن «تتشم رأي الآخرين» وإذا كانت الأمور المتعلقة بالذوق الشخصي على هذا النحو من التبعية، فكيف تكون الأمور الأخرى؟.

ولم تتبدل هذه السجية لديها إلا حين شرعت في حب توفيق.

بلى. كانت البداية شروعاً. نية غافية دفينة، تتلمس طريقها إلى الفعل، مثلما يُقال عن الشروع في جرم. الأمر الذي نعرف سلفاً أن الجميع يقاومونه، لأنه ما لا ينبغي أن يكون. ومع أن الإطار الزمني لا يعني شيئاً أساسياً في هذا السياق الداخلي الصامت، ولا شأن فيه للوقائع أيضاً، فليس ما يمنع من الإشارة إلى أن الخطوة الأولى، كانت في نهاية الشهر السادس من عامها الأول في دراستها الجامعية، بل في مساء اليوم الثالث من آذار، كانت وتوفيق في شلّة من زملاء الصف والزميلات، اعتادوا اللقاء العفوي في الحديقة الجامعية، وتبادل الأحاديث المرحة. وكانوا يعودون معاً في الغالب، بعد كل تجمّع مماثل. ولما كان الرصيف الخارجي ضيقاً بعض الشيء، فقد كانوا يتوزعون تلقائياً مثنى وثلاث في طريق العودة، وحدث في مثل هذا المساء أن انفردا معاً في حديث عادي، لا تذكر منه الآن إلا تبادل المشاعر العابرة حول وهج الغروب الأرجواني، وانسيابه على مياه بردى، خلال نضارة السرو الباكي والزيزفون. كان الجميع يقفون عند المنعطف الكبير، قريباً من حديقة المتحف الوطني، وكثيراً ما كانوا يتبادلون الكتب والأمالي المدرسية. وفاجأها توفيق بورقة مطوية ذات لون لازوردي، يدسها بين كتبها قائلاً: «هذه من أجلك..» وتشابكت نظراتهما في بريق غامض، أقصر هُنيهة ممكنة. ثم حيَّاها مودعاً، وانسحب في الطريق الآخر، دون أن يلتفت إلى أحد. أما هي فقد أحست دفقة من الدماء الحارة تُلْهِبُ وجنتيها.

وأحكمت إخفاء الورقة بين صفحات الكتاب، ولحقت بالآخرين في فرح غامر...

في هذه الآونة، الدقائق التي تستغرقها مسافة الطريق بين نهاية الرصيف وباب المنزل، تَمَوَّجَ في أعماق ليلى، خيط واهٍ من ضياء سحيق، ما لبث أن تحول إلى إشراقه متألقة، تملأُ الجوانح بشتى انفعالات الغبطة والحنين.. بما هو أعمق من الثقة بالنفس، وأكبر من كل إيمان، وأشد جرأة من التحدي الصارخ. لم تكن عرفت بعد مضمون الرسالة – وقد قدّرت بالغريزة أنها رسالة حب ملتهبة – بل كان بودّها أن تؤجل قراءتها إلى ساعة متأخرة من الليل، ولم يمكث في ذهنها شخص توفيق نفسه، إلا لمحة انسحابه المفاجئ، وتحية الوداع، غير أنها أحست بملء كيانها أن قوة سحرية غريبة قد انتشلتها دفعة واحدة، من كل مخاوف «التبعية» الآنفة الذكر، بل أفردتها، دون جميع الزميلات، بل كل لداتها من بنات الحيّ، في المكانة العلوية التي ينبغي أن يستأثر بها مثل هذا الجمال.

وخطر لها، أول وهلة، أن باستطاعتها منذ الآن، أن تصبح ذات هيمنة مطلقة على مصائر الآخرين. ولم تكن تتمثل من هؤلاء، إلا أفراد الأسرة بادئ الأمر. والغريب أنها بدلاً من أن ترد على ما توهمته فيهم من سطوة الرقابة، والتحكم بشيء من الثأر، تخيلت أنهم جميعاً يمكن أن يصبحوا – بفضلها طبعاً – أُناساً متميزين يملكون الشهرة والسعادة والعظمة.. أو هو عرفان بالجميل لأنهم لم يعرفوا حتى الآن – ولن يعرفوا – أنها تفعل بملء حريتها ما لا يريدون، أم أنها الرغبة الدفينة في إبعادهم عن مصيرها إلى الأبد؟.

لم تكن في الرسالة إلا هذه الكلمات: «ليلى العزيزة.. هل باستطاعة هذا الشوق الملتهب، أن يجد في قلبك النبيل واحته الندية – توفيق.».

حين قرأتها اغرورقت عيناها بالدموع. ومرت ساعات من الليل وهي تعيد تلاوتها، ثم تطويها مثلما كانت في يده، وتغزوها من جديد غمرة الحنان الدامعة.. ثم تستأنف خواطر الأحلام.. وعند كل رسالة مقتضبة مماثلة، وجواب تعنى بصياغته في الأسلوب الشعري ذاته، كانت ليلى توغل في الابتعاد عن عالمها المنزلي «الصغير». وتصنع من هذا الحوار «الصبياني» المسطر على وريقات ملونة، عالمها الوجداني المستقل. صحيح أن الكلمات المتبادلة لم تكن إلا إشارات، مثقلة بالإيماء المضطرب المتلعثم، ولكن الحادثة أي تبادل الرسائل في غفلة عن كل رقابة، كانت في نظر الفتاة، أقصى حدود الشجاعة التي تمليها هذه الحقيقة: إنها استطاعت أخيراً أن تتصرف دون أن تستنجد برأي إنسان...

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- 17 -

ها هنا وجه الغرابة. كانت الأيام تمر وتتوالى الشهور، والرسائل الناعمة الموجزة تتكدس لديهما معاً، دون أن تُقال كلمة واحدة عن واقع الحب. أهو حب حقيقي؟ أم مشروع مغامرة عاطفية يحرض عليها نزق الشباب، ونزواته الغضة! أم أن الكلمة التي ينبغي أن تُقال، لم يحنْ وقتها بعد؟ إما لأنها سوف تتناول الاعتراف المتبادل بالضرورة، والظاهر أن الاثنين كانا يتهيبان الأمر، كما لو أن فيه شيئاً من التنازل – هذا شعور ليلى على الأقل – وإما لأن هناك ما هو أخطر من الاعتراف: مواجهة المصير المحتم. لم يكن من الصعب على ليلى أن تُقنعَ نفسها، بأن كل شيء ملك يمينها في هذا المضمار. كان توفيق قد أغدق عليها من دفء العبارات «الهائمة» وبريق الوله في النظرات «الملتهبة» ما غرسَ في يقينها، أنها وحدها صاحبة الكلمة الأخيرة، ومنذ أن اكتشفت تأثير صوتها – كما رأينا – في كيان توفيق، وموهبتها الإيقاعية في التلاعب بمشاعره.. إلى ما هنالك أصبحت تجد نفسها، في حل من كل وسائل التعبير الأخرى، باستثناء الرسائل. وقد يكون في هذا ما يفسر شيئاً من «أزمة التحفظ» لديها، كما كان يعانيها الشاب المرهف، والحقيقة أن وراء هذا التحفظ، عالماً آخر من الجموح العاطفي، لا علاقة له البتة بحب توفيق، ومشاعره المضطرمة، بل بتوفيق ذاته...

في هذا العالم، كانت ليلى تعيش أحلامها الأنثوية المتجددة على نحو شبه أسطوري، يمتزج فيها المستحيل الذي تحتمه الأقدار العجيبة، بكل ما هو ممكن، تأتي به المصادفة العابثة. كانت تحلم مثلاً أن هناك بلاداً نائية ينتشر في أرجائها إنسان خرافي، لا يستبعد أن يكون من بقايا حياة الكهوف والغابات، تتفرد نساؤه بطباع المحاربين الأشداء، وتستبيح ما تشاء من الرجال، قبل أن تصمم نهائياً على مضاجعة الرجل، الذي اختارته أباً لوليدها الأول. وكانت تُقْحم في هذا التصميم كل ألوان المشيئة الخارقة: إنها تستطيع التحكم بوقت الحمل، وجنس الجنين ونوع العلاقة «الشرعية» التي تريد. ولم تكن بدعة «الرباط الزوجي» المألوف، قد ظهرت بعد في أعراف البشر، على حد تصورها لهذه البيئة البدائية السحيقة – ومن ثم فإن ليلى على الأرجح، هي التي تضع أول التشريعات في هذا الصدد، لا لأنها الأجمل فحسب، بل لأن خصائص الهيمنة والطغيان، والتحكم بالمصائر في طبع الرجل، كانت ما تزال من مميزات النساء وحدهن. وكان تقديرها أن شريعة الزواج سوف تحتم على المرأة، أن تتخلص من الزوج بطريقة ما. منذ أن تتبين شيئاً من ملامحه في وجه الطفل، وتتأكد من أنها قد ولدت وريثاً أفضل، من ناحية الوسامة والبنية القوية. ولا ريب في أن «طريقة التخلص» هذه، تتجاوز الطلاق أو الطرد أو عدم الوفاء العلني.. إلى القتل، إذا اقتضى الأمر... ولاسيما حين يساورها الشك في مسألة الارتباط العاطفي، أن تجد نفسها مثلاً على وشك الوقوع في مثل هذه الترهات. ولما كانت قد «وقعت» بالفعل – كما تدل عليه

مغامرتها الصغيرة مع توفيق – ولم يكن لها من ذلك إلا الترهات «العاطفية» الحالمة، حتى الآن، فقد كانت مخيلتها الأسطورية تنحدر بها في الغالب، إلى شتى مواقف التمرد والرفض. إذا كان هذا هو رجل الأقدار، فلتكن لها – على الأقل – حرية التنصل من مسئولية الاختيار. هو الذي بدأ فاستجابت، دون أن تتأكد: أكان بوسعها أن تستجيب لو أنه رجل آخر؟ ولكنها على يقين من أن أي رجل آخر، لن يكون إلا «مُر
شّ
ح
»
ا
ل
ع
ا
ئ
ل
ة
،
ح
تى لو بدأ أيضاً بداية توفيق، أي جاءها خلسة، أو حاول التسلل إلى قلبها بنفس التحدي «السري» الذي يُدغدغ كبريائها الشخصية، أمام استبداد الرقابة الجماعية الجارحة. مثل هذا الرجل الآخر يمكن أن يرضوا عنه، لكل الأسباب المحتملة، الشباب والوسامة والوجاهة والثراء... وقد يؤنبونها أياماً على تفردها بالقبول أولاً، غير أنهم سوف يتبنونه بأنفسهم دون ريب، مادام كل ما يعنيهم أن يأخذ الأمر صيغته الاجتماعية المناسبة. عند هذا المنحنى من تصوراتها الذاتية وجدت نفسها ملزمة بتوفيق وحده، من ناحية، ومضطرة إلى التنصل من اختياره بملء حريتها، في الوقت نفسه. أهو التناقض المألوف لدى كل مثيلاتها، من عذارى البيوت التقليدية في دمشق؟ إن الواحدة منهن – وهي في مثل هذا الجمال بالطبع – هي اللؤلؤة الثمينة في العائلة، يسترضيها الجميع ويمنحونها في الظاهر حرية التصرف، غير أنهم لا يتنازلون عن مطالبتها المستمرة، بأن تكون عند «حُسن الظن» – كما يقولون – أي أن لا تكف عن الشعور بالذنب، حين تمارس هذه الحرية بعيداً عنهم، حتى لو أنها لم تفعل إلا ما يريدون.

قد لا يكون هذا التناقض جلياً في شخصية «ليلى» الراهنة، ولكنه كان الحقيقة التي بدأت تعيها، منذ أن رأت نفسها في موقف، يُحتّم عليها أن تتحدى وتقاوم، تعبيراً عن التفرد بمصير لم يقرره الآخرون.

ولأمر ما أوحت إلى نفسها أن هذا التفرد، قد يكون نوعاً من إمعانها في إذلال النفس، أو اطمئنانها الممتع إلى الشعور بالاندحار... أكثر المظاهر تعقيداً، في الدلالة على التنصل من المسئولية، واستقلال الشخصية، وكونها المحور الخطير الذي تدور حوله الأشياء جميعاً، ويستأثر بكل الاهتمام في آن واحد.

غير أن كل هذه الأمور كانت تنحسر يوماً بعد يوم عن حقيقة صافية – مشرقة – كما يقولون – هي حُبّ توفيق، مثلما تنحسر الغيوم والرياح والضباب، عن قطرات المطر المنهمر. كانت مشاعرها الدفينة تنتقل من حس باطني غامر بأنها «لا شيء» أمام المشيئة العائلية، إلى حس مماثل بأنها غير مسئولة عن هذه العلاقة – الحب – إلى يقين ساطع بأنها «شيء غرامي» – إذا صحَّ التعبير – كان توفيق هو الذي عزَّزَ لديها هذا اليقين مع الأيام. صحيح أنه كان شديد الاندفاع – خلال أحاديثه ورسائله، في التأكيد على أنها كل «عنفوان الحياة» ومعنى الوجود، وسر الجمال على الأرض، وأن قلبها الحار، هو وحده، ينبوع الحب الصادق.. الخ. غير أنه لم يستطيع أن يُروَّض كبرياءها الغضة، على التحرر من هذه «الشيئية» التي كانت تبدو لها استمراراً لمعاناة «الاندحار» القديم. ومع أنه استمرار محبب لا يخلو من الإغراء، فقد كان يبقى على جانب من الصيغة الجارحة، التي كانت تربطها بالآخرين. بما فيهم توفيق، أكثر تعبيراً عن شيئيتها في علاقتها مع ذويها، وأبعث على الشعور ذاته: أنها ما تزال إياهم على نحو ما. ربما كانت هذه الصيغة، أكثر تعبيراً عن شيئيتها، في علاقتها مع ذويها، وأبعث على الشعور بالهوان، ولكن محاذيرها المماثلة ما تزال، ولاسيما أن ليلى لم تجرؤ بعد على الاعتراف أمام إنسان، حتى توفيق نفسه، بأنها هي التي اختارت وأحبت، وأنها على استعداد للمُضيّ في التجربة، حتى أقصى حدود الفضيحة، إذا اقتضى الأمر. ولعلّ في هذا الأمر ما يُفسّر شيئاً من جموح أحلامها الغريبة، على النحو الذي ذكرناه. يبدو أن مخيلتها النقية كانت تُرمم فجوة التقهقر، في واقعها العاطفي الجريح، بكل مواقف الفروسية، التي تجعل «الجميع» لديها «أشياء تُسْتخدَم» وتلبث هي وحدها قلعة الإرادة المنيعة.

* * *

- 18 -

يبدو - أول وهلة - أن مثل هذا الإسهاب العفوي المشتت في التعرض لمشاعر الفتاة، لا يعني شيئاً أساسياً في وقائع الرواية. ولاسيما أنه ليس من الوقائع الأكيدة أولاً، وأن سرده على هذا النحو الاحتمالي ثانياً، يلتبس بين الوصف الحيادي، والاستنتاج الدخيل، والتحليل المجرد، وهي كلها - على ما هو مألوف في الفن القصصي - تفتقر إلى الكثير، من اللمسات الحية المحسوسة، التي هي وحدها تسعف الآخرين، في تمثل الملامح الإنسانية الصادقة، لشخصية نسائية من هذا القبيل. ولكن ليلى ذاتها كانت تعيش يومياً هذا الإسهاب، والتشتت، والتباس الحقيقة بالحلم. وقد لا يكون هناك ما يشفع بالإصرار على رصد «واقعها النفسي» المضطرب - إذا صحت العبارة - لولا أن جميع تصرفاتها الملموسة في هذه الحقبة، كانت على جانب حاسم من التكرار المسؤوم، ورتابة السلوك الخارجي المحدود، أي لم يكن فيها جميعاً ما يحمل الحد الأدنى، من جدارة «الشيء المتحرك» الذي يبعث الفضول، ويحرك بدوره حيوية الكلمات. صحيح أن تكوينها الجسدي كان ينمو على نحو يلفت الانتباه، وأن جمالها كان يتفتح ويزدهر يوماً بعد يوم، حتى نبرات صوتها، كانت توغل في إيقاعها الأنثوي، الذي يتحول فيه صداح الطفولة، برنينه الأغن، إلى رجع دافئ مثير من غمغمات الأنوثة اليانعة، ولكن كل هذه التغيرات، كانت تزيدها إصرارا - في الواقع - على استكمال الصيغة النهائية الساكنة للشخصية، التي ينبغي أن تكون عليها دائماً بين الآخرين.. ومع أن بوادر التجربة العاطفية كانت تجمح بها أحياناً، إلى بعض مظاهر السلوك الجديدة كالتمادي في تلامس الأيدي، وسرعة الانفعال في لهفتها إلى المواعيد الغرامية، والحرص على الانزواء مع الرسائل في وقت مبكر من الليل.. الخ، مع هذا كله، فقد كانت مطمئنة، إلى ثبات كيانها «الخارجي» لأن هذه الأمور كانت من الأسرار الخفية، بينها وبين توفيق وحده، بل كثيراً ما خطر لها أن في كتمان توفيق - وهو أهل لذلك حتى الآن - مقياساً جوهرياً، لصدق حبهما الوليد. والظاهر أنه لم يخيب ظنها في هذا المجال، بل كان أشد حرصاً، على أن تبقى هي إياها في كل شيء، حتى في تفاصيل علاقتها به، وجزئيات سلوكها اليومي. ولعل شعورها العميق بما في هذا الحرص، من إيثار وإخلاص ونبل - وهي من مفرداتها في وصف توفيق - قد عمل مع الزمن على إقناعها الجازم أخيراً، بأن هذا الحب الذي اختارته وصنعته بملء حريتها، متحدية كل ما فرضَ عليها من وثاق الرقابة المحكمة، التي طوقها به الآخرون، قد يكون أيضاً تعبيراً عن إذعانها المطلق، لهيمنة هذا الشاب، مثلما كانت تتمثل الحب ذاته في آن واحد، نقطة البداية في استقلالها الشخصي. في غمرة ذلك الشعور كانت تتصور أنه - الحب أو توفيق - قد انقضَّ عليها دون إنذار سابق، وليس في كلمة «الانقضاض» أية مبالغة في مصير

عذراء «بيتية» من هذا الطراز، أصبح من همومها اليومية، أن تشعر الجميع بأنها ليست من اللواتي تعبث بهن الظروف الطارئة، أو تبدلهن الأحداث والأشخاص.

والخلاصة أنها كانت نهبة لهذا التناقض، على الرغم من أن استمتاعها بأنها «اقتنصت» كان هو الغالب. والدليل أن حس الالتزام بفتاها، كان يحفر مجراه العميق في كيانها العاطفي، دون أن تتساءل أو تقاوم. لقد تدرج هذا الحس، من ضرورة النظر في عينيه، وتأمل شفتيه أثناء الكلام. إلى تتبع أخباره، والاهتمام بآرائه في مختلف الشؤون. ثم أصبحت ترى أنه من الواجب أن تشعره بأنها الوحيدة التي تهتم به، دون جميع الآخرين، كما لو أنها كانت تحاول بالغريزة، أن تجابه «استيلائه» عليها، في مثل هذا الانفعال الخاطف، بانفعال أشد انقضاضاً، يؤكد له بأنه لن يكون من دونها، إلا شخصاً «نكرة» ليس في نطاق العلاقات «النسائية» فحسب، بل في كل علاقاته الأخرى بالمجتمع والناس. وقد أتيحت لها الشجاعة النادرة على القيام بهذا الواجب. كانت توعز إليه في كل مناسبة، أن يُحسنَ تقدير الموقف، إنه لم يكن باستطاعة كل فتيات الأرض، أن يسبقنها إلى اكتشاف خصائصه «الرجولية» الفذة. والواضح أنه مناخ معركة دفينة، ربما غفل عنه توفيق كلياً، أو كان يرفض الاعتراف بينه وبين نفسه، بما ينطوي عليه الحب في نشأته الأولى، من عدم اليقين أو من هذا الارتباك العذب، الذي يمتزج فيه الخوف بالطمأنينة، على نحو عجيب: الخوف من المنافس أو الغريم، والاطمئنان إلى أن هناك قدراً لا مفر منه، يحتم انتصار الحب. كانت تقول في نفسها «إنه نصيبي في الحياة – كما تردد العامة – وقد خلقت من أجله دون ريب». ولكن هذه المقدمة، كانت تفضي بها إلى نتيجة غريبة: ذلك يعني أنه لن يكون له أي نصيب آخر. أليس من الظلم والجحود أن أتخلى عنه؟.».

لا حاجة إلى التذكير بأن الكلمات المتبادلة الصريحة، لم تكن سبيلاً لهذا الحوار الغائم. كان المحبّان يعيشان في مرحلة العيون. لقد أصبح حديث النظرات المولَّهة الهائمة مبتذلاً، لكثرة ما ورد في الأشعار والأغاني، ولكنه يلبث الكلمة الأولى في كلُّ حب حقيقي راسخ، أو هوى كاذب. فمن ينكر أن النظرات المتشابكة في حنين، تتألق أحياناً، بما تعجز عنه كل أحاديث البوح الجريئة؟.. ومن يتجاهل أن بريق الأهداب المتلهفة، يتعانق في تعاطف دامع، يعزل المحبين عن العالم، ويملأ الجوانح اليقظة بكل ما يعمر الوجود معاً، من ليالي الحب الماجنة، وارتعاشة القبلات المختلسة، ومباهج الاستجابة والرضا، ودموع الفراق والهجران؟..

غير أن هذا «الوجود معاً» وقد أصبح، وحده، كل ما في أعماق ليلى من الكيان العاطفي الحار، ما لبث أن انحسر عن إيمان مطلق، بأنهما معاً ظاهرة إنسانية واحدة. ومثلما تراءى لها أنها لا توجد إلا به، كانت على يقين من أنه بكل حقيقته العاطفية والجسدية والاجتماعية – كما يقال عادة – ليس إلا إياها. إن فكرة «الآخر» قد أمحت بينهما إلى الأبد، وألغيت بينهما كل حروف الصلة أو العطف أو التشابه، وكل ما يشير إلى أن الخط الفاصل في عبارة «ليلى – توفيق» – وقد ألفا مثل هذه التسمية – يجب أن يوحي بأنهما شخصان في سبيل الاندماج، والصواب أنه ليس هناك إلا حقيقة اسمية واحدة،

مثلما هي حقيقة الواقع الحيّ، إذا سقط بعض عناصرها – سواء كان لفظاً أو شيئاً من الوجود المتحقق – فقد أصبحت كلها خالية من كل معنى إنساني جدير.

غير أن إلغاء «وساطة الاتصال» هذه، لم يكن سهلاً في ممارسة «العلاقة الحقيقية» بين الاثنين. إن كلاً منهما قد وضع الآخر في مأزق، حين «وُجدَ به» فليلى وجدت نفسها ملزمة بأن تروضه على الكثير من الأمور المستحيلة، منها ما يتعلق بمزاجه الوراثي، وطبيعته الجسدية، وأخطرها أن يبدل نظرته إلى حبهما ذاته. كانت خطة التبديل واضحة في ذهنها كل الوضوح، أو هكذا أصبحت في الفترة الأخيرة: أن تلغي جميع المغازلات الصبيانية الناعمة، سواء كانت بالهمسات، أو بنظرات العيون، وأن يتجاوز الحب مرحلة الاستمتاع الواجد بالأشياء الصغيرة، كالنزهات العاطفية والأزهار والكتب والرسائل وغيرها – هذا على سبيل المثال لا أكثر – في حين كان توفيق يجد في هذه الأشياء كل معاني الحب. قد يكون هذا هو الفرق بين المرأة والرجل في فهم الحب، منذ أقدم العصور. فالمرأة تخضع أبداً لسنة الحياة في تطورها من مرحلة إلى أخرى. إنها تؤمن بالحب، على أنه مرحلة جميلة للاستقرار في حياة المجتمع وممارسة الأمومة... الخ. وهل ثمة مكان لكلمات الغزل الدافئة، وباقات الزهر في معركة إثبات الوجود في الهيئة الاجتماعية، أو أزمات الحمل، وآلام الولادة؟. أما الرجل فإنه الأحمق الذي يصر على أن الحياة يمكن أن تقف عند الحد، الذي ترسمه رغباته الصارخة. كم من رجل ناهز الستين، وما يزال ضائعاً في أحلام المراهقة؟..

هذا مثال مألوف لأعراض التباين الداخلي الذي بدأ ينجم في حقيقة «ليلى – توفيق». لقد أدهشها أنه – أي توفيق – لم يكن قادراً على الانصياع لسنة التطور السالفة الذكر، وأدهشه – هو أيضاً في الوقت نفسه – أنها عجزت عن الاستمرار في عنفوان الحب، مثلما كانت تصنعه ترهات التعاطف الأول، حتى لقد قال لها – أكثر من مرة – في سياق الغزل المقبول بالطبع – أنها قد تعبت بسرعة دون ريب، وبدأت تُؤْثِرْ التراجع. ولكنه لم يتوجه إليها باللوم والدينونة، بل نوّه في هذا الصدد بأنها ضحية البيئة، واتهمها بشيء من التبعية القديمة. وها هنا يكمن جانب القسر الجائر في طبيعة توفيق. إذاً لم يكن ثمة بد من التبعية، في مصير المرأة، فلماذا لا يكون هو، الحبيب، أو خطيب المستقبل، أو الزوج، هو المتبوع؟..

عند هذا التساؤل أحسَّ العاشق «الحائر» أنه مرغم على مقاومة الفتاة، في نزوعها إلى الدمج المصيري بين الكائنين، تماماً مثلما كان يفعل القدامى حين يحاولون أن يطردوا الروح الشرير، من نفس مأخوذ. كانوا يستنجدون بالملائكة لتحل محل الشيطان.

ومن البداهة أن توفيق كان هو وحده الملاك الرحيم، كل هذا في إطار مسلمة أولى، لا يرقى إليها الشك، هي أن ليلى «الحقيقية» ما تزال بكل براءتها وعنفوانها، مختبئة تحت ركام الشخصية المتوارثة الدخيلة، التي ترفض لهما صيغة «الكيان الواحد».

وعلى الرغم من يقين توفيق بأن هذه الشخصية «الدخيلة» هي وحدها ليلى بجوهرها الأصيل، ودفء حياتها اليومية، فقد أصرّ – في دخيلة نفسه – على أنها مظهر زائف، ينبغي أن يعرَّى، قبل أن تمتد إلى تاريخ الحب أكاذيب الآخرين. إن كل إيمانه بهذا الحب، يرى إلى أن هؤلاء الآخرين قد طردوا إلى الأبد من عالمه العاطفي، وهو بالطبع عالم ليلى ذاته. ولكن من هم هؤلاء الآخرون؟ إنهم جميع الذين يمكن أن يكونوا على صلة بالفتاة بعد الآن، من أبيها وأمها، إلى كل الرجال الذين يرصدون خطوات النساء «المحصنات» في شارع الصالحية، حتى هؤلاء النسوة أيضاً كنَّ في عِداد المجتمع «الهجين» الملوث، الذي يحوم حولهما، بغية التدخل الشرير. لم يستثنِ توفيق من أشخاص هذا المجتمع، إلا ذويه وبعض أصدقائه الخلص. وهذا هو الأمر الغريب، الشيء الذي لا يُفهم إطلاقاً في مزاج الشاب المرهف، إلا إذا أُتيحَ لنا أن نتتبع شيئاً من محاولاته الجريئة، في تشجيع ليلى على الاعتداد بنفسها، وتحدي الجميع في مسألة الخروج بمفردها من المنزل، وارتياد السوق دون مندوب عن الأسرة، وزيارة الصديقات بمفردها حين تريد، وأخيراً حرصها على النزهة المسائية وحيدة، دون أن تتذرع بالأسباب الكاذبة المألوفة. ربما كان يعمد إلى مثل هذا السلوك – أي استثناء ذويه ومعارفه من خطر العالم على الفتاة – بدافع غريزي مكتوم، يرجع إلى اعتقاده بأن هؤلاء يؤلفون – على نحو أو آخر – جهاز الرقابة لديه، وأنها – مهما تعرف من الأمكنة والمسالك، أو تتوجه إليه من الطرقات – فإن واحداً منهم أو من معارفهم، على الأقل، سوف يتتبع خطاها، ولن يتأخر عن إشعارها على الفور بأن ساحة الحرية التي تتحرك في أرجائها، تلبث – على اتساعها – مطوقة بسياج خفي متناهي الأبعاد، من وجود توفيق. هذا ما كان يدور في مخيلته العابثة على وجه التحديد. دون أن يتبين مسوغاً معقولاً يوفق بين ما هو مشروع، من استقلالها المطلق عن وصاية أولئك الآخرين، وبين ما هو أكثر شرعية أيضاً، من أمر الحماية الخيالية، التي ينبغي أن يمارسها من أجلهما معاً، هؤلاء الآخرون: أسرته وأصدقاؤه.

ومع أنه لم يكن واضحاً مع خواطره في هذا المجال، أو كان أقل جرأة من أن يجد في هذا الشرط العفوي، ما يناقض ثقته الوطيدة بقدرتها على أن تمارس حريتها هذه، في حدود الحب الوفيَّ، وقد تعاهدا عليه ضمناً بكل إيمان وصمت، ومع أنه لم ينس أيضاً في أي حين، أن باستطاعة هذا الجمال أن يوقع من النظرة الأولى، بأي رجل في الطريق، وإن كان هذا مستحيلاً، مع ذلك كله فقد كان على توفيق أن يؤكد لنفسه، كل صباح، وهو يفتح عينيه لضوء النهار، وقبل أن يُغمض جفنيه على رقاد الليل، أن جميع الآخرين – سواء كانوا أولئك أم هؤلاء – يمكن أن يقتحموا هذا العالم النظيف من طمأنينة الحب المزدهر، ليس عن طريقه، وهو أمنع من أن يكون غير ذاته الواثقة الوفية. بل بتلويث ما يمكن أن يمس من «ذات» ليلى البريئة. ولم يكن يعنيه من ذلك كله ما هو متوقع، وإن كان يستبعد كل شيء حاسم، بل إن أساس القضية لديه، أن ليلى هي الآن، وسوف تبقى أبداً، أضعف من أن تقاوم وأكثر استعداداً للعطب..

* * *

– 19 –

حين عاد الدكتور توفيق الجابر من حلب، لم يكن قد أنهى خدمته الرسمية بعد، كان عليه أن يمضي ثمانية أشهر أخرى، طبيباً مناوباً في المستشفى الوطني بدمشق، شأن اثنين أو ثلاثة من زملائه النبيهين، الذين تخرجوا من الجامعة، في الدورة ذاتها من العام. كان الآخرون قد بدؤوا مزاولة الحياة العملية منذ أمد بعيد. فافتتحوا العيادات في المدينة، وشرعوا يجمعون المال، إلى أن يُتاح لهم السفر إلى الخارج من أجل التخصص. ولم يكن لتوفيق مثل هذا الطموح، بل إن امتهان الطب في عيادة مرموقة، ذات لافتة كبيرة تحمل اسمه، لم يكن لديه أكثر من هواية، ظاهرة اجتماعية مألوفة تقنع ذويه – بل أخاه الأكبر على وجه التحديد – بأن اسم العائلة العريق قد أُدْرِجَ في المعالم الرئيسية لشارع الصالحية. والغالب أن هذا التواضع العلمي أو المهني في مزاج الطبيب الشاب، يرجع إلى شيء من اعتزازه الدفين بالانتماء إلى الحكومة. صحيح أنه كان موظفاً مأموراً – كما يردد كهول الصالحية – غير أنه كان يمارس السلطة الفعلية المطلقة، على رعية واسعة طيعة تحيطه أبداً بالاحترام وعرفان الجميل، لا لأنها تُدين له بالصحة والحياة فحسب، بل لأنها كانت تشعره أيضاً بأنه – وزملاءه الأطباء بالطبع – هم وحدهم الذين يرممون كل ما تُلْحِقُهُ السلطة من أذى، بكل المواطنين. كان هذا في نهاية سنوات الاحتلال، وكانت الدولة، في تصور الجميع مصدراً لجميع الشرور.. حتى الأمراض التي ينبغي أن تعزى إلى الضعف البشري أو القدر الإلهي، كانوا يرونها من صنع الفساد الذي ينشره الحاكمون العُتاة. ولم يكن من الصعب على الدكتور توفيق نفسه أن يجاري العامة في سذاجة هذا التقرير. إن معظم حالات المرض الخطيرة التي جابهته في حلب، كانت تتناول الأطفال أو المراهقات أو الفتيان، وهم في اختلاجة الموت المبكر. وليس من المعقول أن يبلغوا هذه المرحلة الفاجعة من العطب الجسدي، إلا إذا كان «المسؤولون» الكبار، سواء كانوا في العائلة أو المدرسة أو الدولة، قد تهاونوا في المسؤولية الصحية، أو تعمدوا الحفاظ على الشروط الاجتماعية السيئة التي تجعل الناس – في كل سن – يتعرضون للموت قبل الأوان. لم تكن هذه وجهة نظره بالضبط، فقد كان عديم الاكتراث بكل هذه الأمور، حتى الآن. ولكن زميله في المستشفى – وهو من رفاق الدراسة، وقد أصبح يشاطره غرفة المناوبة الليلية في الجناح – قد أوحى إليه منذ الأيام الأولى أن مهنة الطب، سواء أكانت رسمية أم عملاً حراً – تقتضي شيئاً من التبصر والوعي في شؤون السياسة. كان هذا الزميل يُدعى رضوان الراهب، أو الطبيب الراهب – كما ينادونه – وكان شديد الحرص على لقب «الطبيب» الكلمة العربية الرشيقة – كما يقول – بدلاً من لفظة «الدكتور» الأجنبية، على الرغم من شيوعها على كل لسان. وهذا الحرص – على بساطته – يعبّر تلقائياً عن ملامح أساسية في شخصية الطبيب الشاب، يبدو بها أقرب إلى النقيض من شخصية توفيق.

والأرجح أن هذا التباين بين الرجلين قد فسح المجال لأن يكون كل منهما على شيء من التأثير العميق في مزاج الآخر..

لقد أوكلَ إليهما في البدء جناح الأمراض الصدرية، فكان رضوان ما يكفُّ عن إبداء التأثر والعطف، الذي يبلغ حد الحب الصادق لهذه الكائنات البشرية اليائسة، وهي تعاني تخرباً مروعاً في الجسد، لا تعرف له سبباً ولا ينذرها بخطره أي ألم:

– هذا الذي لا يُفهم.. في مثل هذا الهواء الصحراوي النقي، وهذه النسبة الجيدة من الأكسجين.. في فضاء دمشق، بل البلاد كلها، تنهش الجراثيم الخبيثة الغادرة رئات الناس، بالآلاف وعشرات الآلاف... كل الأمراض معقولة في بيئتها الزراعية الريفية إلا السل... مرض الحساسية المرهفة والهموم العاطفية..

هكذا كان يعبر عن وجهة نظره ويضيف:

– شيء لا يُصدق.. إلا إذا كان قد قُدَّر على هذا الشعب، أن تأتيه أمراض الحضارة المترفة، قبل أن يعرف طعم الحضارة..

فيجيبه توفيق دون اهتمام:

– ولكنه مرض شعري على كل حال. الحرارة التي ترتفع في سكينة، والتهاب الوجنات المتوردة، وتألق العيون.. والسعال الخجول.. لولا قشعات الدم السمجة بالطبع.. ولكنها لا تأتي إلا في النهاية..

– غير أن الشعور بالتلوث هو المهم... تلوث أبدي لا يعرف أحد لماذا كان؟ وكيف؟ عصية واحدة تظهر في الأشعة تجعل الإنسان كله معطوباً.. جسداً وروحاً.. وبدلاً من أن يتصدى لهذه الحقيقة في شجاعة، ويصمم أمام الجميع على الشفاء، فإنه لا يحسّ إلا الخوف والعار..

رأيي أن كل الأمراض في بلادنا تحمل ظل العار.. كلها شيء خبيث يتسلل في شرعية مخيفة، كما لو أنه عقوبة ضرورية على المعاصي التي اُرتكِبتْ.

– المعاصي؟. ماذا فعل الصغار؟.

– إنها مخازي الآباء والأجداد...بلى. كم سمعت مثل هذه العبارة في حلب! أبوه كان سكيراً ولهذا جاء مشلولاً أو أعمى؟.

إذا كانت الأم أو الجدة من العاهرات، فكم ينبغي أن يجيء الوليد مشوهاً أو عرضة لأقذر الأمراض؟.. تقدير صائب لولا أنه يعبر عن الإيمان العميق بحكمة الأوائل في صنع المصير البشري.

– أية «حكمة» أن يتركوا للأجيال هذه الوراثات الدنسة؟.

– الحكمة؟ بل الحكمة البليغة، أن واحداً على الأقل في كل سلالة، استطاع أن يتحدُّى ما قدَّر على الجميع، أن يتدخل فعلاً ولو بالانحراف والرذيلة والشر، في تبديل التكوين الجسدي، كما صنعته الطبيعة أو أراده الله. فما هي مهمتنا كلها مثلاً، نحن الأطباء؟. ندرس ونأخذ بكل أسباب العلم في معرفة الجسم وتشريحه ووظائفه العضوية وأمراضه التي لا تنتهي، ولا عمل لنا إلا أن نُداري الخلل الطارئ، من أجل أن يستمر ما هو كائن، أن تبقى البنية الجسدية، عند هذا أو ذاك، مريضة أو سليمة، عدة سنوات أُخَرْ... أقصد البنية كما هي، مثلما توضع بين أيدينا.. هل خطر لك يوماً أن عمل الطب بكل اختصاصاته ومعجزاته في شفاء المرضى، وتنبؤاته الوقائية، ومكافحته اليومية الضارية لكل نذالة الموت... يستطيع ذات يوم، أن يمنح جسداً إنسانياً واحداً، حياة دون ألم؟.. هذا هو المهم في نظري.. كل الأمراض بسيطة، تافهة، حتى عندما تدفع بصاحبها إلى القبر، لولا ما تُنْذر به وتحمله من الآلام الصعبة.. ومادام الطب لا يستطيع أكثر من مداراة الجسد «المعطوب» لكي يخفف عنه الأوجاع، فإنه لن يكون أكثر من خدعة كاذبة. فكثيراً ما يكون توقع الألم والعذاب، أشد قسوة من أخطر الأمراض.

الحادثة – م 9

– فلسفة غريبة!.. كلنا نتوقع الآلام، إنها في طبيعة الجسد البشري.

– هذا ما أعني. الطبيعة يمكن أن تتغير.. باستطاعتنا التدخل في الوراثة.. ولكن ليس عن طريق الطب ولا العلم..

– أن يلغى الألم؟.. خيال ممتع! ولكن إذا أمكن الاستغناء عن اللذة!...

لا أظن أنه من الضروري أن نربط بين الاثنين.. مثلما يحدث عادة حين تذكر الحياة، فيقف أمامها شبح الموت القاتم...

الحياة لا تقترن إلا بالمتعة والفرح... وإذا كان لنا أن نصنع العادات البهيجة دائماً، فلا بد من أنها سوف تنتقل بالوراثة إلى كل سلالاتنا القادمة. ولكن مثل هذه العادات، ما تزال لسوء الحظ، من مظاهر الفساد والتحلل الخلقي في نظرنا نحن الأطباء – على الأقل ـــ... قبل الكشف الطبي والتشخيص وإعطاء الدواء، نسأل عن الخطأ الذي اُرتكبْ.. الجريمة الصحيحة التي اقترفها المريض المسكين أو تحدرت إليه من أغبياء العائلة... حتى في حالات المرض الطبيعي، المرض الأخير... مرض الموت المحتّم بعد الثمانين أو التسعين لا ننسى هذا التفكير الأسطوري المتعنت.. إن في هذه النهاية الطبيعية المتوقعة، شيئاً من صنع الإنسان أيضاً، وإلا لماذا يكثر الحديث عاماً بعد عام، عن الذين تعقلوا في طرق المعيشة، وروضوا عاداتهم على الاتزان. فامتدت بهم سنوات العمر، أو تجنبوا هوانَ المرض في أطول شيخوخة ممكنة؟.

– هذا هو المعقول.. إنهم الأشد ذكاء وخبرة.. إن رفض الموت هو من أمتع مسرّات الحياة...

– الجميع يرفضون، ومع هذا فإنهم في حضيض الشقاء...

أعني كل هؤلاء الذين يأتون إلينا في قلق حائر، لكي نقنعهم بأنهم الآن يحصدون ما زرعوا... وكان باستطاعتهم أن يتلافوا كل هذا المزيد من الشعور بالذنب وعدم الجدارة.. أتعرف، يا رضوان، إنني في جميع الحالات الخطرة، أحسُّ في أعماقي نوعاً من التشفي أمام المريض.. أُشفقُ عليه لأول وهلة، ولكنني ما ألبث أن أقول في نفسي: «البهيم!».. يستحق أكثر من هذا!.. ولا أُعالجهُ إلا على هذا الأساس.. أن يصبح أقل غباءً في مداراة الأمور.. بتعبير آخر أحاول أن أؤكد أنه وجميع الذين على شاكلته، وهم كل الآخرين – على السواء – مرضوا الآن أو سوف يمرضون، ينبغي أن يتعرضوا لمثل هذه العقوبة، ما داموا قد فعلوا ما لا ينبغي.. الجميع باستثناء شخص واحد هو أنا.. لا لأنني طبيب أو إنسان صحيح الجسم حتى الآن، بل لاعتقادي الجازم بأنني لست مسئولاً عن شيء يقتضي العقوبة.. لا في الصحة ولا في المرض، حتى ولا في الموت ذاته، ولو أنه انقضَّ عليّ فوراً في سكتة قلبية، أو حادثة دهس في الطريق، أو عملية انتحار..

– ولكن المرض الذي يصنعه الإنسان، شيء آخر!.

– أبداً.. كلها شيء واحد.. ما دامت وراءها الشماتة، حياة بكاملها تُنتَزعُ من إنسان، فما على الآخرين إلا أن يلوموه في شراسة، لأنه لم يصمد، وأن يفرحوا من الأعماق بأنه ذهب بمفرده عن هذا العالم، ولم يطالبهم بأكثر من دمعة كاذبة، وإكليل من الزهر يعتريه الذبول...

مثل هذا الحوار التقليدي الباهت، كان يستأثر باهتمام الطبيبين الشابين، في الكثير من مناسبات الأحاديث العفوية المألوفة، حين يلتقيان في المهجع ساعة القيلولة، أو قبيل الرقاد كل ليلة مرهِقة.

كان رضوان نموذجاً فذاً للكادح اليومي، الذي يستهين بكل شيء حتى الصحة والمباهج الصغيرة، لكي يطمئن إلى أنه – على حد تعبيره – قد تفانى في أداء واجبه الإنساني: ومن ثم فلم يكن لديه متسع من الفراغ – في الوقت أو التفكير – يتيح له التساؤل عما هو أبعد، من الانغماس الجزئي في تفاصيل عمله، وذلك هو طابع شخصيته «الطبية» في الغالب، الترميم المسلكي بروح مهنية عالية، دون الاكتراث بكل ما يمكن أن يُثار حول العملية كلها من «شيء إنساني» يتعلق بالألم، والجراثيم وعطب الجسد، ووراثة السلالة.. لم يكن مُغلق الذهن تماماً عن مثل هذه الأمور. فكل طبيب – كما هو معروف – يتعاطف بالغريزة، مع ما يعاني مرضاه. غير أن رضوان في الظاهر، حتى هذه الحقبة من مجابهته أفكار توفيق وتفاعله بها – كما سيأتي في حينه – كان ذا طبيعة صماء أمام كل ما يبعث الارتياب، في جدوى المهنة، التي اختارها، أو يفرض عليه الحد الأدنى من إعادة النظر في المعنى «الإنساني» البعيد لهذه المهنة. لقد كان يحرص دائماً على أنها ليست أكثر من مهنة، قد تتميز بعض الشيء «بإنسانيتها» غير أن الجسم البشري فيها، ليس إلا بعض العناصر التي تتعامل معها، بل كثيراً ما يكون المبضع أو الجرثوم أو الدواء، بل حتى سيارة الإسعاف، التي تحمل المصاب إلى المستشفى قبل فوات الأوان، أشد

خطراً وأعظم شأناً، من الكائن البشري ذاته. تلك هي حدود أفكاره «العلمية» في تمثل عمله الطبي، وكم كانت هذه الحدود تضيق في تصوراته، حين يفكر بأنه سوف «يتخصص» ذات يوم.

والواضح أنه اختار جهاز التنفس!.. عندئذٍ سوف تستبدل الرئتان وحدهما بالإنسان كله. ولا ريب في أن فلسفة المرض، بكل تاريخهما الجرثومي السحيق، سوف تنحصر، طوال عمره، في معايشة عصيّة غبية تافهة، ما تكاد أن تكون جديرة بأن توجد، في حين تسلب الملايين بتوغلها الماكر كل أسباب الوجود.

على هذا النحو كان النقاش العفوي العابر بين الطبيبين، ذا شأن لا يستهان به، حتى في الوقائع المنتظرة. لم يكن بينهما إلا تبادل الآراء. ومع هذا فإن جواً غريباً لا يُفهم من تبادل التأثير، كان يهيمن عليهما منذ الأيام الأولى. لقد جاء توفيق بماضٍ مزدحم صاخب، من التجارب الشخصية «الصغيرة» وإن كان يرشح نفسه الآن، لقصة حب كبرى، ليس من السهل أن تعد محض مغامرة مجهولة، أما رضوان فإنه لا يحمل إلا سجلاً تقليدياً عادياً، من سنوات الدراسة الناجحة، ليس فيها ما يلفت النظر، إلا تألق الشهرة الجامعية، والسمعة الحسنة، وانتظار المستقبل اللامع في العمل المهني، والمركز الاجتماعي معاً.

مظهر آخر للتباين العميق بين الشخصين، ولكنه يبرز هذه المرة جانباً أساسياً من التناقض، في طبيعة رضوان وحده، كيف أن هذا الطبيب المتواضع الهادئ المزاج، المحدود التفكير – كما ذكرنا – هو الذي كان يمتد بأفكاره البسيطة الساذجة، إلى أبعد من الرأي الشخصي، في صدد العلاقة بين الواقع «المرضي» في حياة الناس، وبين شروط السياسة. في كل مناسبة كان يلح على هذه الناحية: أنه إذا كان توفيق مخطئاً في نظريته عن «المسؤولية الصحية» الآنفة الذكر، مسؤولية الأشخاص القدامى، الذين يصنعون بعاداتهم السيئة مرض السلالة، فإن الذين يمهدون السبيل، إلى استمرار مثل هذه البدعة المحزنة في حياة الشعب، هم جميع أولي الأمر في كل مرحلة راهنة.

– ما داموا قد تصدوا بأنفسهم لوضع التشريعات المتعلقة بمصائر الناس، وعمدوا إلى تنفيذها وفق مخططاتهم أيضا، فلا بد من أن يكون لهم دور أول، في الحفاظ على كل شروط التعاسة والشقاء، وتقهقر الجسد أمام الأمراض.

هذا ما كان يردد معظم الأحيان، فيستوضح توفيق:

– وما شأن التشريع والتنفيذ وخطط الدولة، في المسائل الشخصية؟.. هل تملك السلطة أن تضع في الرؤوس، عقولاً تتصرف بحكمة؟..

– طبعاً.. هي وحدها التي تملك هذا.. ما هو «التصرف بحكمة؟..» هل يعني أكثر من أن يصبح سلوك الإنسان قاعدة راسخة، صالحة من أجل جميع الآخرين؟.. ولن يكون السلوك على هذا النحو، إلا

إذا اعترفوا بجدارته، وكل اعتراف في هذه الأيام، إنما يأتي من السلطة، بل السلطة السياسية على وجه التحديد، لا الدين ولا المجتمع ولا العرف، أصبح بمقدورها أن تجعل أي شيء شرعياً.. حتى شرعية وجود الشخص، أن يعترف ببقائه حياً أو حراً، أو صاحب حق، أو حسن السمعة.. كلها من صنع السياسة، ما من أحد يُستشار أو يُسأل فيما هو وما ينبغي أن يكون.. فكيف يخطر لأحد أن يريد؟..

– إلى هذا الحد تجد الأمور معقدة؟.. هل هناك شيء اسمه «سياسة» في هذه البلاد؟ أو ساسة يهيمنون على المصائر؟..

– لم لا؟.. العنصر البشري الوحيد الذي يمارس الحرية.. الآن، ومنذ مئات السنين، حتى الأمراض والأوبئة هم الذين صنعوها بحريتهم هذه...

الواضح أن توفيق لم يكن يتوقع مثل هذا التجديف من زميله الطيب القلب. ولا ريب في أن رضوان نفسه كان على شيء من الانفعال والحماسة، حين «تناولهم» المرة الأولى، بهذه العبارات المريرة. بل إنه في الغالب لم يستطع أن يحدد من هم في صراحة.

هذا هو الانطباع الذي كانت تتركه لهجته النابية، في نفس صديقه، كلما تحدّثا في الموضوع، على نحو لا يخلو من الجد..

ولكن من هم هؤلاء بالفعل؟ ولماذا هذا الحرص «التجريدي» البعيد عن الحس القصصي، على وجهة نظر رضوان، في مسألة عادية من هذا الطراز، قد تصدر عن رجل الشارع المتوسط الثقافة والوعي، في تلك الأيام؟. بل إن الناس جميعاً كانوا خلال الأربعينات، في أشد المواقف سلبية وتشاؤماً، من جميع الحكام أو الساسة أو ذوي النفوذ؟

فما هو الجديد في رأي طبيب ضائع، تؤكد بداياته كلها، بأنه لن يكون في هذا المجال، أكثر من مواطن مغمور؟.. لا جواب إلا إذا التمسنا فيه – من الوجهة الروائية وحدها – ملامح شخصية مناقضة تماماً للدكتور توفيق، صحيح أن هذا التناقض لا يتعدى حتى الآن، حدود الخلاف في رأي عابر، حول الإنسان والطب، ومسئولية المرض، والموت من المرض، غير أن هناك حقيقة هامشية صغيرة، في ظاهرة رضوان هذه – وهو النقيض المشار إليه – هي أنه لم يكن في الواقع الحيّ،بكل شخصيته ومزاجه وتجاربه.. الخ، إلا هذا الرأي العابر. ولا يهمّ المضمون الذي تحمله الكلمات. فقد كان باستطاعة توفيق أو سواه، إقناع الرجل بصواب الرأي المعاكس، وكان رضوان نفسه يوحي بأنه لا يرفض التهاون في وجهة نظره، أو التنازل عنها، غير أنه كان يستبدل بهذا الرفض منذ البداية، إصراراً عميقاً جازماً، على أن كيانه الحقيقي، الكيان الذي يجعله متفرداً بالاسم، والخصائص الجسدية، والطباع وطريقة الكلام، وأسلوب الحياة، ليس في النهاية، إلا فكرة معينة يحاول أن يعبر عنها بألفاظ محدودة واضحة. تلك هي جدارته الإنسانية بين الآخرين – كما يقولون – ومن دونها لا يهمه كثيراً أن يهمله

الجميع، أو ألا يروا في وجوده شيئاً يُذْكر. ومن هذه الناحية وحدها، يمكن أن تعد حقيقته القصصية هذه، وسيلة إيضاح لا أكثر، من أجل التأكيد على الحقيقة الحية للدكتور توفيق، وقد رأينا كم كان الدكتور توفيق بهذه الحقيقة، نموذجاً مثيراً لعدم الاكتراث «بالإنسان – الرأي» – إذا صح التعبير ــ!.. وكم كان يعاني في أبسط تجاربه الذاتية، من الاستقرار على موقف ذهني واضح، يشرح له – على الأقل – من هو وماذا يستطيع؟ هذا إذا أتيح لنا أن نغالط الواقع، ونفترض أنه – أي توفيق – كان معنياً بمثل هذا الشرح، ولا سيما أن طبيعته العملية – كما رأينا – كانت تطرح أمامه دائماً، مشكلة ما ينبغي أن يفعل، وكيف يتصرف، لكي يستنفد الحياة كلها – كما يردد – في كل تجربة!..

الخلاصة أنهما الآن معاً. وكل ما كان بينهما من تباين وخلاف، كان يعمل على ترميم فجوة الاغتراب الخفية، بين شخصين، يشتركان في كل شيء، من العمر والمهنة إلى المصير الاجتماعي، باستثناء الناحية الخطيرة التي تجعل من الصعب على أي منهما أن يقدر الآخر، كما ينبغي أو يدينه.. أن يتعلم منه شيئاً جديراً، أو يستهين به نهائياً، مثلما يستهان بكل الأشياء الحيادية «المبتذلة».. الأشياء التي لا يفتقدها الإنسان في حياته اليومية .. إذا لم توجد، وقد لا يكون لها البتة أي لزوم، إذا وجدت، وكانت تحت التصرف. هذا ما استمرت عليه الأمور معظم شهور العام، إلى أن أصبح رضوان على صلة بعلاقة الحب، التي تربط بين العاشقين. إن كلمة «العاشقين» هذه، هي من أولى مفردات الطبيب، إياه، في إبداء الرأي، ولا بدّ من التنويه بها في البداية، لما كان له، الطبيب أو رأيه، من أثر غريب في الوقائع التالية.

* * *

- 20 -

حدث في أواخر أيلول، أن تمكن الحب بين ليلى وتوفيق، إلى حد لا يَحْتمل أي انتظار. كانت قد أنهت دراستها الجامعية منذ أمد طويل، وبدأ توفيق حياته العملية. ومن البداهة أنهما استأنفا في دمشق، كل المواعيد العاطفية السالفة. وتماديا في أشياء كثيرة، من مبادرات الغزل الجريء، أصبحت تتوّج في الغالب بالخلوات المريبة في المستشفى ذاته، ومن ثم كان رضوان بالبداهة نفسها، يتفرد وحده بالرقابة، ومع أنه كان لطيبة قلبه وسذاجته، وصياً أميناً، أكثر منه رقيباً على هذا الحب، فقد كان عليهما معاً، أن يحسبا له ألف حساب، لا لأنه كان يعرف ويتكتم، ويستطيع في الوقت نفسه عدم الكتمان، بل لأن كل مواقفه في هذا المجال، كانت تنطوي على الإعجاب والتشجيع، وهذا هو الشيء الغريب في الحذر الذي كانا يبديان. كانت ليلى – على نحو خاص – تأتمنه في كل شيء، من رسائلها الشفوية إلى توفيق، حين تزور المستشفى ولا تراه، أو عن طريق الهاتف «المشترك» إلى مطالبة رضوان بإخلاء الغرفة في الموعد، ومصارحته بجميع العقبات «العائلية» الخاصة، التي يمكن أن تعترض الزواج. ولم تحجم ذات مرة عن استشارته حتى في شخصية زميله – كما تبدو له – ومدى ما توحي طباعه من إيمان، باستقرار الحياة الزوجية وميل إلى الأطفال، دون أن يبدر عنها بالطبع ما ينم على أية ريبة في صدق عاطفته، ووفاء حبه. وكان رضوان أكثر من صديق وفيّ للاثنين معاً، ولابد أن «توفيق» أيضاً كان يكشف له عن سريرته في ثقة راسخة. ومع هذا كله، فقد كان الحذرُ الآنف الذكر حقيقة لا تُنْكَر...

هذا الصباح مثلاً، وليكن يوم الخميس (26) أيلول، أفاقت ليلى في مزاج مرح مطمئن، ورأت أن يكون بعد الظهر موعد لقاء مع توفيق، في أحد بساتين الغوطة: فعمدت إلى الهاتف تبلغه الاقتراح، فأجابها رضوان بلهجة ود مرحة أيضاً:

– إنه في قاعة الإسعاف منذ الفجر... ماذا تريدين؟..

– ألا تعرف متى يرجع؟..

– قد لا يعود إلى الغرفة...

– أهو مشغول اليوم؟.. بعد الظهر!.

– بلى.. هذا ما قاله البارحة. لديه سفرة صغيرة خارج المدينة..

– سفرة؟..

مكتبة علي بن صالح الرقمية

– قد يكون على موعد في أحد المستشفيات.. انتظري... سوف أناديه من القاعة وأحلّ محلّه..

– على الهاتف؟. لا.. إنني اتصلت به من أجل نزهة عند العصر...

– فليكن.. ولكن.. ليس من المؤكد أن أراه..

– إذن أمر على المستشفى بعد ساعة..

– لا.. أنا أيضًا سوف أخرج الآن.. لن يكون أحد.

– إذن لا تخبره بشيء يا رضوان، نؤجل النزهة!..

– ولكنه في المستشفى.. ولا أظن أن موعده بعد الظهر مهم، إلى هذا الحد... انتظري.. عشر دقائق لا أكثر..

– لا.. لا تذهب.. لا شيء ضروري بهذه السرعة.. أتصل به فيما بعد.. لا تذْكر له شيئاً إذا رأيته. إذا كان قد نسيَ تاريخ اليوم فلا فائدة..

– تاريخ اليوم!.. هل هناك مناسبة هامة؟..

– الظاهر أنك قد نسيت أنت، أيضاً، منذ أسبوع قال لي أنه حدّثك في الأمر.. ولكن لا بأس.. لا بأس.. انسَ هذه المكالمة أيضاً ولا تقل له شيئاً... إلى اللقاء.

وأغلقت الهاتف. كان رضوان يتأهب لمغادرة الغرفة إلى بعض أجنحة المستشفى، ولكنه وجد نفسه ملزماً بشيء من التريث والتفكير الجاد، في هذه المسألة البسيطة الغامضة. كان في لهجة ليلى ما ينمّ على الارتباك الحانق، ولا بد من أنها قد قطعت الحديث في غضب أشد. هذا ما كان واضحاً في اهتمامها القلق بأشياء صغيرة، تتعلق بموعد «غرامي» بدا للطبيب عادياً تافهاً بادئ الأمر. ثم أصبح شديد الخطورة. وفكّر رضوان ملياً ما الذي يعنيه تاريخ 26 أيلول، ولكن دون طائل. ولم يذكر أن توفيق قد حدثه في هذا الشأن، فصرف النظر عن هذا الموضوع كله، وجعل يستعيد ما يمكن أن تكون عليه ليلى، وهي تتحدث إليه بهذه اللهجة. لقد أشعرته – في مفاجأة غريبة – أنه طرف في مشكلة، وخيّل إليه أنه لم يكن من المستبعد أن تلومه أو تتهجم عليه، لو طال بينهما الحديث، ولأول مرة تُكْشَفُ له هذه الحقيقة: إنه مادام قد أُقْحِمَ إلى هذا الحد في القصة، قصة الحب بالطبع، وكان عليه أن يعرف ويهتم، ويكون وسيطاً في آن واحد، فلا بد من أن يحمل شيئاً من المسئولية.. أو بتعبير أوضح إنه لا يستطيع بعد الآن أن يقف في الحياد.. وإذا كانت ليلى قد وجدته ممالئاً لتوفيق – كما عبرت عنه الآن، ولا ريب أنها كانت تجده دائماً في صف زميله – فمما لا ريب فيه أن زميله العاشق يتصوره بدوره أشد انحيازاً إلى الفتاة، ولابدّ أن هذا الانحياز لا يقتصر على تأثيره في آراء ليلى، وتوجيه تصرفاتها أحياناً، بل إنه يمكن أن يتجاوز ذلك، إلى تأليبها على حبيبها الأثير – إذا اقتضى الأمر – بلى.. هذا هو إحساس

الدكتور توفيق بطبيعة الحذر، الذي يُهيمن على مشاعره، أمام نوايا رضوان البريئة الطيبة.. كان يعرف أن هذه النوايا لن تتعدى في الواقع الحي، حدود الإخلاص والصداقة الوفية، غير أن التوقع المحض، كان يشعره أيضاً بأن «شيئاً رضوانياً» – إذا صحت الكلمة – يمكن أن يتغلغل في كيان ليلى مع الأيام، ويلعب دوره الحاسم، بتبديل طريقتها في الحب على الأقل.

وهذا ما لمسه رضوان بالفعل. هرعَ إلى قاعة الإسعاف في لهفة مفاجئة، فوجد زميله بالثوب الأبيض، يفحص طفلة تعرضت للتسمم وقال، وهو يهمّ بمشاركته الفحص:

– دكتور... في أي تاريخ نحن؟..

فأجاب توفيق في تأمل عادي:

– 26 أيلول، على ما أظن..

إذن الخميس 26 أيلول... أليست هناك مناسبة؟.

عندئذٍ رفع توفيق يده عن المريضة، وقال وهو يتفرس في عيني رضوان بتساؤل مريب:

– مناسبة؟. ماذا تريد أن تقول!.

– لا شيء... ولكن ليلى اتصلت بك من البيت... مخابرة عاجلة...

– مخابرة بالهاتف؟ أهي مناسبة تحتاج إلى تأريخ؟.

– من يدري؟.. تستطيع الاتصال بها، إذا أردت.. إنني أقوم بالإسعاف!..

– لقد فرغت على كل حال.. ولكن..

وأمسك بذراع رضوان وهو يبتعد به في رواق يُفْضي إلى الباب الخارجي. وقال رضوان:

– كانت مضطربة.. هل هناك شيء؟..

فتظاهر توفيق بعدم الاكتراث، ولزم الصمت هنيهة، ثم قال في جد طارئ:

– أهي التي ذكرت المناسبة؟..

فأجاب رضوان وقد شعر بأنه كان عليه أن يكذب:

– لا.. كانت تريد أن تتحدث إليك هذا اليوم... ولكن دون إلحاح..

– هل قلت لها أنني على موعد بعد الظهر؟..

– أبداً.. لا.. لم يكن هناك مجال..

– من أين جاءت إذن قصة تاريخ اليوم هذه!.

– كان في اضطرابها ما يدل على شيء من هذا.. لماذا لا تتحدث إليها ؟ إنها ما تزال في البيت على ما أظن..

صمت توفيق من جديد، واستغرق في تأمل هادئ، بينما كان رضوان يتنبه في وعي مفاجئ، إلى أقواله وتصرفاته مع الاثنين معاً، منذ الصباح. لم يهتم كثيراً بالكذب «المهذب» الذي لجأ إليه، في إطلاع توفيق على الحادث الصغير، بل بموقفه من ليلى خلال حديثها الهاتفي العابر. وكانت خواطره في هذا المضمار، تسير على النحو التالي: منذ أن بدأ يشعر بأن في لهجة ليلى إلحاحاً خفياً على موعد اليوم مع توفيق، وجد نفسه يعمد إلى شيء من مقاومة هذه الرغبة، ولاسيما أن صوت ليلى في الهاتف، كان ندياً بالأنوثة المتلهفة – على حد إحساسه أيضاً .. وقد كان يستطيع أن يحل المشكلة على الفور، حين خامره هذا الشعور: أن ليلى تريد لقاء توفيق بأي ثمن، ولكنه – أي رضوان – لم يفعل، بل جعل يراوغ، إما من أجل إطالة الحديث والاستمتاع بما يدعوه عادة، ضعف المرأة «العاشقة» وإما لأنه نصب نفسه وصياً على صديقه، الذي كان قد أعدّ كل شيء من أجل موعد آخر. ومن المحتمل أن يكون رضوان قد وجد متعة أخرى في هذا النطاق، ترجع إلى أنه قد وقف على حالة طريفة من الشجار، وسوء التفاهم بين العاشقين. وقلّما تمر مثل هذه المناسبة لدى أي رقيب في الحب، دون أن يستغلها على نحو، يؤكد توازنه النفسي أو كبرياءه، أمام انهيار المحبين. ولا علاقة لهذا الاستغلال بسوء النية، فهو في الطبع البشري، على ما يظهر، ومع هذا فإن الالتواء وعدم الصراحة في سلوك رضوان، لا يخلوان من رغبة دفينة، في تجريح هذه العلاقة العاطفية الرائعة. وما دام كل شيء متوقعاً في دخيلة رضوان، كما أصبح يتهم نفسه الآن، فليس هناك ما يمنع أن يكون غير جدير بالثقة المطلقة، في تصور الاثنين معاً. بل ها هو ذا يقدم الدليل العفوي الواضح. لقد تمادى في حديثه مع ليلى دون مسوّغ، إلا أنْ يؤكد لها أن له الحق في الكلام باسم توفيق، ولا ريب أنها سوف تعرف أيضاً، قدرته على توجيه حبيبها، حتى في مسألة صغيرة كهذه... وأَشْعَرَ توفيق أيضاً بأنه على علم بالكثير من «الأشياء السرية» المكتومة في هذا الحب، منها مثلاً حرص ليلى على تذكّر تاريخ اليوم.

كان الطبيبان قد بلغا نهاية الرواق وهما صامتان، وقال توفيق:

– ولكن أحدنا يجب أن يعود...

– ليس لدي عمل هام في الأجنحة، أستطيع البقاء حتى الظهر... وأنت تخرج...

– ولكنني لن أخرج إلا بعد الظهر.. حسب الموعد.

فالتفت إليه رضوان في تساؤل ساذج:

– تفعل ما تريد.. ولكن قد تمر ليلى في ساعة..

فتركه توفيق في شيء من الانفعال الطارئ، وانطلق إلى الغرفة، ومكث رضوان هنيهة يتتبع خطاه المسرعة، في نظرات متألقة من الاطمئنان والود. وقال في نفسه وهو يعود أدراجه إلى العمل:

«كل شيء يرمم كما ينبغي... من يدري كيف تغضب وتتصافى قلوب المحبين؟!..» ومع هذا فلن يكون الأمر سهلاً إذا التقيا اليوم، ودرسا معاً قضية إطلاعي على ما كان يتوقع أن يحدث بينهما من سوء التفاهم...».

وهذا ما حدث بالفعل. لقد التقيا في الموعد الذي أرادته ليلى، والغالب أنهما احتفلا بمناسبة ما يوم 26 أيلول، قد تكون عيد ميلادها. أو ميلاده. أو ذكرى تعارفهما الأول.. غير أنهما لم يبدلا سلوكهما البتة تجاه رضوان، بل استمرا يغدقان عليه مشاعر الثقة والصداقة الصريحة والود... غير أنه... هو نفسه جعل هذا التاريخ بداية انعطاف خطير، ليس في علاقته بهذا الحب فحسب، بل في نظرته إلى نفسه. تساءل في البدء عما يستطيع أن يكون في هذا الواقع العاطفي الذي كان يبدو له تارة في غاية المتانة، والرسوخ والمناعة، حتى يخجل – بينه وبين نفسه بالطبع – من التفكير بأي تدخل مباشر، مهما يكن هذا التدخل ودياً ومشروعاً بالتالي. غير أن أبسط ارتباك في مزاج توفيق، كان يوحي إليه تارة أخرى بأن كل شيء قد تصدع دفعة واحدة، وبدأ ينهار. ولأمر ما، كان نفسه في هذه الحالة، شبه مستنفر لرأب الصدوع، حسبما يقضي به «واجب» الصداقة المزدوجة كما يقول. وكم كان يعمد إلى الكذب من جديد من اجل هذه الغاية. فيزعم لليلى مثلا – إذا حدث أن ترامى إليه صوتها القلق عبر الهاتف – أن «توفيق» قد استدعي من أجل عملية جراحية طارئة، بينما يكون في الواقع قد خرج، وهو متعكر الملامح، يسهر في أحد الملاهي المشبوهة!.. وكم كان يستهوي رضوان في الظروف المماثلة، أن ينفرد بليلى أمام باب المستشفى مثلاً، أو في الغرفة، وقد أخذ على نفسه في تبرع سخي، مهمة إقناعها بأن هذا الحب هو الأقوى والأثمن، وأنه إذا كانت هناك عقبات آنية تضعها في الطريق مسألة الزواج، ومشكلاته العائلية.. الخ، فإن من الحكمة أن يحتفظا معاً بالجوهر العاطفي المحض، أطول زمن ممكن.. ولو أدى ذلك بهما إلى الانتظار الطويل ومجابهة الأقاويل.

أهو رأيه أيضاً؟.. الرأي الذي يصبح كل شخصيته على النحو الذي ذكرنا؟ أم أنه محض موقف عابر، يتذرع به بين الحين والآخر، لكي يسوغ لنفسه التغلغل في حادثة الحب هذه؟ وهل يعني مثل هذا «التغلغل» أكثر من التأكيد، على أنه ينبغي أن يفرض على الاثنين معاً حذراً أشد، قد لا يكون هناك الآن ما يشير إلى خطورته العلمية وتأثيره المباشر، غير أنه يجعل شخصه الطيب الودود في حضور دائم، أشبه بالفراغ المبهم في سكون الظلام من المتوقع أن يتحرك بين لحظة وأخرى، بحادثة رعب تبسط الخوف الغامض..

الخلاصة أن هذا الحضور الوهمي، كان ينمو مع الأيام في وعي الثلاثة في آن واحد، بل يملك الكثير من شرعية التصرف الحر، في حين كانت أحداث الحب الصغيرة بين ليلى وتوفيق، كانت تبدو

أحياناً أكثر خضوعاً لشيء من القسر العاطفي – إذا صحت الكلمة – يملي عليهما بالضرورة كثيراً من حالات الانفعال المألوفة، في كل حب مماثل، ويضعهما بشيء من الحتمية في مواقف لا سبيل فيها إلى الحرية على الإطلاق.

هذا ما كان من شأن رضوان في المعاناة العاطفية الدفينة، التي أصبحت تنثر شرارتها الجديدة الغامضة، في هذا التدفق الثنائي الصاخب من تيار الحب بين الشابين، طوال خريف العام، كل شيء كان يتوطد ويحفر مجراه إلى الأعمق والأشد حيوية، وكل شيء في الوقت نفسه، كان ينذر بالتضعضع والارتباك، لأن شخصاً ثالثاً، حيادياً، موثوقاً به، أصبح يعايش كل هموم الحب الصغيرة، ويملك القدرة على أن يجعل من شرارات التساؤل المتناثرة، وهجاً متألقاً يمنح الحب شرعيته الذاتية، وروعة استمراره في وجود «اجتماعي» راسخ، أو أن يحيل كل هذه القصة، بجذوتها الحية ولهبها الأثيري إلى رماد هامد...

«لا سبيل إلى التراجع.. أصبح رضوان أشبه بالحزام الذي يطوقنا معاً..» هذا ما كانت عليه حقيقة الشعور المتبادل بين ليلى وتوفيق، وهما لم يجرؤا بعد على التفكير الجاد بأية خطوة تالية.

ومن ثم كان لهما معاً، أن يتمثلا حقيقته البعيدة، بالكثير من التقصي الذي تفرضه الأمانة في الرواية. ولما كانت ليلى هي البادئة في هذا الاكتشاف العفوي، فقد أخذت الخطوة الأولى، صيغة الحادثة التي تلفت النظر. لم تكن أكثر من زيارة عادية في منزله المجهول، وعدته بها ذات يوم، دلالة على الثقة والود العميق، ولاسيما أن توفيق كان قد غادر المدينة إلى الجبهة في مهمة طبية طارئة. غير أن ما هو عادي.. في مثل هذه «البيئة النفسية» – إذا جاز التعبير – لا يخلو من غرابة الحدث، الذي يحتمل في نظرها ونظر الآخرين – لو أنهم تساءلوا عن المرامي – كل ما هو غير عادي، يثير الفضول.

* * *

- 21 -

كان الموعد بعد الأصيل. وكانت موجة الحر ما تزال تتحرك في هواء دمشق. وأقبلت ليلى بثوب صيفي رقيق، حاسر النحر، تنبض ذراعاها العاريتان، وانثناءات خصرها المتعالي الناحل، بأعذب إيقاع الجمال الفتي... هكذا احتواها رضوان بملء أحاسيسه الغضة، وهو ينتظرها على رصيف الشارع الرئيسي – كما كان الاتفاق – ومن حسن الحظ أن الشارع كان شبه مقفر في هذه البقعة النائية من الحي العريق، وكان رضوان قد قضى ما يقارب الساعة وهو يتوقع ظهورها في أحد المنعطفات الأخيرة لـــ «باص» الميدان، وحين تراءت له من البعيد بثوبها اللازوردي الهفهاف، وكانت سماء الغروب وراءها في لون فضي مُذّهبْ الحواشي، ومع هذا كان يميل إلى الزرقة الصافية التي يحملها نسيج الثوب ذاته، حين تراءت له بهذه الصورة الشعرية الفذة، بقي متجمداً في مكانه، كما لو أن الحي كله يراقبه، إذ ذاك، ويتوقع أن يقوم بتصرفات نابية، تشعر الجميع بأنه يفعل ما لا يجب، أو أن هذا الموعد – على عفويته الساذجة – يمكن أن يعتبر غدراً بصديقه. ولكنه لم يستسلم طويلاً لمثل هذه الظنون. وصافح ليلى في مودة بريئة وقال لها وهما ينعطفان معاً صوب بيته:

– لو كان معنا توفيق؟.. أتعرفين أنه لم يزرني في منزلي حتى الآن؟.. إنه يكره مثل هذه البيوت المغلقة.. ولكنه مخطئ... بيت رضوان يختلف عن جميع الأمكنة..

فقالت وهي تسير إلى جانبه في اقتراب خالٍ من الحذر:

– ألم يأت مرة حتى الآن؟. ولكن لا غرابة.. إنه لا يحب أي منزل في البلد...

– وأنا أيضاً لم أزره في منزله... دعاني ذات ليلة إلى العشاء، ثم اعتذر في اللحظة الأخيرة... ودعوته إلى كأس فأخطأ الطريق.

كلانا من ذوي الطباع البرية – على ما يبدو ـــ.. الحقيقة أننا نستمتع بالحياة معاً، في غرفتنا العائلية الصغيرة في المستشفى.

ومع هذا يمكن أن تكون زيارتك هذه، فاتحة لمشروعات المجاملة التقليدية بيننا، هذا ما يفعله وجود المرأة في الغالب، بين الأصدقاء.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

– هل تراني «رسمية» إلى هذا الحد؟. ربما.. ولكن ليس في هذه المناسبة.. بصراحة لقد أتيت من أجله.

– ماذا تعني؟..

– مادمت أنت صديقه الحميم.. الوحيد.. كما أتصور فلا بد من أن أعرف كل شيء عنك.. بلى.. كل شيء، على أنك زاوية محببة أليفة من عالمه الخاص. ولكن هذا لا يعني أن رضوان ليس هو الصديق الجدير بالمودة والاحترام.

وضحكا معاً، وهما يقطعان حجارة الزقاق الضيق، في خطى متمهلة تفرضها عفوية الحديث الهادئ.

كان المنزل في نهاية الزقاق. بيوت ترابية متلاصقة في جانبي ممر حجري قديم، لم يبقَ من أرصفته إلا بعض الصخور المنحوتة في رداءة، يرتفع بعضها قليلاً أمام كل باب. ولم يكن للزقاق اسم، غير أنه كان يلفت النظر باستقامته ونظافته بين عشرات الدروب الريفية المتشعبة في حي الميدان، تكثر في معظمها المنعطفات وتتناثر الأقذار.

هذا ما لاحظته ليلى لأول مرة وهما يقفان أمام باب خشبي عتيق رصعت أطرافه بالمسامير الكبيرة الصدئة، وتوسطته، فوق مكان القفل، رقعة نحاسية حفر عليها اسم رضوان بخط أنيق. وقال رضوان وهو يعالج القفل بالمفتاح التقليدي الطويل:

– جميع الطرقات المستقيمة تكون نظيفة في الغالب.. هنا كل «يكنس» أمام بيته، ويغسل حصته من الطريق أكثر من مرة في اليوم، لأن امتداد البصر يفضح الإهمال بنظرة واحدة.. وربما من أجل هذا خصتنا الحكومة بهذا المصباح...

وأشار بعينيه إلى زجاجة كهربائية ترتعد بضوئها الشاحب تحت سلك رمادي وحيد ، يمتد من عمود الشارع الرئيسي إلى كوة صغيرة في أعلى الباب. ولم تكترث ليلى بالضوء مقدار اهتمامها بالسكون المطبق على المكان. خيل إليها أنهما خارج العالم، وأن هموم الحياة في هذه البيوت التي كانت تعرف أنها مزدحمة بالكائنات البشرية، إنما هو استمرار لما يمليه جو الصحراء من وحشة، منذ آلاف السنين، ولاسيما أن السماء كانت تبدو – على رحابتها وبزوغ النجوم الصغيرة في أرجائها النائية – قريبة دانية، كأنها تلامس العيون... بل إن كل أبعاد الأرض تتلاشى في آفاقها ويطويها صمت المكان.

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

مكتبة علي بن صالح الرقمية

- 22 -

منذ أن عاد الدكتور توفيق يشرب الخمر عند الفجر، وجد نفسه معنياً بمراقبة الناس أيضاً، مثلما كانت الأشياء تستأثر بإحساسه المرهف. ولا غرابة!. إنها تقاليد الشارع كله. غير أن الدكتور لم يكن منصفاً في هذه الرقابة، لأمر ما، خصَّ بها الكهول وحدهم.. جميع الذين بدؤوا يتمثلون الموت على حقيقته، وما يزال لديهم كثير من فرص الحياة. كل لحظة يمكن أن يسقطوا، كما تسقط الثمرة الجافة، أصبحت من دون نفع. هذا ما خطر للدكتور توفيق في الواقع، إن الإنسان المشرف على الموت. القريب من الموت، الذي يتوقع النهاية بين ليلة وأخرى.. هذا الإنسان المسكين، لا يُشبّه إلا بالنبات، لأن الحيوانات لا تستسلم للطبيعة على هذا النحو الغادر. إنها تقاوم حتى اللحظة الأخيرة، ولا تموت إلا قتلاً، مثال ذلك السمكة الفضية أو الزرقاء التي رآها في اللاذقية يوم مات أخوه. تلقى من دمشق هاتفاً عاجلاً ينبئه بالفاجعة: «الشيخ محروس في خطر.. في النزع الأخير».. وكان توفيق في مطعم أنيق على شاطئ البحر، من تقاليده أن يخرج الأسماك حية من الماء، ثم يطهوها من أجل رواد سكارى... حين تلقى الدكتور توفيق هذا النبأ المشئوم، كانت السمكة التي اختارها ما تزال تتحرك في راحة الصياد، وتقاوم، أما أخوه فقد همد إلى الأبد.

وما من احد يستطيع أن يفهم هذا الهمود مثلما يفهمه الطبيب: كائن بشري مثقل بذكريات الماضي، غارق في أحلام المستقبل، يصبح لا شيء.. جيفة بشرية صماء يجب أن تدفن، أو تحرق، لئلا تنشر الوباء. لم يذكروا أن أخاه قد مات، ولكن الصيغة اللفظية للنبأ، حملت إليه يقيناً أشد قسوة وشراسة: الشيخ محروس قد تحول إلى رميم من العظام – كان يردد الرجل نفسه – .

والغريب أنه دفن أخاه في شيء من عدم الاكتراث. بل هذا هو المتوقع. لم يتوجه باللوم إلى أحد، مادام انتهى كل شيء. بل كانت خواطره جميعاً تمعن في تأنيب الشيخ محروس نفسه، لأنه لم يستطع أن يقاوم غدر الموت. «ما زال الجميع يعيشون، يتنفسون ويتحركون ويرفضون الصمت، سواك يا شيخ محروس، إلى هذا الحد كنت الضعيف الغبي بين الجميع؟».

من هذا الإحساس الصغير بدأ الإدمان يعود من جديد، إلى عادات توفيق. كان قد استطاع أن يردع نفسه في هذه الناحية طوال أعوام، غير أنه الآن، شعر منذ البداية، بأنه لن يستطيع شيئاً أمام هذا السبب الجديد القاهر. بل كان هناك سبب آخر له صلة بغدر الموت أيضاً. كان توفيق قد أصبح يعاني المزيد من الارتباك العضوي عند كل يقظة. قد يكون التعبير غامضاً، ولكن جميع الكهول يفهمونه أيضاً في وضوح: أن تفتح عينيك لنور الصباح وأنت مثقل بهموم الجسد. في بادئ الأمر تظن أنها المعدة التي

أرهقها طعام الأمس، ثم تذكر أنك تعمدت إعفاء العضوية في المساء من هذه المهمة، (وقلما كان توفيق يتناول الحد الأدنى من الغذاء مع الشراب). فتتوهم أن القلب هو السبب، العضو الذي يفهمه الأطباء كما ينبغي حتى الآن. ومن ثم فقد رأى أنه المسؤول الغامض عن جميع الميتات السافلة..

«من القلب!.. نعم. إنه المقتل. لقد أودى بأخي الأكبر قبل الأوان، كان الشيخ محروس يعد نفسه للثمانين... لكنه كان يعيش بقلبه في كل شيء. كان مؤمناً بقلبه، محباً للناس جميعاً بهذا القلب الكبير، فلماذا خذله قلبه على هذا النحو الجبان؟.».

هذا ما يقوله الدكتور توفيق في ساعات غيظه على الموت، وكثيراً ما كان ينفعل، والكأس في يده، وهو يحس أنه الناطق الرسمي باسم جميع الذين في مثل سنه على الأقل، فلا بد من أن يكونوا قد عرفوا جميعاً فواجع مماثلة: حوادث موت غير متوقعة لهم، أو للذين يحبون.. عند هذه الفكرة قفزت خواطر الدكتور توفيق إلى فكرة حاسمة، من تاريخ هيجانه الخمرية..: إنه قد ورث شيئاً من ضعف السلالة «الجابرية» في إحدى عضلات القلب أو العضو كله. وجعل يستعيد ماضي السلالة كلها في هذا المجال. ومع أن الواقع التاريخي قد جابهه، بكل ما كان ينبغي أن يعصم تصوراته، عن الاستمرار في المخاوف، فقد بقي على يقينه الأول في هذه المسألة. هناك شيء خفي غامض، كامن في الأعماق البعيدة، يجعله الضحية المسكينة، مهما يحاول من المقاومة العنيدة. إذن فهو غير مسؤول. ربما كانت هذه هي القناعة الداخلية، التي كان يريد أن يطمئن إليها في النهاية، لا لكي يسوغ لنفسه مثل هذا الاستهتار بالجسد، وقد بلغ بالإدمان حد الخطر، بل لكي يتحرر على الأقل من حس الكهولة المظلم.

لقد استطاع أن يتتبع المصير الجسدي لتسعة أجداد، ومن تفرع عنهم من الأجيال المتعاقبة، فلم يجد بين الجميع واحداً مات قبل الأوان.

حتى النسوة، والمقدر أن متاعب الولادة والمنزل وآلام التضحية، تقصّر لهن الأجل، بقين من الأحياء، حتى آخر رمق من أعوام الشيخوخة الموغلة. بل إن إحداهن، وهي أم جده لأبيه بلغت العشرين بعد المائة، وقيل إن أسنانها نبتت من جديد، وأن ظهرها لم يتقوس عند المشي، إلا قبل موتها بعام وعدة أشهر، وأهم من هذا كله، أنها أصبحت في سنواتها الأخيرة أميل إلى الدعابة والمزاح، وكانت تضحك مثلاً – كما يروون – على الدجاج، لأنه لا يستطيع الطيران مع أن له أجنحة، والرجال الذين يتراخون جنسياً، مع احتفاظهم بالجهاز الكامل، كما تدعو عضو التناسل. ظاهرة واحدة في حياة السلالة كلها شذّت عن العرف – إلى جانب ظاهرة الشيخ محروس بالطبع – هي أن إحداهن – والغالب أنها عمة أبيه – ماتت في السادسة والخمسين، إثر مرض عقلي أفقد الأعصاب متانتها، على ما يبدو. ولكنها كانت عاقراً. وكان معظم الآباء والأبناء يسقطونها من شجرة العائلة، لكل هذه الأسباب: الجنون وعدم الإنجاب، والموت المبكر، بالإضافة إلى أنها امرأة أيضاً.

«إذن نحن في انحدار!..» هذه هي الحقيقة الأخيرة التي بقيت للدكتور توفيق، ذريعة معقولة لأن يشعر نفسه بالخوف، وأن يردع الخوف والانحدار معاً بنشوة الخمر... ولكن أية نشوة؟ وأي تمرد على عبث الزمن بسنوات العمر الضائع؟..

لم تمضِ أيام حتى بدأ توفيق يشعر بأن جميع أفكاره أصبحت في منحى جديد، يغاير كل ما ألفه من المشاعر.. بل خُيّل إليه أن عقلاً آخر قد تكّون في بنيته الذهنية، يحرضه يوماً بعد يوم على التنكر لكل آرائه القديمة، ووجهات نظره في الأشياء والناس. وأول ما لمسه من ذلك أن ليلى قد ألغيت من عالمه الداخلي على نحو عدائي حاسم. ومع أنها كانت قد أصبحت أماً منذ سنوات، وهي الآن في سبيل العودة إلى الأمومة من جديد – كانت حاملاً في الشهر الخامس – مع هذا فقد أصبح توفيق في حلٍّ، حتى من التفكير بأنها امرأة مثل جميع الأخريات. وكم بدا له هذا الإلغاء أمراً طبيعياً، رغم أنه بقيَ على حبه لها، واستمتاعه بحضورها الجميل بين جدران المنزل، كان الطفل قد صرفها عن كثير من مشكلات اليوم العائلية...

* * *

من روايـــــــة الحـــــــادثـــــــة

(لـــــم ينـــشر من قبـــــل)

المـــاضـــي

1- المرتــزقة

بدأ توفيق حياته الواعية، صبياً جشعاً يحلم بأن يمتلك كل شيء.. من الأشياء التافهة التي يحرص عليها الصغار – وهم أخوته ووالدته – إلى جميع مقتنيات الآخرين، إلى نقود أبيه. ولكنه في البدء كان أجبن من أن يحقق أحلامه الجامحة، فاستنجد بعاطفة العداء والكراهية. لقد كانت روحه الجائعة – على الرغم من فتوتها – خالية من كل نزعات البراءة والحب. وما دام قد برر لنفسه الإيمان المطلق بأن كل ما يملكه الآخرون، يمكن أن يعتبر حقاً طبيعياً له، فإنه كان يشعر أبداً بعدم الاكتفاء، ومن ثم كانت عاطفة العداء تنمو في نفسه يوماً بعد يوم. بل كانت تتحول أحياناً إلى نزوة الإجرام.

فحين كان يعجز عن اقتناص ما يريد، كان يرى بأنه من العدل أن يموت جميع الذين يملكون، كما لو أنهم كانوا في نظره لصوصاً غاصبين. ففي زمن الدراسة سرق الأقلام والدفاتر، وعمد إلى الغش في الامتحانات، وحين بدأ يراهق امتدت به أنامل الخيال إلى كل محرم، أي إلى ما ليس له، وعندما أنهى دراسته الثانوية، انساق وراء المألوف من أساليب الكسب في شتى صوره..

والغالب أنه كان يائساً من عدالة الحياة، ومن ثم فقد لازمته رغبة عاصفة في الاستباحة، أو بتعبير آخر أن يكون الكسب شيئاً يشبه الثأر من الآخرين. والغريب أنه لم يكن في نشأة توفيق ما يبرر له هذا السلوك؛ فهو لم يعرف هوان الفقر على الصورة التي يعانيها الجائعون من عباد الله، وهي من تعابير أخيه الأكبر الشيخ محروس، كما أن الروح الدينية التي تهيمن على أسرته وبيئته منذ أجيال، قد زودته منذ الصغر بآلاف الوصايا البليغة عن حكمة التقشف والزهد، وقذارة المال الحرام، وعن سلاسل الجمر التي تطوق أعناق الجشعين إلى الأبد. وقد تشبع توفيق بهذه الوصايا، حتى التخمة المعنوية – إذا صح التعبير – ولكنه – على ما يظهر – أصرَّ بينه وبين نفسه، على الاعتقاد بأن الحرمان هو شر الآثام. لقد بقي يراقب جميع عمليات الارتزاق – غير المشروعة – في اهتمام ماكر، وساعده على ذلك أن وعيه قد امتد في وقت مبكر، إلى الحوادث المثيرة في هذا المجال. وكانت منطقة الصالحية بؤرة خصبة لهذه الحوادث، التي تعرف بها كل بيئة مماثلة، تتعرض للرقابة الجماعية. والمعروف أن الرقابة تنشأ عن التباين والاختلاف، لأن غايتها هي الإدانة أو الإعجاب، وفيها يكون الآخر غريماً لابد من مجابهته، وهو ما توصف به رقابة الطبقة للطبقة الأخرى، ولا ريب أن توفيق كان على جانب من الذكاء الخبيث – كما وصفه الشيخ محروس مراراً – لأنه نظر إلى الأمور من هذه الزاوية.. ومن المحتمل أن مشاهداته الأولى قد نبهته قبل الأوان. من ذلك مثلاً أنه رأى صبياً في مثل سنه يتسول بيد مكسورة – لم يكن في الأمر خدعة كما يتصور بعض السادة الذين يسيئون الظن بالشحاذين – بل كانت يد الصبي

عاجزة عن الحركة بالفعل، من المرفق حتى رؤوس الأصابع.. كانت أشبه بعصا صغيرة ملفوفة بكم القميص، ومدّلاة من الذراع. ولأمر ما، حرص توفيق على التقصي، فعلم أن والد الصبي قد عمد إلى كسرها ذات يوم، لكي يتاح للصغير أن يستدر الشفقة، فاليد السليمة لا تلفت النظر. والظاهر أن توفيق قد تتبع جميع الحوادث المماثلة فيما بعد. وتساءل طويلاً كم يكون تشويه الجسد سهلاً في حياة الجائعين، من أجل الاستمرار في العيش؛ وربما استقر لديه أن هذا ليس إلا نوعاً من التضحية، تشبه تضحية المجتمع بالنخبة من أبنائه، دفاعاً عن الآخرين. ألا يحدث هذا في الحرب حيث يموت الشبان الأقوياء، في سبيل الضعاف المساكين!..

لولا أن توفيق كان عديم الإيمان بالجدارة الإنسانية، لما غامره مثل هذا الشعور؛ ذلك ما كان يحسه الشيخ محروس حين يستعرض هذه الناحية من ماضي أخيه. إن من أروع آيات البطولة والوفاء، أن يموت جندي شجاع من أجل الأطفال والشيوخ. أولئك هم المستقبل، الذي يحمل المصير البشري كله، وهؤلاء
– أي الشيوخ – قد أعطوا كل ما يستطيعون، ومن النذالة أن يُتركوا للهوان والعذاب في السنوات الأخيرة من العمر!..

والحقيقة أن مسألة التشويه الآنفة الذكر، قد تغلغلت في وعي توفيق خلال الأعوام التالية، وأتاحت له أن يرسم لنفسه جميع الخطط المعقولة، من أجل الارتزاق، ولا سيما أنه اكتشف في وقت مبكر أيضاً، أن في حياة الإنسان، رصيداً ضخماً من الأشياء، التي يمكن أن تُشوَّه، دون أن تقترن بالعطب الجسدي.

إذ ذاك كان يتابع دراسة الطب في الجامعة. والمعروف أن هذه الدراسة لا تفسح مجالاً للأعمال الأخرى. ولكن توفيق استطاع – لفرط حيويته – أن يمارس معها عملين في آن واحد: الوظيفة الحكومية والصحافة، وهما من البدايات الموفقة لجميع المثقفين، ذوي المستقبل اللامع. ففي صدد الوظيفة قال مرة لأخيه:

– هكذا يبدأ المواطن بانتزاع حقوقه من الدولة. إنها ملزمة بدفع الراتب كل شهر، هذا هو الواجب. ولكن كثيراً من الحمقى يرون الواجب عليهم، يحملونه على أكتافهم في مسؤولية وجد. أية مشقة! وأي غباء، أن تدفع ثمناً للأشياء المجانية!.

بهذا كان توفيق موظفاً من دون عمل يذكر. فكان لديه فراغ كبير من أجل الصحافة. وعلى الرغم من أنها مهنة حقيقية تقتضي الجهد المتواصل، فقد كانت عند توفيق أكثر «مجانيةً» من الوظيفة ذاتها؛ لا لأنها من المهن «الحرة» فحسب – والحرية عند المرتزقة تعني الاستباحة – بل لأن الظروف السياسية كانت مواتية. والصحافة – كما هو معروف – هي أكثر الأعمال ارتباطاً بالسياسة.

كان هذا في السنوات الأولى للحكم الوطني، وقد بدأ السياسيون يمارسونه بعد إعلان الاستقلال في بداية الحرب، مع أن قوات الاحتلال كانت ما تزال في البلاد، ولكنها قوات فرنسا الحرة والحلفاء، وكانت سفارات الدول التي تعنيها شؤون البلاد لسبب أو آخر، ما تزال ترعى الكثير من رجال الصحافة المرموقين. ومن هؤلاء كان المعلم الأول لتوفيق. كهل أشيب الشعر، وقور الملامح، في نظراته الهادئة ما يدل على سعة الإطلاع، والحرص على تقصي الحقائق. غير أنه – على الرغم من نجاحه المطرد وإيمانه برسالة الصحافة – كان كسولاً إلى حد العطالة. حتى ليبدو أحياناً، وكأن الصحافة لم تكن لديه أكثر من هواية. صحيح أنه كان يكتب المقال الافتتاحي كل يوم، باعتباره صاحب الجريدة المسؤول، ولكن هذا العمل كان جزءاً ضئيلاً من العادات اليومية، التي كانت تستغرق اليوم كله، ومنها التدخين وشرب الشاي حسب التقاليد المرعية، وسهرات الليل الموغلة في الصفاء، وأهم من هذا كله، إدمانه العجيب على الحديث في الهاتف. فلم يحدث مرة أن امتد الفاصل الزمني بين مكالمة وأخرى أكثر من نصف ساعة، وإلاّ شعر الرجل بالضيق والتذمر.

وهذا ما لاحظه توفيق منذ الأيام الأولى. ولاحظ أيضاً أن صاحب الجريدة كان مولعاً بالأسرار إلى حد الجنون. ولكن أية أسرار!.. كل التفاصيل المريبة عن رجال السياسة ومشاهير المجتمع، ولا سيما ما يتعلق منها بالحياة الخاصة، وبتعبير آخر، جميع الفضائح التي لا يمكن أن تنشر في صحيفته، خوفاً من العواقب. والغريب أنه كان يعترف دائماً بأن هذه الهواية لديه، تهدف إلى تجنب نشر الحقائق. كان يريد أن يعرف التفاصيل لكي يعرف كيف يستطيع أن يخفيها عن جماهير القراء. ومن هذه الناحية وضع توفيق قدمه لأول مرة، في عالم الارتزاق – إذا صح التعبير – ولا ريب أنه كانت هناك خطوات تمهيدية، كاحتلال مكان في الجريدة من أجل صورته، واختلاس أفكار الآخرين، ونشرها بتوقيعه، وانتحال العقائد السياسية على نحو أو آخر. والواضح أن هذا يعني الاحتماء بشعارات الأحزاب المختلفة، والشعار في نظر توفيق هو أشبه بالمظلة، التي تؤخذ من صاحبها في ليلة ممطرة، وما أكثر الذين يهملون مظلاتهم، لأنهم لا يريدون مغادرة المنزل الدافئ. وبرع توفيق بصورة خاصة في سرقة الأشياء المعنوية، المتعلقة بالأخلاق، كطيبة القلب، ونبالة المظهر والإخلاص والوفاء للوطن وللأصدقاء. فكان يلبس لكل حالة لبوسها – كما تقول العبارة القديمة – وكان يعرف جانب الادعاء في هذا السلوك، ولكنه كان مطمئن الروح، لمجرد إيمانه بأنه لا يفعل إلا ما ينبغي، أي يعيش حقيقته، وبتعبير أكثر وضوحاً ينطلق من موقعه الطبيعي. كان جميع الآخرين في نظره – الذين يملكون والذين لا يملكون – خصوماً حقيقيين، في حرب أبدية، ولابد من ملاقاتهم في الميدان المناسب.. الذين يملكون لأنهم غاصبون بالفعل، والذين لا يملكون، لأنهم لابد من أن يكونوا مثل توفيق، أي إنهم ينازعونه مغامرة الارتزاق...

بهذه الروح قدر له أن يكسب المعركة الأولى، بعد حقبة طويلة من التمهيدات المذكورة.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

في أحد الشهور تجمعت لديه معلومات ضافية عن زراعة الحشيش، في إحدى مناطق البلاد؛ وتُوِّجت هذه المعلومات برسالة عنيفة، كتبها أحد الشبان «الأخلاقيين» في تلك المنطقة، يفضح فيها وجيهاً متنفذاً كان يتولى – بما له من معرفة ونفوذ – إرشاد الفلاحين إلى التدابير الخفية، التي تتخذ عادة في إنجاز مثل هذه المغامرة الذهبية. من ذلك أنه كان يعطي الفلاحين بذور المخدر المشهور باعتبارها نوعاً فاخراً من التبغ، ومنعاً للشبهة، كان يعلمهم أنها تؤكل مقلية إذا شاؤوا؛ وكانت طيبة المذاق – على ما جاء في اعترافات أحدهم – فكانوا يستهلكونها بكثرة في ليالي الشتاء. غير أن الوجيه المذكور كان حريصاً على تزويدهم بأوقات الزرع والقطاف، وطريقة السقي والعناية. وكانوا ينقلون الحصاد، في أماكن مستورة من صفائح الزيت، وجرار العسل أو أكياس الزبيب والتين اليابس، كل ذلك وفق الإرشادات الدقيقة. وكان بعضهم – ولا سيما الشبان المغامرون – يجدون متعة في عملية التهريب هذه، حتى أنهم كانوا يرفضون الاعتراف بمصدرها التاريخي في قريتهم، ويتحملون شهور السجن في شجاعة نادرة. ولماذا لا يفعلون؟ إنهم أولاً من الريف، حيث العنجهية التي تلحق العار، بكل متخاذل جبان. وهم ثانياً لا يعملون شيئاً معظم شهور العام، فلتكن فترات السجن، امتداداً لشهور البطالة؛ وهم ثالثاً أبرياء لا يعرفون ما يفعلون، والوجدان الطيب يعصم دائماً عن إلحاق الأذى بالآخرين... هذه بعض المبررات التي يمكن أن تذكر...

هكذا كان صاحب الكلمة والفعل في منجاة من كل عقاب. ولنفترض أن أحدهم وشى به – وهو ما يحدث في الظروف النادرة – كما جاء في الرسالة، فإن السمعة الحسنة، وعشرات الألوف من الليرات التي يحملها «الذهب الأخضر» تستطيع أن تسوي جميع الأمور.

درس توفيق هذه القضية في إمعان وروية، وعمد إلى كتابة تحقيق صحفي صغير، معتمداً على المعلومات الواردة، وتلك هي العادة في مثل هذه الأمور. ولكن المعلم أشار عليه بالتريث؛ على الرغم من أنهما اتفقا على إغفال اسم «الوجيه» صاحب العلاقة. وتريث توفيق، غير أن الموضوع احتل تفكيره كله خلال عدة أيام؛ ولا يعرف أحد – حتى هو نفسه – كيف سافر ذات يوم إلى القرية المذكورة في الرسالة، وعاد يحمل كتاب الاستقالة من الجريدة. ولم تبد عليه بوادر التحسن من الوجهة المادية، إلا أن ملامح وجهه أصبحت أكثر تفاؤلاً وبشاشة؛ وثقة بالنفس. وهي صفات تميّز الذين يكتشفون مواهبهم، ويحسنون استغلالها في الوقت المناسب.

ولم يتخل توفيق عن الصحافة، بعد أن أثبتت له التجربة أنها أسهل طرائق الكسب، لا لأنها عمل فكري يتفق والكسل فحسب، بل لأنها يمكن أن توضع في خدمة الجميع. وأصبح مخبراً صحفياً لدى جميع الجرائد على الإطلاق. وعلى الرغم من حرصه على تزويد القراء، بالأنباء المحلية المثيرة، فإنه كان أشد حرصاً على اكتشاف البذور الخصبة في أعماق التربة الاجتماعية؛ أي الضمائر الحية التي ما تزال تهتم بالسمعة الحسنة، وتبذل من أجلها المال في سخاء. ولا يعني ذلك أنه كان يتاجر بالأعراض – كما يقولون – كأن يهدد بنشر فضيحة عن شخصية مرموقة، أو بالتهجم على سياسي مزعزع المكانة.

لقد كان بعيداً عن هذه الروح السلبية، التي تنطوي على جرأة غير مأمونة العواقب؛ ومن ثم فقد اكتفى باستغلال جوانب القوة في الطبيعة البشرية. فجنّد قلمه للإشهار لا للتشهير؛ وكان رخيص الثمن على ما يظهر، فكثيراً ما كان يقنع بسهرة ممتعة، أو وجبة غداء في مطعم فاخر، أو مجرد عطف خاص من إحدى الشخصيات، لكي يبتكر الأشكال البارعة في الثناء غير المباشر، وهو ما يطلق عليه اسم الدعاية «المبطنة». ويوماً بعد يوم، كان يكتشف أن هناك ينابيع رئيسية لابد من الوصول إليها في وقت ما. والينبوع – في لغة «المرتزقة» – هو كل مصدر غامض غير محدود، للحصول على المال مجاناً. وها هنا لابد من العودة إلى النقطة التي بدأ منها توفيق، أعني إيمانه بحقه المشروع في كل ما يملك الآخرون، وحرضه النجاح على أن يوسع دائرة هؤلاء الآخرين، فلم يعودوا من أبناء وطنه فحسب، بل أصبحوا يشملون رعايا البلاد الأخرى، وبذلك يكون الارتزاق «إنسانياً»، غير أن توفيق كان يرى نفسه دائماً، في ركاب أحدهم، وهذا هو التناقض العجيب: أن يعبر عملياً عن نزعة التملك بتقديم نفسه أداة يملكها الآخرون. ولكنه أمر ضروري على ما يظهر، فلكي تستطيع الاستخدام لابد من أن تفهم فن الخدمة فهماً حياً، أن تحياه بكل تفاصيله؛ وكيف تستطيع استعمال آلة دون أن تعرف تركيبها؟ وقد اكتشف توفيق خلال هذه الحقبة أن هناك بنياناً واحداً، لجميع الذين ولدوا من أجل خدمة الآخرين، واستخدامهم أيضاً. وهذا ما حفزه إلى الطموح، الذي أتاح له أن يعرف الثراء، وهو ما يزال على مقاعد الدرس، بل إن الرفاه ساعده أكثر، على التفرغ في إعداد نفسه لمهنته الإنسانية المقبلة.

* * *

2- جـــعفـــــر

حدث يوماً أن أصيب أحد شبان الحي بلوثة في عقله – كما يقولون – فأصبحت تصرفاته النابية مدار الأحاديث. ولما كان من أسرة تقليدية معروفة، فقد تحفظ الجميع في نقل أخباره، والحكم النهائي عليه، رغم «الشهرة المحزنة» التي نالها في الشارع، خلال مدة قصيرة. ظهرت عليه أولاً نزعة الشجار العنيف في أوقات دورية من ساعات النهار. ومن حسن حظه أنه لم يكن يعيّن الخصم؛ وإلا كان هناك من يردعه. بل كان يبدو وكأنه يوجه الشتائم إلى عدو مجهول؛ ومن ثم فلم يكترث به المارة في بادئ الأمر؛ غير أنه ما لبث أن أصبح مؤذياً، فاستهوته عادة الجري على الرصيف في ساعة الغروب، من كل يوم. وقلما كان يتوقف، إلا إذا اصطدم بأحد، وعندئذٍ كانت تمتلكه نوبة من الهياج العدائي، فيدفع الناس من حوله في خشونة ويعلو صوته بأعنف عبارات التنديد، ويختار أشقى الحاضرين مظهراً، متسولاً أو بائع يانصيب.. وينهال عليه بالضرب في سرعة خاطفة، ثم يلوذ بالفرار. ولابد أنه لقي مقاومة مؤذية في أحد الأيام، أو أن الشرطة أدبته؛ فكف عن العنف، واستبدله بهواية أقل شغباً هي السرقة، وقد بدأت على نحو صامت، اختلاس الأشياء الصغيرة من الحوانيت، وكان النجاح مشجعاً على ما يظهر، فتحولت إلى اختطاف علني في عرض الشارع. وعندئذٍ تعرض المسكين أيضاً لعملية قمع قاسية – كما هو متوقع – فسلك سبيلاً آخر، أكثر شرعية هو التسول..

كان يقف أمام أي حانوت، وفي كثير من التواضع والذلة، يطلب برتقالة، أو قطعة جبن هولندي، ثم أصبح يستوقف المارة من أجل سيكارة. والغريب أنه لم يطلب النقود في أي يوم. والظاهر أن في التسول أيضاً مرحلة من العنف، بلغها هذا الشاب في نهاية المطاف، فلجأ إلى ادعاء العطب. خرج يوماً في هذه المهمة، وقد أغمض عينيه، وحمل عكازاً يتحسس به الطريق، فكان نموذجاً فذاً للشحاذ الأعمى، وبلغت به «قوة الإرادة» أنه استطاع أن يمثل هذا الدور أسبوعاً أو أكثر. وفي الأيام التالية امتدت العاهة «المصطنعة» إلى ظهره وذراعيه، فأصبح يمشي في انحناءة تبعث الشفقة. ثم أصبح مقعداً بالحيلة ذاتها. وعندئذٍ ثارت العائلة؛ ذلك أنه ذات مساء رفض القيام، وطلب إلى الحارس أن يأتي بمن يحمله إلى المنزل، وقام ذووه بهذه المهمة في غيظ مفعم بالخجل، وحرّموا عليه الخروج بعد ذلك. فلم يجد بداً من الثأر.. واستنجد بالعناد. لم يزعم أنه أصبح كسيحاً بالفعل فحسب، بل صار يشكو أقسى الآلام، في أنين يستدر دموع الرحمة.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

واستدعي طبيب أو اثنان، ولولا الحرص على السمعة، لدارت به الأسرة على جميع أطباء المدينة. ولكن دون جدوى. لقد كان صحيح الجسم – كما هو معروف – بل إن تصميمه على هذا الموقف، ينم عن قوة نفسية، تحير الجميع. وإذ ذاك استنجدت الأم بالدكتور توفيق الجابر، على الرغم من أن الأمر يخرج عن اختصاصه. ولكنه كان على صلة عائلية بالأسرة، لا ترجع إلى الجوار فحسب، بل هناك قرابة بعيدة – وقد تكون مزعومة – تحرص النساء على تتبع خطها المتشابك عند اللزوم، وهو ينتهي في خالة أو عمة مشتركة، طوتها السنوات الغابرة.. وقام الدكتور توفيق بدراسة القضية في اهتمام. راقب المريض عدة أسابيع، وانتهى إلى هذا التقرير الغريب: «حالة عابرة من جنون الاضطهاد سببها الجنس، يجب أن تحل هذه العقدة بأسرع وقت ممكن وبأي ثمن».

ولم يكن في مقدور الأم، واسمها زينب، أن تدرك العلاقة بين الحرمان الجنسي والاضطهاد، ولم تسمع بشيء عن العقد وغيرها، ولكنها وثقت بتحليل الدكتور توفيق – على ما يظهر – لا سيما أنها أفضت إليه – في كثير من التردد والحذر – بكل ما تلاحظه على سلوك ابنها المعذب، من مظاهر مريبة: جمع الصور المثيرة، الاختباء حين تكون في المنزل زيارة نسائية، وما إلى ذلك. وحلت المشكلة بروح واقعية ذكية، فاستجلبت من إحدى العائلات المغمورة، فتاة في ريعان الشباب، واعتبرتها الكنة الجديدة للعائلة، غير أنها – في قرارة نفسها – كانت تعتبرها خادمة لا أكثر. وكان يحزنها أن الظروف قد ألجأتها إلى مثل هذا التدبير المستعجل، في زواج ابنها البكر.

والواضح أن كل شيء قد تم، تحت إشراف الدكتور توفيق. ومن ثم كان عليه أن يحفظ التقاليد المرعية من ناحيتين: أولاً، كتمان السر، حرصاً على سمعة الأسرة المنكوبة، ثانياً الاستمرار في المراقبة، من أجل الغرض الطبي والأخلاقي في آن واحد.

ومرت ثلاثة أسابيع، لم يبتعد فيها الدكتور توفيق يوماً واحداً عن هذه القضية. ولأمر ما كان اهتمامه بها ينمو ويزداد فضولاً، إلى أن وجد نفسه في النهاية، أشبه بالعالم الذي تأسره تجربة هامة، يستعجل فيها النتائج. ويبدو لأول وهلة أن النتيجة الأساسية هي شفاء المريض، ولكن الدكتور توفيق ما لبث أن ألحق به الشخصين الآخرين: الأم والفتاة.. الواحدة تلو الأخرى. وكان له ما يبرر ذلك، فقد انقضى شهر أو أكثر، دون أن يطرأ أي تحسن على سلوك المريض، بل إنه ازداد تشبثاً بعناده، إلى حد الزراية بالجميع. لم يرفض العلاج فحسب، بل اعتبره إهانة جديدة تُوَّجه إليه. والأرجح أنه لم يعتبر نفسه مريضاً، على الرغم من جميع الآلام، التي كان يزعم أنه يعانيها. ذلك أن موقفه من الأم، أصبح مشحوناً بالإتهام والإدانة. كان يحدق فيها بعينين تتأججان بحقد مبهم. وإذا صدق القول بأن الأمهات يعرفن أبناءهن حقاً بفراسة غريزية، فإن ما كانت تقرؤه هذه المرأة المسكينة، في نظرات ابنها، يحمل الشيء الكثير. أحياناً كانت تحس أنه يقول لها: «هل تظنين أنني اغتفر لك هذه الخطيئة.. إنك جئت بي هكذا إلى الدنيا..» ومن المحتمل أن يكون إحساسها هذا، تعبيراً عن رغبتها في التخلص منه، إما حرصاً على تحريره من هذا المصير البائس، وإما بسبب الفضيحة التي جرها على الأسرة. ومنذ القديم كان

الجنون، مثل الفقر أو المرض الساري، عاراً يلوث السمعة.. وفي بعض الأحيان كانت تفسر نظراته على نحو آخر، لا يخلو من اعتبار أخلاقي، كأن تشعر بأنه يقول لها في تصميم: «مهما يكن من أمر، فإنني لن ألمسها ولن اقترب منها (يعني بهية – وهو اسم الفتاة ــ).. لأنه حرام.. كيف يخطر لكم، أيها السفلة، أن كل شيء يباح؟..».

ولا ريب أن الأم كانت فريسة لنوع من الشعور بالذنب، ولكنها تجهل حقيقته في الغالب، أو ترفض الاعتراف به. فهي – ككل أم – لم تستطع أن تتصور أن الابن الذي منحته الحياة، وعلمته كل شيء منذ الطفولة، يمكن أن يكون شاهداً على أخطائها، هذا إذا قدر له أن يعي، أن لها أخطاء على نحو أو آخر، ولا سيما أنه الآن في حالة يرثى لها، من تفكك الشخصية والعجز عن التفكير السليم، ولكنها – من ناحية أخرى – كانت تعتبره جديراً بأن يراقبها ويحكم عليها، كما لو أنها تبيح له أن يعاملها بالمثل على الأقل.

والأرجح أن هذا هو السبب الدفين للأشياء المريبة، التي كانت تتراءى لها في نظراته «الخبيثة» وذات يوم ألحت عليه الآلام «الوهمية» فاضطرت إلى ملازمته كل ساعات النهار. ورأته لأول مرة يفصح عن دخيلة نفسه، أي يرفق النظرات الحادة بالكلمات، قال لها وفي لهجته مزيج من السخرية والحنق:

– هل تظنون أنكم تستطيعون القضاء علي هناك... لا، هذا شيء بعيد... لن أذهب حيث تريدون، ولن أنام معها في الفراش.. لا أريد أن أموت..

وذيّل عباراته بشحنة ثائرة من حرف «لا».. مفعمة بالانتحاب.. ولأول مرة تكتشف الأم، أن المرض يستفحل يوماً بعد يوم،.. ما دام يتوهم أن الفتاة قد جاءت لكي تقتله – وهي آية في الرقة والوداعة – فلابد أن العطب قد امتد إلى أعمق غرائزه. ولكنها وجدت في سلوكه تناقضاً محيراً، ذلك أنه كان يعامل الفتاة في منتهى المودة واللطف؛ وكان يتحدث إليها أحياناً في مرح بريء، وتارة كان يجاملها على المائدة في حنان غريب، كما لو أنه كان يراها هي أيضاً ضحية بريئة، ولكنه لم يفتقدها – إذا غابت – في أي يوم، وبقي يتجنب ملامستها كل حين.

كان على الدكتور توفيق أن يعرف هذا كله، في عملية الإشراف على هذه الحالة المرضية الغريبة، وحين وجد أنها عملية فاشلة في الغالب، وسع دائرة إشرافه، فأصبحت الأم تعنيه على نحو جدي، ولم يخرج في ذلك عن المبادئ الحديثة للطب النفسي. «لابد من تعرية الجذور الدفينة»، ولما كان يجهل كل شيء عن هذا العلم، حتى ذلك الحين، فقد اختلط بحثه بكثير من الفضول العامي، الذي ورثه عن البيئة، والصفة «العامية» – كما هو واضح – تعني معرفة الأشياء التي لا لزوم لها، أو بتعبير آخر، تعني اصطياد الجوانب الفاضحة في حياة الآخرين.

وهكذا سوغ لنفسه استجواب المرأة المسكينة دون تحفظ، وعلى الرغم من أنها قاومت كثيراً، وعمدت إلى التخفي الغريزي الذي يعرف به كل إنسان في مثل هذه البيئة، فقد أتيح للدكتور توفيق أن يعرف منها أشياء كثيرة، أضاف إليها نتائج تقصياته الخاصة، أي ما جمعه من المعلومات هنا وهناك، أو بتعبير أكثر وضوحاً، من هذه أو تلك من نساء المدينة الحريصات على تقصي الحقائق حتى النهاية، منها أنها لم تكن تحب زوجها على الإطلاق، لأنه كان رجلاً تافهاً بارد المشاعر – على حد قولها – وقد تزوجها قسراً بعد موت زوجته الأولى، والقسر يعني أنها بيعت إليه، دون أن يؤخذ رأيها، ومع أنها جريرة ذويها – كما هو واضح – فإنها اعتبرت أن الزوج هو المسؤول. والغالب أنها رأته غريباً عنها من البداية إلى النهاية، أي إلى يوم وفاته.. بل إنها ازدادت نفوراً منه، حتى بعد الموت. لأن ذكراه كانت فقيرة باهتة، إلى حد يثير الحنق والغيظ. والواقع أنها لم تحفظ من هذه الذكرى إلا برنامجه اليومي.. كان يستيقظ صباحاً وهو مضطرب المزاج، بسبب تلبك مزمن في وظائف الهضم؛ فيشرب قهوة الصباح في شيء من الإعياء، ثم ما يلبث أن يستعيد حيويته، حين يتناول طعام الإفطار، ثم يذهب إلى عمله، فيقضي ست ساعات كاملة، في انتظار الغداء والقيلولة، التي تمتد في الغالب حتى المساء.. ثم يخرج من جديد، فيغيب ثلاث ساعات على الأكثر، لم تكن في حسابه إلا مرحلة انتظار للعشاء. والعشاء هو وجبته الرئيسية، وكثيراً ما يأخذ الجانب الأكبر من السهرة، التي تُتوَّج دائماً بالحلوى والشاي.. ثم ينهض إلى فراشه، وهو في غاية البهجة والاطمئنان.. وفي معظم الليالي كانت تضطر إلى اللحاق به، في مثل هذا الوقت المبكر، من أجل الواجبات الزوجية، فيؤديها في برودة عجيبة مما يدفعها إلى استعجاله، لكي يتاح لها الاستمتاع بدفء المنزل، إذا كان الوقت شتاء – كانت حساسيتها بالبرد مرهفة إلى حد المرض – أما في الصيف فكانت تقضي ساعات منتصف الليل، في الشرفة الصغيرة تفكر بأشياء غامضة، أو تتأمل النجوم. وحين جاء الأطفال أصبحوا يحتلون خواطرها في شيء من العذوبة، يبرر لها الإقامة في هذا المنزل... والغريب أنهما لم يعرفا الشجار العائلي في أي يوم، وأنجبا صبيين وبنتاً، في هدوء وأناة، مثلما تنبت الأعشاب أو يثمر الشجر... وعلى الرغم من أن التغذية الجيدة هي أعرق التقاليد في المنزل، فقد مات الصبي الأصغر في سن مبكرة، بعد عامين من الشحوب والهزال لا تفسير لهما إلا سوء التغذية.

وحمل الآخران اسمين متشابهين، هما جعفر وجوهر.. وواضح أن جوهر هو اسم البنت، وقد أحدث التباساً في بادئ الأمر، مما اضطر الأم إلى تأنيثه فأصبح جوهرة. والواقع أن هذه التسمية تكشف عن شيء عميق في مزاج الأب الغامض؛ فهو الذي اختار الاسمين، إرضاء لعاطفة حب الذات لديه، فاختار حرف الجيم الذي يبدأ به اسمه أيضاً، وهو «جلال»، كما لو أنه كان يريد أن يفتتح بشخصه سلالة جديدة، وكان يقول إنه سوف يحتفظ بهذا الحرف لجميع بنيه، ولو بلغوا التسعة (لم يكن في نيته أن يزيد). أما الجانب الأكثر دلالة على «ذاتيته» – إذا صح التعبير – فهو إيقاع الاسمين، وهو الذي يحمله اسم أمه: عنبر؛ وقد كان هذا الاسم، على غرابته في الحي، من أقدم الإثارات العاطفية في حياة

الرجل... كان يغلّفه بالقداسة في جميع المناسبات. والمعروف أن أمه ماتت بسببه، لقد غادرت العالم بعد ولادة جلال بساعات. ومن ثم بقيت في وجدانه، رمزاً حافلاً بكل المعاني الحية، رمزاً ينطوي على الأمومة والتضحية والشعور بالذنب أيضاً، وكيف أن المأساة والعظمة تتنازعان المصير البشري... إلى ما هنالك... وواضح أنه يعني بالعظمة، أن الحياة قد أتاحت له سبيل الوجود في الوقت المناسب.

أما المأساة فهي اندثار الكائن الذي منحه هذا الوجود. وهذا كله يشير إلى أن الأب ينبغي أن يحب طفليه حتى العبادة – وهذا هو الصحيح – لأنه لم يكن يراهما شيئاً منه فحسب، بل كانا إياه على حد إيمانه الراسخ، الذي كان يصوّر له أحياناً، أنه بهما ثالوث الحياة المقدس. ومن المحزن أن هذا الحب كان مثاراً لحنق زينب. فإذا كان جمود الرجل، وحياده العاطفي قد أثارا حفيظتها في السنوات الأولى، وبسطا حولها جواً مزعجاً من الصمت العقيم، فإن لهفة الأبوة الآن – وكان جلال حريصاً على إعلانها حتى دون مناسبة – كانت تعزل المرأة عن كل مباهج العالم، وليس هذا شعورها الدفين فحسب، بل إن الحب الجامح بين الثلاثة – وكان متبادلاً إلى حد عجيب – أصبح مع الزمن عبئاً ثقيلاً على نفسها، بل على وجودها في هذا المنزل، وليس هناك أسباب واضحة، إلا إذا اعتبر التواضع والاعتدال في الحياة العاطفية، من مظاهر الانكسار والتخاذل، أمام عنفوان القلب البشري، تماماً كما يحدث في معركة الحياة، الذين يتحركون في بطء يندحرون أمام الأشداء الذين يحسنون الانقضاض. لقد كان زوجها في عاطفته الأبوية، أشبه بالنسر الذي ينقض في عنف وكبرياء، في حين كان الحنان الهادئ، كل ما يطبع أمومتها الصادقة.. الحنان الحصيف كالساقية، التي تروي الحقل في سكون، وتضيع أحياناً بين الأعشاب الندية.

ويوماً بعد يوم أصبحت زينب تعاني هذا الإحساس الغريب. وعلى الرغم من أنها كانت نموذجاً للأم الرؤوم – كما يقال – والزوجة الطيبة القلب، فقد كان يعذبها أنها تبذل كل شيء، دون أن تكون جديرة بالاندماج في هذا الحب العائلي. وما من بصيرة تستطيع أن تمتد إلى الينابيع البعيدة، في هذا الإحساس المثير، الذي كان ينمو نمواً خارقاً على ما يظهر، حتى أنه امتلك كل مشاعر المرأة وأصبح وسواسها اليومي.

ومع تعاقب السنوات، تبلورت في قرارة نفسها، هذه الحقيقة الصعبة: أن زوجها هو السيد وأنها ملحقة به، والطفلان من توابعه أيضاً. حتى المنزل بجدرانه ونوافذه وأثاثه، وكل ما يتحرك فيه من الكائنات، هو ملك له وحده يتصرف به كما يشاء... وهي نفسها «شيء» من هذه الممتلكات، لا لأنه «اشتراها» فحسب – فقد تزوجا على الطريقة القديمة – بل لأنه استخدمها أيضاً في إنجاب الأولاد.

وحين كبرت جوهرة وأصبحت في سن الزواج، أُلقيت أضواء جديدة على هذا الصراع الدفين، في أعماق زينب، وإذا كانت تشعر في البدء أنها ضحية مهانة، أمام ثلاثة خصوم أشداء، يتقاسمون دونها الحب كله، والحياة البهيجة والتراث العائلي – وهذا هو شعورها كما رأينا – فإنها الآن تجد سبيلاً

للمقاومة. لقد أصبحت جوهرة، امرأة مثلها – مثل زينب – تستطيع أن تشاركها بعض المشاعر المتعلقة بالجنس الآخر. لقد كانت تستنجد بها في الشؤون النسائية الخاصة، منذ أيام المراهقة، وكانت بينهما أسرار كثيرة عن القضايا الجسدية، وكان يخيّل لزينب، أنها بدأت تستعيد ابنتها على الأقل، مع أنها في الحقيقة كانت تأمل بأن تفتح ثغرة في هذا الجدار الأصم، الذي يسوّر عالم «الثلاثة»، ثغرة تدخل منها إليهم في بعض الأحيان، وتزيح عن نفسها مرة واحدة فقط، عذاب الشعور بأنها مرفوضة، وينبغي أن تبقى خارجاً.

واعتمدت في مقاومتها الجديدة على أسلوب ناعم، خفي. فبدأت «تطعّم» عقلية جوهرة، بما ينبغي أن يكون عليه زوجها المقبل، ولكنها – دون أن تشعر – كانت تتصور لها رجلاً، يناقض أباها في كل شيء. وها هنا مجال لمعرفة المزيد عن طباع هذا الأب، والواقع أنه ما من إنسان يمكن أن يعرف شيئاً عن الآخر، إلا إذا كان في صراع معه؛ حتى الحيوان يخضع لهذه القاعدة؛ فالفأر مثلاً يعرف بالغريزة عن طباع القط، أكثر مما يعرفه جميع علماء الحياة. ولكن الفأر لا يستطيع التعبير إلا بالسلوك؛ إنه «يفهم» الخطر في حينه ويلوذ بالفرار، أو يكون على شيء من الغباء فيهلك.. أما الإنسان – وهو هنا زينب – فإنه يراوغ، لأنه يستطيع أن يتخيل ويفكر، قالت لابنتها ذات يوم في وصف الرجل، الذي يمكن أن تحتمله المرأة، وتعتبره زوجاً مناسباً، وتحترمه، وتقبل الحياة معه.. الخ، وكل هذه الأشياء، تلخص اليوم بعبارة واحدة، كان آباؤها يخجلون من ذكرها هي: «أن تحبه»، قالت لابنتها:

– كلهم سواء يا جوهرة.. جنس عجيب لا يفهم إلا نفسه... ولكن طيبة القلب تتوفر لدى الكثيرين... ومنهم أبوك ولله الحمد،.. انظري كيف تعرفين الرجل الطيب من ملامح وجهه، ونظرات عينيه... لابد من أن يكون وسيماً، ناعماً بعض الشيء؛ وتكون عيناه بلون نقي.. أسود أو عسلي أو أزرق، المهم أن يكون لوناً صافياً، إن ذوي العيون المتعكرة – الرمادية مثلاً أو الشهلاء، قلما يكونون كما ينبغي. (كانت عينا الأب بلون الغيوم الممطرة في الشتاء).. ولابد من أن يكون على شيء من اتساق الأعضاء، واعتدال القامة.. المهم في الأعضاء هو الأنف والشفتان. الأنف الكبير يدل على المكر، إلا إذا كان أقنى في وجه عريض، عندئذٍ يكون صاحبه بسيطاً ولكنه سريع الانفعال.. والأنف الصغير «جداً»، يحمل العناد، وهو شر طباع الرجل.. وكذلك الشفتان الرقيقتان؛ إنهما تحملان الرغبة في الاستباحة، وإن كانتا في الظاهر تنمان عن الإرادة القوية.. أتعرفين ما هي الإرادة القوية في الرجال؟.. إنها الموت يا ابنتي.. الموت الحق. تصوري أنك أداة مثل فنجان القهوة أو عود الكبريت، هكذا يفعلون. يشتغلون ويفكرون ويرتدون البدلة الأنيقة، والربطة التي تلفت النظر، أي تثير الإعجاب بسبب ثمنها الغالي... وليس لهم من غاية في نهاية اليوم إلا أن يستمتعوا ببشرتك الملساء.. انتبهي إلى هذا...

* * *

3 – العـــــدد

تمرس العم صلاح في بيع الأشياء الرخيصة، مدة ثلاثين عاماً وأكثر، حتى أصبح عاجزاً عن التفكير في الارتزاق على نحو آخر. لم يخطر له يوماً أن بائعاً ذكياً، يمكن أن يبلغ هدفه المنشود، في البضاعة الغالية الثمن. وكل ما تجاوز سعره العشر ليرات، هو في نظر العم صلاح، شيء دخيل، ليس على الطبع السليم فحسب، بل على الحياة ذاتها. وليس هذا بالأمر الغريب عند رجل كادح، كان إلى أمد قريب يحسب المال بالقروش الصغيرة – وفي بداية عهده المهني بالبيع، كان كيلو الخبز بأقل من عشرة قروش – ثم أصبح نصف «الفرنك» وحدته القياسية؛ وحين أمِتهن «الفرنك» وأصبح عمله حقيرة لا يتداولها إلا الأطفال، في شراء قطع السكر وأوراق التلوين، وأقلام الرصاص اليابانية، أرغم العم صلاح على الاعتراف بربع الليرة، وما فوقها. ولكنه – في الوقت نفسه – كان اعترافاً بأن الناس قد أصبحوا في الزمن الأخير. وواضح أن «الناس» الذين يعنيهم هم الفقراء، ذلك ما يدعو إلى التساؤل عن طبيعة العم صلاح، فالفقراء كما هو معروف هم العدد الأكبر من الناس. فالبشرية إذن في نظره، تتألف من الذين يشترون أكثر الأشياء بأرخص ثمن؛ والغرابة أن يتسع ذهنه لأصغر الأشياء وأكبرها في آن واحد. إن فكرة العدد الكبير تحتل ذهنه أبداً، حتى في نظرته إلى الجماد؛ فحين يجد نفسه على الرصيف مثلاً، كان يتصور على الفور، عدد المشاة الذين يمكن أن يتسع لهم الرصيف، وقلما رأى بناية ضخمة، من الطراز الحديث، إلا و«فرط» طوابقها المتعددة إلى حجرات، وقسّم كل حجرة إلى أمكنة صغيرة، يمكن أن ينام فيها إنسان. والأرجح أن ظروفه المنزلية كانت تلعب دورها في توجيه خياله. فقد كان له سبعة أبناء: منهم بهية، وزوجة وأم، وليس في المنزل إلا غرفتان ومطبخ، وردهة مستطيلة، أشبه بالممر، تصل بهم بالباب الخارجي، تتشعب منها رقعة من الأرض، ذات فضاء، تقتحمه شجرة ليمون لكي تظلل قناً صغيراً للدجاج. هذا هو عالم العم صلاح بكل كائناته، وحرصاً على الإحصاء العددي، نضيف أن القن يضم ثلاث دجاجات، يستضفن في بعض الأحيان دجاجة رابعة أو ديكاً أليفاً من دواجن الحي. وهذا كله ليس إلا جانباً من نزوات أمه، التي كانت تحلم بأن تزود البيت بأحياء آخرين؛ نعجة تدر الحليب للأطفال، وقطة أليفة بلغت سن الرشد، تستطيع أن ترعب الفئران الذين ينهبون مؤونة العائلة، في ذكاء خبيث، ومفرزة من الحمام الأبيض من أجل الصغار أيضاً. ولكن ضيق المكان كان يغلق الباب أمام جميع هؤلاء الضيوف الوهميين، الذين كانوا يعيشون في حنان لا مثيل له، ليس في خيال الأم العجوز فحسب، بل في ذهن ولدها أيضاً. كان صلاح يحلم دائماً بكثافة السكان – كما رأينا – وإن كان ذلك على حساب راحته وهنائه.

وواضح أن المنزل كان في شغل عن كل ما يجري في الحي، فليس من السهل أن يتسرب صوت خارجي، إلى هذه الجمهرة الصاخبة من الأحياء، الذين تعصف بهم هموم العيش دون ريب. غير أن الصغار كانوا يحتلون جانباً من الشارع طوال النهار، وكان من الطبيعي أن يزودوا بالنصائح اللازمة خوفاً من جعفر. فمنذ أن عرفت قصته، أصبحت الجدة في قلق على أحفادها، وكانوا عابثين في الغالب، شأن أولاد الفقراء جميعاً. في البدء خشيت أن يؤذيهم في إحدى نوباته العنيفة، ولكن العم صلاح أقنعها بأن الخطر يأتي منهم.

– المجنون هو لعبة الصغار دائماً، ولا سيما إذا كان من الجيران.

هذا ما قاله في جد، وأوعز إلى بنيه أن يبتعدوا عن جعفر حيثما رأواه..

* * *

4 – بـــــهيـــــة

حين أُخذت بهية من منزل ذويها، كان أبوها يجهل حقيقة جعفر، بل كان له من التواضع وحسن النية، ما يمنعه من الاعتراض على أي صهر يأتيه، إما لأنه كان من الذين يعتبرون الزواج ومراسيمه، من القضايا النسائية البحتة، وإما بسبب الإهمال وعدم الاكتراث. وهذا هو الأرجح، فقد كان لديه حشد كبير من البنات، أنجبهن واحدة تلو الأخرى، من أجل صبي يحمل اسمه. وحين جاء الصبي، كانت اثنتان منهن في سن الزواج، إحداهن بهية. وكان زواجها من أسرة غنية، افتتاحية طيبة في نظر الأبوين معاً، وذلك لأسباب كثيرة، منها حرصهما على أن تدرج هذه العادة في المصاهرات المقبلة، وأن يكون لهما منزل أكثر رحابة، يتنقلان فيه بين الحين والآخر؛ وهذا هو الأهم عند العم صلاح الدين – وهو اسم الأب – الذي كان يعيش مع أسرته في البيت الصغير.

لم تكن بهية جميلة كما ينبغي؛ فعلى الرغم من اتساق تكوينها الجسدي، ورشاقتها التي تلفت النظر، كانت العذوبة والرقة تغلبان فيها تألق الجمال. وكانت في العشرين؛ ولكن شيئاً من اللدونة الوادعة في ملامح وجهها ولون بشرتها، التي تتوزعها السمرة والشحوب، كان يوحي بأنها قد نضجت منذ أمد بعيد، ولم يعد جسدها يحمل صلابة الدفعات الأولى من تفتح الشباب ونضارته. بل كان يبدو – أي الجسد – على أهبة الاستسلام دون مقاومة. وقد أغرم بها الدكتور توفيق واشتهاها؛ ولكن ليس من أجل هذه السهولة في امتلاكها فحسب، بل لأن نهديها كانا مثاراً رائعاً لأعنف رغباته. فحين رآها أول مرة، كانت ترتدي ثوباً رمادياً من الحرير، أو القماش الرقيق، أعطتها إياه السيدة زينب منذ وصولها إلى المنزل، لكي تكون أكثر براعة في أداء مهمتها الجديدة. وكان الثوب – على ما يظهر – لخادمة سابقة أقل امتلاء من بهية، ولذا بدا فيه صدرها وردفاها في أروع آيات الإغراء. وهذا ما لحظه الدكتور توفيق لأول وهلة، واطمأن إلى أن جعفر لابد أن يستجيب مهما عطّل الجنون من غرائزه..

وحين تحدث إليها الدكتور توفيق، أحس أن تلك المناطق من جسدها – والصدر بصورة خاصة – ما تزال بكراً لم يلمسها أحد، أو بتعبير آخر، لم تستعمل قبل اليوم. وهذا ما بعث فيه رغبة عنيفة. ومع أن زوجته كانت ذات صدر ممتلئ، وردفين في غاية الاكتناز، فقد كان في قرارة نفسه كمن يقول: «شتان بين الثدي والنهد».

والأرجح أن هذه الناحية هي التي أثارت الدكتور توفيق على نحو خاص .. فالمعروف أن الغريزة تصبح في أوج عنفوانها، حين تجد ما يقاومها؛ إنها عندئذ ترد على التحدي، بما يسمونه نزوة السيطرة والإخضاع. وعلى الرغم من أن هذه النزوة لا تذكر عادة في مجال الجنس، فإنها في الحقيقة من أعمق

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ينابيع اللذة الجنسية. أو هذا ما تبلورت حوله كل مشاعر الدكتور توفيق تجاه بهية، منذ أن ساورته هذه الفكرة المريبة. وكان ذلك في أول لقاء مع الفتاة، على الرغم من أنه كان لقاء صامتاً حتى أن بهية لم تقل كلمة واحدة طوال الفترة، التي استغرقتها مناسبة التعارف. كانت الست زينب قد دعت الدكتور توفيق لهذه الغاية؛ وطلبت إلى بهية إعداد القهوة. وحين دخلت الفتاة كان وجهها متألقاً بنضارة الشباب وعذوبة الجمال، الخالي من التبرج، وكان حياؤها الريفي واضحاً في ارتباك خطواتها وإغضاءة العينين؛ بل بدت للدكتور توفيق وكأنها قد فقدت كل فضول غريزي، لمعرفة ما يحدث حولها. فبعد أن قدّمت القهوة، أشارت إليها «الست» زينب بالجلوس؛ فاختارت مقعداً عند الباب، وكان في حركاتها ما يدل على أنها تتهيَّب الغرباء، والأصح أنها كانت خجلى من الثوب «المدني» الذي ترتديه؛ فقد مدت يديها في شيء من الاضطراب، لتسوّي أطرافه، كمن تحاول أن تغطي الجزء الحاسر من ساقيها الجميلتين... هذا ما لحظه الدكتور توفيق، بالإضافة إلى التقديرات المغرية التي أسفر عنها فحصه العفوي، لمثل هذه النواحي من جسدها الفتي. وهذا الفحص هو جزء من مهمته الطبية – كما هو واضح – ولكنه، في الوقت نفسه، رأى أن هذه المهمة يمكن، أو يجب أن تتعدى حدود النصح والإشراف... وبهذا الاعتبار خطر له أن بهية هي فريسة سهلة، بل إنها «الشيء» الوحيد الذي يمكن أن يستخدم دون رقابة، على الرغم من كونه إنسانياً. وها هنا، لابد من التعرض لجانب من واقع الدكتور توفيق نفسه. فهو منذ عشرات السنين لم يعرف محنة من هذا القبيل. إنها محنة بالفعل، لأن التحريم كان يهيمن على الدكتور توفيق في مثل هذه الأمور. لم يخطر له مرة، أن امرأة غير زوجته يمكن أن تقاسمه الفراش؛ إما لأن هذه الزوجة كانت ينبوعاً لا ينضب في مسألة الجنس – وقد كانت على شيء من الاستهتار لا يمكن إغفاله ــ، وإما لأن الحس الأخلاقي كان يردع الرجل، عن أبسط أنواع الاشتهاء غير المشروع. ولكنه كان طبيباً يفحص الجسم البشري، من الصباح إلى المساء، لكي يكتشف فيه العطب والتخاذل أمام الحياة. والحياة في شارع الصالحية تعني الصحة الجنسية: أن يكون الجسد قادراً على مجاراة النزوات في هذا المجال؛ أو بتعبير موجز تعني الفحولة في الرجل، والإغراء في المرأة. وما يزال الدكتور توفيق فحلاً بكل معنى الكلمة، وبهية كما وصفنا. ومن ثم كان سقوطه أمراً لابد منه.

* * *

5 – العـشـــــاء

هناك أناس تبدلهم الحوادث الطارئة على نحو غريب، مهما تكن هذه الحوادث تافهة، أو تكشف لهم عن حقيقتهم دون أن يشعروا، فإذا هم قد اهتدوا فجأة إلى الأفكار، التي تعبر عن طبيعتهم الكامنة، مثلما يحدث حين ينعقد الزهر على الشجرة، لكي يعلن عن نوع الثمر. هذا ما حدث للدكتور توفيق حين انتهت مقابلة بهية.

كل ما كان يعرفه عن نفسه – قبل ذلك – أنه رجل عادي مثل جميع الآخرين، وأن جميع أفكاره ليست إلا صدى، لما يفكر به الآخرون، بل إن هذه الأفكار ذاتها، لا تعبر عن شيء في مزاجه، بل هي مجرد آراء عابرة التقطها من هنا وهناك. ومن ثم لم يكن يعنيه في أية مناسبة، أن يتشبث برأي معين، ولا سيما في القضايا العامة التي كانت لديه – بدورها – مبعثاً لعدم الاكتراث. وهو أمر طبيعي لدى الأشخاص الناجحين عملياً – على حد التعبير الدارج ــ.

أما في هذا المساء فقد تغير الأمر. كان مدعواً إلى حفلة عشاء فخمة في مطعم الشرق، أقامها بعض زملائه على شرف أحدهم، بمناسبة سفره إلى الخارج للتخصص في جراحة القلب. ومثل هذه الحفلات كانت تستأثر باهتمام الدكتور توفيق إلى حد غريب. كان يذهب إليها في فرح صبياني جامح، وهو يعرف أنها لن تكون أكثر من مناسبة عادية لتناول الطعام الشهي، وتبادل الأنخاب، وسرد النكات العارية، في عباراتها الأصلية، بعيداً عن التحفظ الذي يفرضه وجود السيدات في العادة. ومن حسن حظه أنه كان سريع النسيان في هذا المجال، فكان يستمتع حتى بالنكات القديمة الدارجة.

وكان بين المدعوين شاب في الثلاثين أو أكثر بقليل، قدم للدكتور توفيق باسم زياد... وكانت ملامح الوسامة في وجهه وتألق عينيه، وطلاقته في الحديث، ما تنم عن ذكاء خارق. غير أنه كان شيوعياً، هذا ما قيل عنه أيضاً، في كلمات التعارف الأولية، لهذا أثار اهتمام الدكتور توفيق، ولا سيما أنه كان «المجهول» الوحيد بين الآخرين.

في تلك الليلة كان مطعم الشرق، ينعم بمغنية فرنسية رائعة الأداء، يترقرق صوتها الجميل في أعذب الألحان الراقصة. وكانت الأضواء الخافتة والموسيقى العاطفية، وحلبة الرقص الصغيرة، تملأ الجوارح بدفء النحور الحسيرة، والأقدام الرشيقة – وهي أكثر ما يستهوي الدكتور توفيق في مثل هذه الأجواء – كل هذا، إلى جانب نكهة الترف الخاصة بالويسكي، جعل الدكتور توفيق هذا المساء، نموذجاً للمسامر الذكي الروح، المشرق البديهة. ومن ثم أتيح له – هو أيضاً – أن يستأثر باهتمام زياد. بل

لاحظ أن الشاب كان يتفرس في وجهه بين الحين والآخر، في كثير من التعاطف والتقدير. – وهو ما يشعر به أي إنسان – حين يرى نفسه جديراً بإعجاب شخص آخر.

وتنقل الحاضرون بين شتى المواضيع، في أحاديث ودية مرحة، إلى أن استقر أحدهم عند مسألة جدية تتعلق بالسياسة، لا يعرف أحد كيف ساقها الحديث؛ وكانت تدور حول الدعوة إلى السلم العالمي، ومنع الحرب، أو ما أشبه ذلك؛ وعندئذٍ قال زياد بلهجة لا تخلو من الحماسة:

– إن أي مواطن في أي بلد، يستطيع أن يلعب دوراً في إقرار السلم.. فالحرب تصنعها الحكومات، التي ما تزال تؤمن بأن التنازع بين البشر، أمر لابد منه، قدر محتم؛ وفي اعتقادي أن معظم الشعوب لم تعد تؤمن بهذا القدر. إن الإنسان الذي استطاع أن يسخر الطبيعة لخدمته، ويبدل وجه الأرض بالاختراعات العظيمة، لا يعجز عن تبديل هذا المبدأ الوحشي في شريعة الطبيعة...

فرد طبيب كهل، يبدو أنه كان على معرفة سابقة بزياد:

– ولكنها شريعة الحياة؛ من هذه الناحية يجب أن نكون واقعيين، ما دام البشر يجدون متعة في عملية القتل، فالحرب مشروعة، هذا رأيي.

فقال زياد في ابتسامة هادئة:

– وهل هناك من يجدون متعة في القتل؟.. لابد أن...

فقاطعه الكهل:

– نعم، جميع الأقوياء... ولهم الحق في ذلك.. وإلا ما فائدة القوة؟. وأين تستعمل؟..

وضحك بعض الحاضرين، في حين ارتسم الجد على ملامح زياد، وأردف في شيء من التحدي:

– ينبغي أن تتعرض مرة لهذا الاستعمال، لكي تدرك فظاعة الأمر.. تصور ما يمكن أن تفعله قنبلة واحدة، في حي قديم من هذه المدينة!.. إننا لم نجرب كوارث الحرب كما يجب، ولذلك لا نرى إلا وجهها المثير: القوة، الشجاعة،.. الخ.

وهنا قاطعه الكهل من جديد، وفي لهجته شيء من الموافقة:

– وهذا ما نحتاج إليه.. يجب أن تبقى نزعة القتال عندنا شيئاً مشروعاً، بل ضرورياً، ما دمنا في خطر؛ فأي جيل مائع متخاذل يمكن أن يصنعه السلم!

كان واضحاً من سياق الأحاديث، أنه يشير إلى الاستعمار الأجنبي وإسرائيل، وما أشبه ذلك؛ وبدا أن الجميع قد وقفوا إلى جانبه في هذا الرأي؛ وقبل أن يجيب زياد، تدخل الدكتور توفيق، وقد ارتسمت على وجهه ضحكة مكتومة:

– ومع هذا فلابد من مقاومة الحرب، لأنها عمل وحشي بالفعل.. غير أن الدعوة إلى السلم ليست هي الطريق... السلم هو حالة سلبية، لا تعني شيئاً في هذا المجال، ويجب أن نقاوم الحرب إيجابياً. وهناك وسيلة واحدة هي «العملية الجنسية» نعم، الحرب تقتل الناس ولكن يمكن صنعهم في أي وقت...

وانتشرت فيهم موجة من المرح الودي، أردف خلالها الدكتور توفيق:

– ولذا فإن الجميع عندنا، هم يد واحدة ضد الحرب..

وعلق أحدهم في مزاح واضح:

– ولا حاجة للجمعيات والنشرات...

والغالب أن زياد كان ذا حساسية اجتماعية مرهفة. فقد بدا الامتعاض على وجهه بصورة مفاجئة. وقد تفرد بهذا الموقف الجدي، مثلما كان يتفرد بهويته الحزبية. وإذا علمنا أنه في ذلك الحين كان من الشيوعيين القلائل، الذين يعلنون عن أنفسهم في جرأة، وأنه كان شديد الحماسة للشعار، الذي كان يرفع إذ ذاك، عن السلم العالمي، وضرورة التبشير به في مختلف الوسائل، إذا علمنا هذا، كان لنا أن نقدر حقيقة شعوره، ولا سيما أن «الشيوعية» نفسها – في مثل هذه البيئة «البرجوازية»، على حد تعبيره – كانت موضع الاتهام والاستخفاف. لقد شعر بأن هناك من يريد النيل منه، ومن ثم فإنه لم يتراجع – وتلك هي إحدى الصفات المميزة، التي تبينها فيه الدكتور توفيق بصورة عفوية – ومن أجلها أعجب به وأحبه، ولا سيما أنه سمعه يقول في انفعال طارئ:

– هل تظنون أن أحداً منا، جدير بأن يكون شيوعياً حقيقياً، يقوم بهذه المهمة، إن الشيوعي هو إنسان المستقبل، الإنسان الجديد الذي يجسد فتوة العالم، ونحن جميعاً مهترئون..

والظاهر أن الخمرة كانت قد لعبت دورها المألوف، في تحريض الانفعالات، فرد عليه الكهل بلهجة لا تخلو من التحدي أيضاً:

– قد يكون هذا صحيحاً، كوننا مهترئين، ولكن الشيوعي ليس الإنسان الجديد، إنه غير أخلاقي، لأنه يبرر كل شيء...

ومع أن العبارة كانت غامضة في نظر الآخرين، فقد التقطها زياد في معناها المقصود، وقال في هدوء غير متوقع:

– نعم، هذا ما يقوله ماركس أيضاً: ليس للشيوعيين أخلاق ثابتة... أي جامدة؛ الأخلاق تتبع حياة الإنسان، ومستقبل البشر؛ إنه أبلغ دفاع عن الأخلاق الحقة.. تقول الوصايا القديمة: «أحبوا بعضكم بعضاً...» أي يا أيها الفلاح، الشقي، الجائع، الذي تعيش في الأوحال، عليك أن تحني رأسك أمام

الإقطاعي، الذي يستنفذ دمك، ويأخذ ثمرات أتعابك، لماذا؟.. لأن الله أمرك بحب الآخرين؛. أهذه هي الأخلاق التي تخاف عليها؟..

فأجابه الكهل بلهجة أكثر حدة:

– نعم.. إنها ما ينبغي أن يكون.. فما دام الفلاح عاجزاً عن تبديل أوضاعه، فهو الضعيف المطالَب بالخضوع؛ بل يجب أن يحمد الله أنه ما يزال على قيد الحياة... ولكن المثال الذي تذكره، هو خاطئ بالأصل.. لأن الطرف الآخر.. الإقطاعي أو الغني، مطالب بالوصية نفسها أيضاً..

فأردف زياد في شيء من التهكم:

– أن يتنازل، فيزور الفلاح في كوخه، ويقول له: «أخي العزيز، لا تظن أنني أحتقرك، فإنك إنسان مثلي جدير بالاحترام والحب».

وخلال ذلك تكون زوجة الفلاح، في جانب من البيت، تنقع الخبز اليابس، لكي يقوى الأطفال على بلعه.. هذا ما رأيته بعيني؛ إنهم يسرقون هذا الخبز من الحظائر أحياناً.

وقال الدكتور توفيق في شيء من عدم الاكتراث:

– ولكنها مبالغة!. هل هناك فلاح لا يحصل على الخبز؟. لماذا وجد التنور إذن منذ مئات السنين؟..

وضحك بعضهم، في حين كان الكهل يقول في جد حاسم:

– لقد خرجنا عن الموضوع.. إن الشيوعيين لا يفهمون إلا العنف، كل من يخالفهم يجب أن يُلغى إلى الأبد.. إنهم يرفعون دائماً إشارة الخطر الحمراء.. لماذا؟.. أي مستقبل إنساني تصنعه أيدٍ لطخت بالدماء؟. هذا هو المهم في نظري..

وفيما كان زياد يتصدى للجواب، قال الدكتور توفيق وما يزال في غمرة المزاح:

– أليس هذا ما كنت تدعو له الآن.. الحرب، القوة، دعونا من هذا كله.. لا أحد يستطيع أن يفهم كيف يتصرف الناس!.

وانحسرت فجأة جدية الحديث.. فقد كان صوت المغنية يتعالى في إيقاع عاطفي، ملك مشاعر الجميع.. وكانت كلمات الأغنية، ترسم في صفاء وحرارة، قصة حب، رفض أن يجري مع الزمن، فبقي على عنفوانه في جميع مراحل العمر.. وغمغم الدكتور توفيق، وقد بدا التأثر في ملامح وجهه ونظراته ومقاطع كلماته:

– هذه الحقيقة.. الجنس.. كلمة السر في الحياة من البداية إلى النهاية.. الشيء القوي، المهيمن، الذي يبسط ظله الناعم على الجميع، ويقاوم الضجر والحرب واليأس، ويبدد كل الأزمات. لنشرب نخب الحب.. ولكن ليس بالمعنى الذي يريده ضيفنا العزيز زياد.

ورفع الجميع كؤوسهم في مرح لاغب، بينما كانت ذكرى بهية بأوج فتنتها تتحرك في مخيلة الدكتور توفيق، بل تجري في كل أعصابه مفعمة بحرارة الحب.

* * *

6 – أزمة الدكتور توفيق

يقال إن الضحايا هم أكثر الناس فهماً، لنوايا الآخرين. إنهم يهتدون بالغريزة إلى مكمن الخطر، وإن كانوا لا يستطيعون الدفاع؛ ومن ثم كانت لهم صفة البراءة المحزنة، التي توصف بها أيضاً جميع الكائنات الضعيفة في عالم الأحياء.

هذا ما ينطبق على بهية بصورة خاصة، لولا أنها لم تجد نفسها ضحية بالمعنى المألوف، ولم يكن في تصرفاتها التالية، ما يدل على أنها بريئة حقاً. لقد أدركت منذ البداية، أنهم جاءوا بها إلى هذا المنزل، من أجل شخص معتوه، ومع أنها أصبحت زوجته الشرعية – وهو ما يخفف عنها الشعور بأنها أداة – فقد بقي في نظرها مصدر اضطهاد، لا سبيل إلى فهمه. لقد رفض الاعتراف بها؛ هذا هو الأمر الذي لا يناله الشك؛ والغريب أنها لم تكترث بالناحية الإنسانية المحضة في هذا المجال؛ فجعفر لم يرفضها لأنها كائن بشري جدير بالاحترام، بل كان من هذه الناحية، لطيفاً معها إلى حد الحب العميق. ولكنها كانت ترى نفسها امرأة، تريد الاعتراف بأنوثتها قبل كل شيء. وهذا ما لم يفعله جعفر؛ ومن ثم كان هوانها الغامض. وقد رمم الدكتور توفيق هذه الفجوة في الوقت المناسب، فاطمأنت إليه بهية في البداية، على الرغم من أنه كان يمثل الفضيحة المخزية، ولكن جانب الهوان في شعورها تحوّل إلى ناحية أكثر غرابة.. لم يخطر لها أنه متزوج، وأنه يعبث بها ويستخدمها لمسراته، ولم تكترث بالضوضاء المشينة التي كان ينبغي أن تدفعها إلى النقمة عليه؛ بل رأت الهوان كله، في كونه رجلاً يستطيع أن ينال ما يشاء في مثل هذه السن «الوقور». لقد تحدى كل شيء في إرادة مصممة، كمن يحاول أن يُشعر الجميع – وهي منهم – بأنه القوي أبداً. وقد كان لها أن تضيف إلى هذا الإحساس، أنه فعل ذلك من أجلها، ولكن تقديراتها امتدت إلى أبعد من ذلك، واستقرت في شيء مبهم لدى عشيقها، يمكن أن يوصف بالصلابة والجرأة والطغيان، في آن واحد. ومع هذا كله فقد أصرت على موافاته في كل موعد. والغالب أن هذا الإصرار كان نوعاً من التحدي، الذي تلجأ إليه المرأة، حين ترى نفسها موضع حب جارف، وتشعر في الوقت ذاته، بأن الرجل يمكن أن يستغني عنها، إذا رآها مثل جميع الأخريات. وبهذه الروح قررت أن تأسره أسراً كاملاً، أن تشعره بأنه يستطيع الاستغناء عن الماء والهواء، قبل أن يقوى على التخلي عنها. وهذا ما حدث.

كان من عادته أن يجتمع بها في غرفة سرية، في أحد فنادق المدينة. ويبدو أن صاحب الفندق كان صديقاً حميماً له، فلم يكتف بتمهيد الطريق أمام هذه المغامرة «الآثمة»، بل رعاها بشيء من التشجيع... فقد كان يردد على مسامع صديقه، في كل مناسبة أن الحياة ليست شيئاً من دونهن، وكان يعبر عن هذه

الفكرة بألفاظ بذيئة أحياناً، توقظ في غريزة الدكتور توفيق أشد النزوات جموحاً. «هذه الكنوز المختبئة الندية، يجب أن تُكتشف جميعاً.».. وما إلى ذلك من التعابير المفضوحة...

والغالب أن بهية أدركت بالغريزة هذه الناحية، في مزاج حبيبها الكهل – والظاهر أنها أحبته حقاً – فكانت تغدق عليه من مظاهر الاستهتار، ما يحرضه على نسيان زوجته إلى الأبد، ويعصمه أيضاً من الانزلاق في أية مغامرة مماثلة. قالت له ذات ليلة:

– أتعرف، يا دكتور – هكذا كانت تناديه في الغالب – أنني سوف أقتلك إذا أحببت غيري..

فقال ضاحكاً – وهو يداعبها – هيهات، لن يتاح لك هذا في أي يوم... بهية! من يستطيع أن يتخلّى عن اللباب، من أجل القشور؟. اسمعي، يا بهية، في حياة الإنسان حب واحد، لأنه ليس هناك إلا قلب واحد..

وصدرت عنه إشارة نابية تدل على وقاحته الفطرية، في كل ما يتعلق بقضايا الجنس. ولم يكتف بهذا، بل عمد إلى إثارة الفتاة المغرمة على نحو، يخجل منه أكثر العشاق استهتاراً وجرأة.

والواضح أنه لم يكن بينهما ثمة مجال لمناقشة المشكلة الأساسية: الخيانة الزوجية وسواها. فقد كانت بهية على جانب من الوعي الغريزي في هذه الناحية، يؤكد لها أن الرجل لم يعد إلا مجموعة من الأعصاب الحارة، لا غاية لها إلا أن تلبي نداء الجنس وحده، مع أن كلمة الجنس هنا تعني أكثر الأشياء «بهيمية».. في وجود الإنسان.. وهذا ما كانا يشعران به معاً في مثل هذه الخلوات المريبة.

ومع هذا فإن الدكتور توفيق كان يشعر بين الحين والآخر، بأنه في أزمة عميقة الجذور، من ناحية الجنس ذاته؛ فمنذ أن تبيّن الروح الجدية العنيفة في موقف بهية، أو تأكد من إخلاصها في هذا الحب، وجد نفسه أكثر استجابة للخيال، أمام مغريات النساء جميعاً؛ فطوال الساعات التي تفصل بين الموعد والآخر، كانت عيناه تلتقطان مظاهر الأنوثة، في كل امرأة يراها في الشارع أو في العيادة، أو في مجلس خاص، وكانت مخيلته تمعن في المجون، حتى أصبح يعتقد مع الزمن أن «الفحولة» تلزمه بأن يتذوق كل نكهة، وإن كان على يقين أيضاً بأن بهية، تغنيه عن الكل، ولذا كانت مشاهداته وأخيلته في هذا الصدد، أشبه بالمقبلات في وجبة فاخرة – وهذا هو تعبيره بالضبط ــ. أما الأزمة التي أشرنا إليها فهي أنه حين أحب بهية، وشرع في خيانة زوجته، كان في موقف مماثل. إذ ذاك لم تعد زوجته إلا «إحداهن» وهكذا برر لنفسه أن ينتقل إلى الأخرى، مجاراة لرغباته الحسية، أو إخلاصاً لها – على حد مشاعره ــ. فهل أصبحت بهية الآن نقطة انطلاق جديدة؟

هذا هو التساؤل الذي تيقظ فجأة في وعي الدكتور توفيق، عند نهاية موعده «الغرامي» هذا اليوم. لقد كان في غاية السعادة والغبطة؛ غير أنه منذ أن غادر الفندق، واندمج في حياة الشارع بسيرها المألوف، تذكر أن بهية هددته بالقتل إذا تخلى عنها، وامتلكته نشوة غريبة، لمجرد أنه يستطيع أن يفعل، وبدا له أيضاً أن هذا التهديد، ليس إلا نوعاً من التحريض، تلجأ إليه المرأة بغريزتها، لكي تمتحن

سيطرتها على الرجل الذي تحب... ولكنها تغفل عن الحافز العميق الذي يستبد برجل عابث مثل توفيق – على الأقل – قدر عليه الاّ يرتوي... أن تكون هذه المتعة وحدها – لديه – دليل الحياة.

ومن ثم كان يعتلج في نفسه هذا القلق الدفين الذي أصبح مع الأيام أزمة وجدانية حقة.

* * *

7 – مأساة السياسة

كان زياد ينعم باستقرار مادي لا يخلو من الترف، ولكنه مع ذلك بدأ شيوعياً صعب المراس؛ وهذه الصفة الأخيرة تعني الحماسة والتعصب، في آن و احد. ولا مجال لتبرير هذه البداية، ما دامت على هذا النحو من العنف والتصميم، غير أنها لم تكن وليدة الصدفة أو الاندفاع الطارئ، أو نتيجة طبيعية للشروط، التي تجعل المرء شيوعياً، كالفقر مثلاً أو حب الإنسانية، أو الحقد الطبقي، أو الظلم الاجتماعي، وما إلى ذلك. والغالب أنه – أي زياد – وجد في الشيوعية شيئاً من المنطق المتماسك يريح الذهن من عملية «فك الطلاسم» الشاقة التي تفرضها متناقضات الواقع، على كل فكر متفتح. وهذا يتفق مع حافز البحث عن المعقول الذي كان الكلمة الأولى في اليقظة السياسية لدى زياد.

بل كان هناك شيء آخر أكثر خطورة، في نظره، هو التنظيم. إن المأساة الحقيقية في السياسة، هي أن الجميع يتصرفون في فوضى وارتجال لا يفسحان مجالاً لأية بصيرة واعية. في الدولة تسير الأمور بدافع الاستمرار، ولا شيء آخر، وفي الحياة العامة تتعاقب الأحداث والمناسبات، كما تتعاقب الفصول والليل والنهار. بل إن في هذا التشبيه بعداً عن الحقيقة، لأن كل شيء منظم في الطبيعة؛ أما في حياة البلاد، فما من أحد يعرف ماذا يحدث وكيف؟. أمام هذا، كان زياد يقول لنفسه: «هذه حركة مجربة في بلاد أخرى، وقد نجحت، حزب منظم يضع الخطط في وضوح، ويرتب الوقائع وفق منطق معقول..» ولما كان الحزب الشيوعي أقدم الأحزاب في بلادنا، فقد أيقن زياد أنه لابد من أن يكون – أي الحزب – قد اكتسب خبرة واتصالاً بالواقع، يجعله جديراً بعضو نبيه، صادق العزيمة. وهذا ما كان. فانتسب زياد إلى الحزب حسب المراسيم المرعية. وقدر له أن يحتل مكانة مرموقة بين «الرفاق»، في فترة وجيزة، نظراً لوعيه المبكر، ومركزه الاجتماعي. غير أنه لم يعتبر حزبياً عاملاً إلا بعد أمد طويل. بل أُدخل في روعه منذ الأيام الأولى، أن الشيوعي الحقيقي هو ظاهرة فذة، ليس في حياة الحزب فحسب، بل في تاريخ البلاد أيضاً. وقد تقبل هذه الفكرة، وبدأ يبشر بها: لكي تكون شيوعياً، يجب أن تكون واحداً من الطليعة الواعية، التي تجسد الثورة في حقيقتها؛ أن تكون قد فهمت النظرية بتفاصيلها، وحفظت النصوص التي لا يمكن العمل إلا بالرجوع إليها، وأن تكون قد تمثلت في موضوعية حاسمة، جميع الشروط الواقعية التي تتحكم بكل مرحلة، من مراحل النضال الثوري، وأن تكون في الأخير حزبياً بكل معنى الكلمة. وما أقسى كلمة «حزبي» في بيئة مرتبكة، لا حكم فيها إلا للنفعية والانتهازية، وفوضى الصراع من أجل العيش..

وقد تغلب زياد على نفسه في معظم هذه المجالات؛ لأنه في الغالب لم يكن طرفاً في أي صراع، وكان له أن يرقى في سهولة إلى مصاف الحزبيين الجديرين، لولا أن المجتمع كان يضع أمامه شتى العراقيل؛ فمنذ أن عرف عنه هذا الميل «السياسي»، وشوهد مع أشخاص متهمين بالشيوعية، شعر بسياج شائك يعزله عن جميع الآخرين. كان مجرد شعور عابر في بادئ الأمر، ثم غذّته المواقف العملية؛ فما من مرة ذكرت فيها الشيوعية أمام زياد، إلا وغمره إحساس عميق، بأنه متهم أمام أناس كثيرين، لا يشترط أن يكونوا هم المتحدثون، بل أشخاص أوفر عدداً، وأشد مكراً وسخرية؛ ولم يكن جباناً في الواقع، بل كان يحاول في كل مناسبة أن يقنع الآخرين بوجهة نظره الحزبية، في القضايا السياسية والفكرية، وكان بالطبع يعلن عن شيوعيته في جرأة وتحدٍ أحياناً. ولكن ماذا يفعل بهذا الشعور اللعين؟ إنه حقيقة أيضاً، ليس من السهل مقاومتها. ولاحظ مع الزمن أن معظم «الرفاق» في الحزب هم فريسة لمثل هذا الشعور؛ بل إن كثيرين منهم كانوا يكتمون طابعهم الحزبي، إلا عن المعارف الموثوقين.

قد تكون هذه الملاحظة عديمة الأهمية، لولا أنها امتدت إلى ما هو أبعد من الشعور بالاتهام. لقد كان زياد على جانب من الثقافة العقائدية تجعله قادراً على الحد الأدنى من النقد الذاتي. ولا ريب أن النقد في مثل هذه الأحزاب ينصب على ناحية واحدة هي الأخطاء التي ترتكب بالنسبة للنظرية، ذلك أن حزباً طليعياً له سمعته الثورية، لا يعتبر النجاح معياراً للحكم على صواب العمل؛ ولا سيما أن النجاح مرتبط بانتصارات أوسع أفقاً، ينبغي أن تحققها الأحزاب المماثلة في بلاد أخرى. والخلاصة أن زياد انتقل من مشكلة الاتهام المذكورة، إلى مسألة أكثر خطورة، هي أن الحزب كان في مواقفه العملية، يحاول التستر على الكثير من أفكاره النظرية. ولا ريب أن هناك مبررات كثيرة لهذا الموقف يعرفها كل إنسان. ولكن روح التستر أطلت على زياد في مظاهر أخرى، لا تقل أهمية في نظره. إن الشيوعيين الذين يمثلون نظرياً أبلغ صورة لتفسير التناقضات، قد صّيروا العقول بمواقفهم العملية التي لا تفتقر إلى مبرراتها فحسب، بل تبدو آية في الانسياق مع الصدفة، التي لا تُفهم. وهذا طرف مما وعاه الحزبي المخلص خلال المرحلة الزيادية – كما دعاها – من تاريخ الحزب الشيوعي: في النظرية أن الحزب هو الطليعة الثورية للكفاح الشعبي، النخبة التي تمثل أخلاق «المستقبل» – إذا صح التعبير – ولكن من هم الأشخاص الذين يمثلون هذه النخبة؟ الإنسان هو ابن البيئة التي يعيش فيها، سواء كان شيوعياً أو رأسمالياً، أو رجل دين. إن الكلمة الأولى التي أخذوها عن الحزب – بما فيهم زياد – هي تكتل الطبقة، للدفاع عن مصلحتها. ولكن ما هي مصلحة النخبة؟.. هذا ما تساءل عنه زياد أكثر من مرة. وقال لنفسه أيضاً: «لقد اخترت الخط الثوري لأنني لا أستطيع أن أعيش من غير منطق؛ رأيت الأغبياء مثلاً، يتحكمون بمصائر الناس، وليس من المعقول أن يكون الأدنياء في القمة. ذلك يناقض كل رأي حكيم؛ يناقض داروين وماركس، وجميع الأذكياء، الذين توارثوا فهم معنى الحياة عن موسى وعيسى ومحمد..

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ولكن لماذا نريد أن نعلّم الناس أن يكونوا على وفاق مع الانحطاط، الذي يعيشون فيه؛ ما هي مصلحة الثوري في مجتمع يلّوثه العار؟..».

هناك أمر ثالث وضع زياد في مأزق نفسي، لا يمكن إغفاله. لقد طلب إليه ذات يوم أن يوزع بياناً انتخابياً، جاء فيه أن البلاد هي الآن – ولا يهم الزمن – في مرحلة تقضي بالالتفاف حول بعض الزعماء الوطنيين، الذين كانوا في الواقع، نماذج للرأسمالية أو الإقطاعية العديمة الأخلاق، ومنهم من لعبوا أدواراً سياسية شائنة في عهد الاحتلال.

لقد أدى واجبه الحزبي كما ينبغي، ولكن ذلك لم يمنعه من الريبة في صواب هذا السلوك. وأية ريبة!.. لقد كانت هزة عنيفة في وجدانه العقائدي. ذلك أن المقياس الذي لجأ إليه في هذه القضية، كان بعيداً عن كل تفكير نظري، إنه الحس العام، ضمير الشعب، عفوية الجماهير، أو أي شيء من هذا القبيل. ومن خلال هذا المقياس، بدا له موقف الحزب غيبياً، غير منطقي، بعيداً عن كل جدلية ممكنة. لقد سارت أفكاره في المنحى التالي: صحيح أن العمل السياسي، حتى عندما يكون كفاحاً ثورياً، لا يمكن أن يسير في خط مستقيم، ولابد من استخدام الشروط الواقعية من أجل الأهداف الشعبية الكبيرة: تحرير الكادحين، الثورة الاشتراكية، المجتمع الديمقراطي.. الخ، ولكن روح الاستقامة والشرف والخلق الوطني، هي أيضاً من العناصر الأساسية في الواقع الشعبي. فكيف نأتي إلى من أدانهم الشعب، لأنهم ارتكبوا من الأخطاء ما يفوق الخيانة، كيف نأتي إليهم وننتشلهم من الحضيض؟.. ها هنا تكمن نقطة أساسية لا يمكن إغفالها، هي الاستهانة بالشعب، أو عدم فهمه، أو إلغاؤه نهائياً في التخطيط العملي للحزب. لقد رفضنا أن نعطيه الحقيقة فيما يتعلق بالدين – ما نزال نتابع أفكار زياد – ونحن نعرف أن الجائعين الأشقياء، هم أكثر الناس استعداداً للانعتاق من الترهات الغيبية؛ وها نحن نمنع عنهم الحس الثوري، فهل يعني ذلك أننا نعمل في الفراغ؟...

عند هذا التساؤل توقف زياد مدة طويلة، كان خلالها مزعزع الثقة بنفسه، إلى أن وقعت الحادثة التي كانت نهاية المطاف. والحقيقة أنها لم تكن حادثة بل مأساة، تبدأ بصداقة عميقة نشأت بين زياد ورفيق آخر في الحزب، منذ الأشهر الأولى. وكلمة صداقة هنا تعني مضمونها المثالي: الحب والاحترام والوفاء.. وما إلى ذلك. وكان «الرفيق» – ولنحتفظ بهذا اللقب للتعريف به – طالباً فقيراً، ولكنه حزبي من الطراز الأول. والغالب أن زياد قد محضه الود والإعجاب، إثر عمل جريء قام به في مناسبة ما، وهو الأمر المتوقع من الحزبيين الكادحين الذين يعيشون الكفاح الطبقي، بطبيعة الحال. وكان زياد يلتقي به يومياً عند المساء. ويتحدثان ملياً في مودة صادقة، على الرغم من تفاوت الثقافة والوضع الاجتماعي؛ وكان الطالب – على ما يبدو – نموذجاً للغضب الثوري (وهو تعبير مناسب في هذا المجال) أي من الذين تعنيهم القضية في الصميم. ولكنه مع هذا كان عديم الشعور بأهميته في الحزب وفي المجتمع أيضاً. وهي وراثة الفقر على الأرجح؛ ومن ثم كان قليل التبصر في تصرفاته، أو متهوراً على حد التعبير الدارج، لدى الأشخاص العاديين الذين يرون العمل العام نوعاً من الحماقة.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

وكان من الطبيعي – والحالة هذه – أن يعتقل أكثر من مرة؛ وفي إحدى المرات خرج من السجن معطوب الجسد؛ ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة. ولم يكن له أن يفكر بالاستشفاء بسبب فقره، واستهتاره بشخصه أيضاً. ورأى زياد أن واجب الصداقة يحتم عليه، أن يمد له يد المعونة، فأدخله أحد المستشفيات. والظاهر أن ذويه لم يحسنوا تقدير الموقف النبيل الذي وقفه زياد؛ فرفضوا هذه المنة المريبة؛ وساعدهم على ذلك أن الشاب المريض نفسه، كان في حالة حزينة من الشعور بالهوان. وقد ولد في نفسه اعتقاد راسخ، بأن الحزب والصداقة وكل شيء من هذا القبيل، إنما هي أوهام لا نصيب لها من الواقع. أو أنه ليس لها شأن في مصير إنسان. وشعر زياد نفسه بهذه الحقيقة، بل كان يحياها بكل جوارحه، في كثير من القلق والألم اليائس، وحين علم بموت صديقه الشاب، كان في أزمة وجدانية، لا سبيل إلى احتمالها، فقرر التخلي عن الحزب.. ولكنه لم ينفذ قراره: إما لأن الحزب بدا له غير مسؤول، وإما لأنه كان أقوى من الانفعالات الشخصية. ولكن هذه الحادثة ضاعفت نزعته القاسية إلى النقد الذاتي. وكان معياره في هذه المرة، أشد صرامة بالنسبة للعمل السياسي: هذا المعيار هو الخلق النضالي، وهو – من دون ريب – يرتبط بالعنصر الإنساني: كيف ينبغي أن يكون الشيوعي الحق؟ ليس كحزبي ينفذ الأوامر، أو كمثقف يدعو إلى فكرته، بل كإنسان من لحم ودم؛ له مزاج خاص وعقلية تحدد نظرته إلى الأشياء. ومما عزز لدى زياد مثل هذا التساؤل، أن الماركسية تنكر الثبات – أو الجمود على حد تعبيره – في كل أخلاق. وإذا كانت الأخلاق تعني القيم الراسخة التي لا تحول ولا تزول، فإن الشيوعية – كما قال ماركس نفسه – لا تؤمن بالأخلاق. إن الروح الأخلاقية، هي الإيمان بالحركة، والتقدم في حياة المجتمع. لكم كانت هذه الفكرة رائعة في نظر زياد! أن تنعتق الإرادة الإنسانية، من جميع الوصايا، وتقف أمام مصيرها، وهي مؤمنة بالمستقبل الأفضل!.

في هذه الحقبة من تجربته «العقائدية» – وهي لم تتجاوز الناحية الفكرية – كما هو واضح ــ، حدث أن اعتقل هو نفسه، وقضى في السجن عدة أسابيع. ولم تكن هناك أية تهمة مباشرة يمكن أن توجه إليه، كالتحريض على الاضطرابات مثلاً، أو توزيع المناشير الممنوعة وغيرها، بل سجن لمجرد أنه شيوعي، وعندئذ تلاشت جميع التساؤلات المريبة، ووجد نفسه مطالباً بأن يكون رجلاً بكل معنى الكلمة. والرجولة في هذا المجال تعني الصمود، في وجه السلطة: أن يثبت وفاءه للعهد الذي قطعه على نفسه. ولكن لمن يثبت هذا الوفاء؟. إن السلطة ممثلةً بالسجانين القساة، تسعى إلى أغراضها في عنف أصم، ولا يعنيها أكان الخصم – وهو زياد في هذه المرة – مقاوِماً عنيداً أو متخاذلاً مهلهل العزيمة. ومع ذلك فقد صمد للتعذيب أمداً طويلاً؛ ولكن بعد أن تلاشت من ذهنه نهائياً، أية فكرة بأنه حزبي. لم يعد – في نظر نفسه على الأقل – إلا إنساناً مظلوماً، يعاني محنة قاسية، تمتد شرورها إلى أسرته البريئة. وقد يكون هذا طبيعياً بالنسبة لكل سجين من هذا القبيل: ولكن خلال المحنة فقط. أما زياد فإنه وجد أن هذا الموقف ينبغي أن يستمر: إما لأنه كان من الذين ينهزمون بسهولة، وإما لأن التجربة السياسية في نظره قد بلغت نهايتها..

مكتبة علي بن صالح الرقمية

لقد حاول الاشتراك في تصحيح الأشياء، فكان عليه أن يعاني جميع الأخطاء أولاً، أي أن يعيش كل المظالم، قبل أن يقوى على محاربتها. ولم يعرف منها حتى الآن، إلا العنف الرسمي (الصادر عن السلطة) وقد عرف في الماضي قليلاً من مخاوف الفقر؛ وكم يبدو له الطريق طويلاً!..

وعلى هذا النحو خرج من السجن والحزب معاً.

أما السجن فقد تلاشت آثاره بعد حين، وبقيت آثار الحزب، كأعمق ما تكون. فلم تمض فترة وجيزة على اعتزال زياد، حتى تبيّن في وضوح جارح، كم كان الحزب هماً في حياته. وهل كان هناك حزب؟.. لا. تلك هي أولى الفضائح – إن هذه الكلمة تدل على مدى جدية الرجل – لقد كانت هناك مجموعة متنافرة من الأمزجة شبه المريضة، لا يربط بينها إلا التعصب لرابطة غامضة، هي رابطة الحزب في الظاهر، ولكنها في الحقيقة رغبة مشتركة في الاستفادة معاً من كل شيء، من عمليات التوظيف والارتزاق والأسفار إلى البلاد الاشتراكية من أجل المهرجانات وغيرها، إلى متعة التشفي، أو النيل من كل ما هو طرف آخر، كالأشخاص المعروفين بالسمعة الحسنة، أو الروح القومية وغير ذلك.

* * *

8 – الخيانـــــــــــة

حين عاد الدكتور توفيق إلى المنزل، بعد خلوة ماجنة مع بهية كانت الساعة تقارب التاسعة؛ وهو موعد العشاء في الحياة اليومية للأسرة. واستقبلته ليلى بابتسامتها المعهودة، وكانت تعد المائدة في طمأنينة وادعة. وكانت ترتدي ثوباً رمادياً حاسر الذراعين، مشجراً بحمرة خفيفة تتحرك على طياته الفضفاضة، في بقع متباعدة، توحي بالمرح والوقار في آن واحد... هذا ما التقطه إحساس الدكتور توفيق لأول وهلة، وكان قد اعتاد الاهتمام بثيابها منذ أن ألغى جسدها من عالم رغباته؛ والغالب أنه كان حريصاً على الاستمتاع بشيء منها، ما دامت زوجته، وهو أمر طبيعي في مزاجه النفعي النهم إلى المسرات. ومن حسن حظه أنها كانت مترفة الأناقة، حتى في ثيابها المنزلية.

وقالت وهي تجلس على المائدة إيذاناً ببدء العشاء:

– اتصل بنا زياد.. ألا يجب أن نزوره يا توفيق..

فقال في شيء من الدهشة:

– وهل خرج من السجن؟.. متى...

فقاطعته وقد بدا عليها أنها فوجئت بكلماته:

– اوه.. هل نسيت؟.. ما بك يا توفيق!. أنت تعرف أنهم أطلقوا سراحه منذ يومين.. لقد أخبرنا رضوان بهذا قبل الجميع..

فوضع توفيق راحته على جبهته، كمن يتظاهر بالذهول، وقال:

– هذه الذاكرة اللعينة!. أصبحنا نتنكر حتى للأصدقاء.. يا لي من غافل!..

وجلس على المائدة، وهو يردف في تصميم:

– لابد من رؤيته اليوم.. المسكين.. ثلاثة شهور في السجن، بالنسبة لمثقف حساس مثله!. شيء كثير..

فقالت في ابتسامة صامتة:

– أكثر من خمسة شهور.. من أيلول إلى شباط.. الخريف والشتاء تقريباً.. هذا هو الظلم...

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ولأمر ما حرص الدكتور توفيق على الاستمرار في هذا الحديث، أثناء تناول الطعام، ولعله قد وجد في أزمة صديقه السجين، ما يساعده على إخفاء التصرفات النابية، التي كان يمكن أن تصدر عنه أمام زوجته في مثل هذه العودة العاصفة من موعده الغرامي، قبل ذلك كان يلجأ إلى الخمر، كأسان من «الكونياك» الحاد، تعيدانه إلى الهدوء، بل تبعثان في كيانه ثقة الرجل المعصوم عن كل هفوة.

واستأنف الحديث:

– لا مجال للكلام عن الظلم في هذه الأحوال.. ما دام زياد يعتنق بعض الأفكار، فعليه أن يتحمل النتائج.. أليس هذا عدلاً..

فقالت ليلى في شيء من الجد:

– ولكنهم لم يسجنوه من أجل أفكاره... لم يُتهم بشيء..

فقال بلهجة أقرب إلى المزاح:

– وهذا هو المعقول أيضاً.. على الحكومة أن تنبه جميع الذين يشتغلون في السياسة، إلى أنهم يمكن أن يدخلوا السجن في الوقت المناسب.. ومن الطبيعي أن تحدّد هي الوقت لأن السلطة بيدها دائماً.. ومع هذا فليس من الغريب أن يكون صديقنا زياد بريئاً حقاً. المهم أن لا يكون قد تعذب كثيراً..

– من يدري؟.. كل شيء أصبح سرياً في هذه الأمور..

– ولكنه الأسلوب الذي اختاره زياد على كل حال،

– أي أسلوب؟..

– العمل السري.. ويجب أن يُقاوَم بالطريقة ذاتها.. هذا هو الحق!.

– هل تظن؟..

– طبعاً!. وإلا لما مسّه أحد.. للدولة حساسية خاصة بالأشياء التي تدور في الخفاء، إنها تشم رائحة التآمر في كل ما يخرج عن دائرة الرقابة.. شيء غريزي في كل سلطة.. والغريزة لا تخطيء..

وسكت هنيهة وهو ينظر في عيني زوجته بصورة عفوية. وفي هذه اللحظة، تنبه إلى أنه كان يحاول أن يستشف في نظراتها شيئاً من الارتياب الغامض، كمن يريد أن يتأكد من أن غريزة المرأة قد تكون عمياء في بعض الأحيان. وابتسمت ليلى في وداعة، وقالت:

– هل تراه مخطئاً، حتى لو كان يعمل في السر؟. أليست الحكومة فاسدة كما تقول أنت دائماً!..

– لا، أبداً.. لا ألومه على العمل بأية طريقة، ما دام مقتنعاً بضرورة ذلك، ولكنني ألومه على تسليم نفسه بمثل هذه السهولة.. لو كنت في موقفه لخدعت الجميع لكي أنجو.. يجب أن تُعامل الدولة بالمثل على الأقل.. فهي أولاً وقبل كل شيء تحمي نفسها، وفي سبيل ذلك تستبيح كل الوسائل، وهذا هو الشيء المشروع.. وأخيراً تعمل لخدمة المواطنين.. نعم.. هناك هدفان في كل عمل سياسي.. وقد نسي زياد الهدف الأول.. والغريب أن ذكاءه لم يسعفه في مقابلة العدو..

تلفظ الدكتور توفيق بالعبارة الأخيرة وهو يضحك. فابتسمت ليلى من جديد، ثم ارتسمت على وجهها سمات عابرة من الاهتمام الجدي، وقالت:

– وهل هي مسألة حرب؟. الدولة ليست عدواً..

– بل هي العدو الأكبر.. هذا رأيي. ولذلك تجنّبت السياسة منذ البداية.. من يمد يده إلى العقرب في وكره؟

– صحيح.. ليس من الضروري أن يهتم الجميع بالقضايا العامة..

لأمر ما أحس الدكتور توفيق أنها تعرّض به. لم يكن في لهجتها ما يدل على ذلك، سوى أن كلماتها كانت تنطوي على تمييز واضح، بين الذين يستطيعون التدخل في المسائل «الكبرى»، وبين الذين لا يجرؤون. هذا هو شعور الدكتور توفيق على الأقل؛ والأرجح أن حالته النفسية إذ ذاك، هي التي فرضت عليه هذه الحساسية الغريبة؛ كان يتوقع الاتهام من ناحية أخرى، فجاءه على هذا النحو المفاجئ. وليس غريباً أن يكون قد لمس لدى زوجته نوعاً من العطف على زياد، بل الإعجاب به. وخطر له أنّ من حقها أن تضيف الحب أيضاً، ما دام هو – أي الدكتور توفيق – قد تخلى عنها من الوجهة العاطفية بصورة حاسمة. ولا يعني ذلك أن زياد وحده هو المقصود؛ بل أي رجل آخر، ما دامت «المرأة الأخرى» قد وجدت بالفعل في هذه الحياة الزوجية. كل هذا يشير إلى أن الدكتور توفيق لم يفقد حسه الأخلاقي، الذي يملي عليه الآن شعوراً بالذنب يثقله الارتباك؛ غير أنه – في غمرة السديم من الانفعالات الصامتة – بقي على شيء من التماسك في مناقشة المسألة؛ وانتهى إلى أنه إذا قدر لزوجته أن تعامله بالمثل، فذلك يعني أنها فاسدة في الأصل، تميل بطبيعتها إلى الخيانة والإثم؛ ولذا فإن القدر قد ألهمه أن يعاقبها سلفاً؛ ومن ثم فإن خيانته لها أمر مشروع، تقضي به طبيعة الأشياء، غير أن هذه الخيانة ليست وحدها هي العقاب. فالرجولة والشرف يقضيان باستخدام العنف، الجواب الطبيعي على العار. وخلال هذه الخواطر التي استغرقت هنيهات خاطفة من فترة العشاء، نبتت في ذهن الدكتور توفيق فكرة التخلص من زوجته المسكينة، لا لأنها العقبة في طريق هواه الجامح؛ بل لأنها «يمكن» أن تلوث شرف الأسرة. ومع أن «الإمكان» لا يعني الواقع، بل إنه قد يكون مجرد افتراض وهمي – كما هو الآن – مع هذا، كان الدكتور توفيق صارماً في هذا الموقف. نهض عن المائدة وقد تعكرت أسارير وجهه وقال في تصنع واضح:

– في اعتقادي أنه مجنون.. ولكنه صديقنا ولابد من باقة زهر نقدمها له في هذه المناسبة... ألا توافقين؟

ولما كانت غافلة عما يجري في أعماق نفسه، فقد قالت في شيء من الحماسة:

– نعم.. نعم.. لابد.. إننا أهملناه طوال سجنه.

إذ ذاك حدثت هذه المفاجأة: نهض توفيق في غضب غير متوقع، وتناول زجاجة من «البراندي» الحاد، أعدت للضيوف في غرفة الطعام، وملأ منها كأساً كبيرة تجرعها دفعة واحدة. وقال – وما يزال الانفعال يتلاعب بملامح وجهه – :

– ليلى؛.. إنني لا أثق بالرجال مهما يكونوا.. لماذا يهتم زياد بشؤون السياسة، ويعرض نفسه للسجن والاضطهاد؟.. أتعرفين لماذا؟.. إنه وغد مرتزق، يريد أن يكون شيئاً.. وهو يعرف أنه لا شيء.. هذه هي الحقيقة، يا ليلى، صحيح أنه صديقي.. ولكن الحقيقة يجب أن تُقال دائماً..

قال هذا وهو يملأ الكأس الثانية، ويرفعها إلى شفتيه؛ ثم أردف:

– احذري هؤلاء، يا ليلى، احذري جميع الذين يعلنون وصايتهم على القضايا العامة.. إنهم أسوأ أنواع الرجال.

والواضح أن ليلى قد فوجئت بهذا التغير في مزاجه، على الرغم من أنها كانت على معرفة عميقة بطباعه، ولا سيما حين يشرب الخمر، عندئذٍ كان يوغل في الخيال، فيروي لها أقاصيص عجيبة عن سفالة البشر؛ وكانت تغفر له الإمعان في الكذب – وهو ما تحسه في أحاديثه منذ الكأس الأولى – ذلك لأنه كان في الوقت نفسه، يغدق عليها من آيات الغزل الحار، ما يعجز عنه أشهر العشاق؛ ولا سيما أن هذه المغازلات العاطفية، كانت مقرونة لديه بأعنف النزوات الجنسية.

أما الآن فإنه يبدو لها شخصاً آخر. ولما كانت تجهل كل شيء عن مغامرته المريبة، فقد خطر لها أنه كان يهاجم صديقه دفاعاً عن نفسه. ولأول مرة تراه على هذه الصورة؛ رجل عادي لا هم له في الحياة إلا الشؤون الخاصة والمسرات الشخصية؛ ولا ريب أنها طبيعته، أن يقضي العمر كله سجيناً لأنانيته، مثلما يحدث لأي شخص مغمور، تافه، لا يملك من المؤهلات ما يجعله «شيئاً» مذكوراً بين الآخرين. وبدا لها زياد نموذجاً للنقيض. إن تعرضه للاضطهاد يدل على أنه قد تخطى حدود شخصه، وحطّم سجن التفاهة – إذا صح التعبير – ومن أجل هذا يعتبره توفيق دعّياً، لقد كان عاجزاً عن أن يكون مثله على الأقل، ولابد أنه – أي الدكتور توفيق – من الذين يضعون جميع الآخرين في قالبهم الشخصي، وهو موقف الجبان الذي يعتبر الشجاعة تهوراً أحمق، لمجرد اعتقاده بأنه على صواب.

على هذا النحو بدأ التغير في عاطفة ليلى تجاه زوجها. لمحات خاطفة من الخواطر السريعة، خالية من الانفعال؛ ولكنها كانت إيذاناً بشيء نفسي حاسم في هذه العلاقة. فهل كانت ليلى ترد على خيانة توفيق دون أن تشعر؟. كما لو أن في أعماقها بصيرة خفية تلتقط بوادر الخطر؟.. بل هذا هو الأرجح، وإلا ما كان لها أن تتمثل التفاهة والأنانية في طباع الرجل الذي عاشت معه كل هذه السنوات!..

* * *

9 – العـــــــــداء

كانت الزيارة ودية إلى أبعد حد. تعانق الصديقان في حرارة غير متوقعة – في نظر ليلى بالطبع – ودارت الأحاديث في كثير من الصفاء، عن توقيف المواطنين بصورة غير مشروعة، والسجن دون اتهام أو محاكمة، وغير ذلك. وكان الدكتور توفيق مرحاً كعادته في مثل هذه الجلسات «النسائية»، وكان إلى جانب صديقه زياد في النقمة على السلطة، خلافاً للرأي الذي أبداه في المنزل قبل قليل. ومع أن ليلى تحبّذ مثل هذه المجاملات، حرصاً على العلاقات الاجتماعية، فإنها قالت في نفسها أكثر من مرة، أن على توفيق أن يكون أكثر شجاعة في إبداء رأيه الحقيقي، ولامته في سرها على المجاملة ذاتها، بل رأته منافقاً أكثر مما ينبغي. واستعادت كل مظاهر الرياء في الحقبة التي تعرف من ماضيه: كيف كان يكذب عليها حين يعود وهو يترنح من السكر، ويزعم أنه كان في عيادة ليلية لأحد مرضاه، وحين كان يعتذر عن مرافقتها في نزهة بالسيارة أو سهرة عائلية، محتجاً بالتعب والإعياء، ثم يتألق وجهه حيوية ونشاطاً، لمجرد أن يُلغى المشروع، لأن له مشاريعه الخاصة. وفي ذات يوم نقل إليها نبأ فضيحة عن إحدى صديقاتها الأثيرات. وكان من المستحيل على ليلى أن تصدق هذا، لولا أنها لم تكن قد اكتشفت بعد، هذه الخلة المعيبة في شخصيته: الكذب دفاعاً عن النفس. وكانت الفضيحة «المزعومة» تتعلق بالشذوذ الجنسي. مع هذا، فقد جرحها النبأ في الصميم، وتمثلت فيه البشاعة حتى أنها عزمت على مقاطعة هذه الصديقة، إما لأنها – أي ليلى – كانت تحرص على مظهر الترفع أمام الدكتور توفيق – وكانا في السنوات الأولى من حياتهما الزوجية – وإما لأنها خشيت أن توصم. ثم تبين لها أن الدكتور توفيق كان يختبرها في هذه الناحية، بعد أن لاحظ ولعها الشديد بالزيارات النسائية. وعلى الرغم من أنه كان حسن النية في هذا المجال، فلم يكن يضيره أن تتعلق زوجته المغرية، بعوالم اللذة – على حد شعوره – بل كان هذا يلائم الاستباحة الضارية التي تطبع مزاجه ، على الرغم من هذا، فقد كانت الحادثة من الفجوات التي لا ترمم في حياتهما العاطفية...

لهذا الاستطراد علاقة وثيقة بوقائع الزيارة، فلم تمض فترة حتى وجدت ليلى نفسها معنية بالأحاديث الدائرة؛ وكانت قد تحوّلت إلى نقاش حاد بين «الصديقين»، واهتمام ليلى – وهي في هذه الحالة النفسية – يعني المقارنة الجدية بين الرجلين. كان زياد يقول، رداً على سؤال ضمني عن المستقبل:

– في اعتقادي أننا ما نزال في مرحلة الارتباك الذهني.. ولا نستطيع تحديد التطورات المقبلة في حياتنا السياسية، قبل أن تتوضح الأمور..

فأجابه الدكتور توفيق في تساؤل:

مكتبة علي بن صالح الرقمية

– ولكن الارتباك في الأعمال لا في الفهم.. الجميع يعرفون ماذا ينبغي أن يفعلوا، ولكنهم يعجزون...

فقاطعه زياد:

– لا.. لا أظن... إن الالتباس هو الذي يدفع إلى التردد والعجز.. وضوح الأفكار هو المشكلة الرئيسية... نعم وضوح الأفكار.. أتعرف لماذا سُجنت؟.. عملياً من أجل حماية الدولة.. فأنا بالفعل أعارض هذه السلطة، وأستنكر سياستها وأسلوبها في الحكم.. ولكن هل يعرف الذين سجنوني ما هي «دولتهم»؟.. لا أظن.. إنهم يعتبرونها جهاز الحكم... جميع الذين يديرون شؤون البلاد، ويحاولون أن يقنعوا أنفسهم، بأن كل من يتصدى للدولة، إنما هو مخّرب يجب ردعه. والتخريب في نظرهم، هو أن يمسهم أحد بسوء، أو يفكر بمقاومتهم على نحو أو آخر.. منطق سليم يمليه الشعور بالواجب.. ولكنهم في الحقيقة لا يدافعون عن أنفسهم باعتبارهم مسؤولين عن مصلحة البلاد.. ولو أنهم فعلوا ذلك لكانوا في غاية الحكمة، إنما يدافعون عن شيء وهمي، ولكنه خطر، هو ما يسمونه هيبة الحكم. والهيبة تعني الخوف.. نعم إنهم أنفسهم يخافون هذا الكائن السحري العجيب، الذي يبعث الرعب في القلوب، ويهيمن على المصائر.. ولذلك يريدون أن يخاف الجميع أيضاً. هذه هي الحقيقة... شيء ما يجب أن يبقى أعلى من الإنسان، بل مصدراً للذعر الدائم.. أليس هذا صورة للتقديس الوراثي لدى المتوحشين، أمام رئيس العشيرة؟

وابتسم زياد وقد لحظ في عيون سامعيه ظلاً من التساؤل، وشجّعه أن الحديث كان عاماً، فأردف في شيء من الحماسة:

– هل هناك صعوبة في إدراك هذه الأشياء؟.. إن الدولة هي الخوف الأبدي.. أشنع خوف يعانيه الإنسان.. لأنها منذ القديم كانت ظلاً للموت.. الموت القسري الذي يأتي دون مبرر، مثل الأوبئة والسيول... إن السلطة تقتل دائماً بهذه الصورة. ولذلك بقيت وراثة الخوف في قرارة الجميع.. وما أسوأ أن تكون مهمة الحكام، أن يحموا هذه الوراثة جيلاً بعد جيل..

فقال الدكتور توفيق:

– وما المانع؟ لولا الخوف لما كان هناك نظام.. بل مكان للجبناء أن يفسدوا كل شيء..

– هذا صحيح لولا أن الجبناء وحدهم، هم الذين يستنجدون بهذه الوراثة، حين يتسلطون على الناس... إن الاضطهاد الصادر عن الأقوياء حقاً، هو أمر طبيعي... لأنهم أخذوا بالسيف هذا الحق. أما الضعاف فليس لهم أي حق في ممارسة الاضطهاد... نعم.. الممارسة، هذه هي الكلمة المناسبة... إنهم أعجز من أن يبتكروا شيئاً في هذا المجال.. إنّ همهم الوحيد أن يقلدوا الطغاة الآخرين. ولهذا يجب أن نحتقرهم دائماً.. أتعرف من هم؟.. إنهم جميع الذين يحكموننا الآن.. لقد اعتقلوني من دون سبب، إلا

أنهم لا يجرؤون على الوقوف أمامي وجهاً لوجه.. لا أقول هذا عن نفسي، بل إنني أمثّل كل من يقف في الطرف الآخر...

– هذا هو المرض القديم عند الجميع.. ما من أحد إلا ويعلن وصايته على البلاد كلها..

– وهل هو مرض؟.. إذا لم نفعل، جاء وصاة آخرون.. ومع هذا فإنني أرى العكس، إن القلة هم الذين يعطون أنفسهم هذا الحق، ولذلك يسهل ضربهم كما ترى..

– ليس هذا ما أعني.. إن المشاركة في القضايا العامة، هي حق لكل مواطن.. هذا بديهي،.. ولكن الوصاية شيء آخر؛ أن تفرض نفسك مشرّعاً وحيداً، أي تدين الجميع دون أن تشعر.. هذا هو المرض.. واعتقادي أنه وراثة قديمة في هذه البلاد.. صورة «كاريكاتورية» لحس النبّوة.. أليس هذا صحيحاً؟

وابتسم في شيء من السخرية ثم أردف:

– نعم.. هذا هو الصحيح.. إن السياسة عندنا ما تزال في أيدي المغرورين... أشخاص عجزوا عن أي عمل مفيد، فلم يجدوا إلا النفوذ وسيلةً للهيمنة على الآخرين... ولكنهم معذورون لأنهم لا يستطيعون أن يبرروا وجودهم، إلا على هذه الصورة... مساكين!. مساكين!.

تلفظ الدكتور توفيق بهذه الكلمة في انفعال طارئ، ينبئ عن تبدُّل غير متوقع في مزاجه، لم تفهمه إلا ليلى. فهي الوحيدة التي كانت تعرف أنه قد شرب ثلاث كؤوس من الخمر، قبل أن يبارح المنزل. وقالت في نفسها، وهي تنظر في عينيه:

«– هل يفعل شيئاً نابياً في هذه السهرة؟. ليتني استطعت يوماً أن أمنعه عن الخمر!..». ولكنه خيّب ظنها، فقد بدا التأثر على وجهه، وهو يرد على نظراتها المتسائلة في حنان واضح.

ثم انحسرت موجة الانفعال في نفس ليلى؛ وبأسرع ما يمكن أن يتوصل إليه الذهن من رأي حاسم، قررت أن كل خواطرها المريبة عن زوجها كانت صحيحة؛ وأضافت فكرة جديدة عن طبيعته «العدائية»، وأمام صفة «العداء» هذه – وقد تمثلتها ليلى الآن في حساسية مرهفة – تراءت لها شخصية زياد، في أروع ما يمكن أن يكون عليه الإنسان النبيل... الرجل الذي يعرف كيف يحب الآخرين، ويتحمل العذاب والألم من أجلهم.. دون أن يعرفهم..

أهي ولادة عاطفة جديدة بطلها زياد؟. أم نهاية حب قديم، كان توفيق يظلله بشخصيته المهيمنة طوال هذه الأعوام؟ ما من أحد يدري.. حتى ليلى نفسها كانت هذه الليلة في غاية الارتباك أمام الجواب..

* * *

10- الحـــســـم

حين عادت ليلى وتوفيق إلى المنزل، قالت له إنها متعبة، وتريد النوم في وقت مبكر؛ فقال لها إنه لا يستطيع الرقاد. ولم تسأله المبررات، مع أنها كانت حريصة على معرفة كل شيء عنه في تلك الليلة. ذلك أن إعجابها الشديد بزياد قد أثار فيها فضولاً غريباً. قالت في نفسها وهي تخلع ثوبها الأنيق، وترتدي قميص النوم:

– توفيق.. لماذا تؤذيني إلى هذا الحد؟.. لماذا ترفض هذا الجسد؟

هذا ما قالته في نفسها.

ورأت في تصرفاته ما ينبئ عن إهمال عجيب. لقد خلع ثيابه بدوره ولجأ إلى الفراش.

ومع أنه كان عارياً أو شبه عارٍ، مما يدل على أنه كان عازماً على الاستجابة لكل ما تمليه عليه الرغبات الجنسية، فإنه أشعر ليلى – عن قصد أو غير قصد – بأنها ليست المرأة الجديرة بهذه الرغبة. لقد قال لها في وضوح:

– ليلى... إذا كنت تحبين شخصاً آخر فكوني صريحة.. إنني لا أفهم من الزواج إلا متعة الليل... أتفهمين هذا؟... أن أنام في المخدع مع أُنثى!.. إن جميع الأزواج الذين يتنكّرون لهذا القانون هم مراوغون... هل فكرت يوماً بالمراوغة ؟.. لا بد، لا بد!... إنها الكفر بالحياة.. لماذا تريدين أن يكون زواجنا نوعاً من المساومة في هذا القبيل. إنني أريدك وأشتهيك فلماذا تعمدين إلى إثارة الشكوك في نفسي.. لماذا؟ حين تحب المرأة حقاً فإنها لا تعيش إلا مع اليقين..

* * *

11- اليقظـــــــــة

حين تيّقن الدكتور توفيق أن زوجته لم تعد قادرة على إرضاء نزواته الجسدية، أصبح مدمناً على الخمر. رأى نفسه عاجزاً عن الاستمتاع بأي شيء إذا لم يشرب. كان على أبواب الخامسة الأربعين، السن التي يصبح فيها الجسد مشكلة مرهِقة، لا لأنه يكون سريع التأثر بالحر والبرد والأغذية فحسب، بل لأن الموت يلوح له على نحو مخيف. إن الموت هو همود الجسد، أن يتوقف هذا الحشد المعقد من الأعضاء، عن فعاليته الضرورية؛ أن يشعر الإنسان بأن شيئاً ما، يمكن أن يجهز عليه في أية لحظة. تماماً كما يحدث للسمكة التي تنتزع من الماء، أو كما يعطب شريط الصور «الفوتوغرافية» حين يلاقي الضياء.

ولكن متى يحدث هذا؟ لا بد أن الدكتور توفيق قد طرح على نفسه هذا السؤال أكثر من مرة! وأجاب – كما يبدو من سلوكه – أن هناك صورة رمزية للموت، هي ضجر الجسد: أن تحس أن الأعصاب لا تستجيب لجمال العالم، وأن القلب لم يعد يلتفت إلى شيء. كيف يعتبر الجسد حياً، إذا لم يرتعش أمام الأزهار الجميلة، ويتنسم هواء الربيع المنعش، وتتحرك فيه كل الرغبات الحارة، فيشتهي الطعام والنساء والنزهات وجميع المتع الحسية الأخرى؟ لكي يتاح للجسد مثل هذا الاشتهاء، يجب أن يكون في حالة من اليقظة المرهفة، وقد توفرت للدكتور توفيق بصورة طبيعية طوال الأعوام الماضية، ثم أرغم على اصطناعها بنشوة الكحول. كان هذا – كما قلنا – في مرحلة عدم الاكتفاء الجنسي، مما يدل على أن المرأة – في حياة رجل أرعن مثل توفيق – هي الينبوع الضروري لجميع المسرات.

سبب آخر لا بد أن يذكر؛ هو أن النشوة كانت تحرّك العالم كله حول توفيق؛ كانت تمنحه إحساساً غريباً، بأن الأشياء والناس لا توجد إلا بوجوده؛ بل إنه الروح الحية التي تتغلغل في كيان الجميع. قبل هذا كان الجسد يعزله عن العالم، يشعره بأنه «قطعة» محدودة بين ملايين الأشياء المتناثرة. أليس الجسد هو الذي يرغمه على التفكير الدائم بنفسه، سواء كان مصدراً للذة أو الألم؟. والجسد ذاته يورده التهلكة في النهاية! والغالب أن الدكتور توفيق رفض هذا المصير – شأن كل كائن حي – فعمد إلى الثأر من جسده. والخمرة – كما هو معروف – تخرب الجسد. هذا هو التفسير الدقيق المساير للمنطق، الذي تتبعه ظاهرة الدكتور توفيق – إذا صح أن نقول إن كل إنسان هو ظاهرة تتفرد بمنطق معقول – .

والخلاصة أنه أدمن على الخمر، في هذه الغمرة من الشعور بالعزلة. وكان يبدأ في الغالب، حين يجد نفسه وحيداً متحرراً من رقابة الآخرين – وهي من صفاته الخاصة أيضاً – فالعادة لدى الآخرين أن مجالس الخمر، لا تزدهر إلا في ظل الجماعة، إخوان الإنس والصفاء – على حد التعبير الدارج – .

مكتبة علي بن صالح الرقمية

أما الدكتور توفيق فقد كان على النقيض. فأولى علامات النشوة لديه، أن تتحرك الأشياء في عينيه وتدور، بل تحوم حوله في شغف، كما لو أنه الكائن الوحيد الذي يفهم لغتها. وإذا كان الوقت نهاراً، كان التألق يحل محل الحركة. كل شيء كان يبدو مجموعة متآلفة من الألوان المشرقة.. ترتعش في ضوء الشمس، أو تتهامس إذا كانت السماء مغطاة بالغيوم. وفي جميع الحالات كانت الأمكنة تلوح للدكتور توفيق، وكأنها مسرح أنيق قد أعد من أجل قصة عاطفية مفعمة بالحنين، لا يستطيع أداء أدوارها إلا رجل مثله... ومن ثم فإنه ملزم بأن يُجري نبضات قلبه حتى في صميم الجماد. بذلك يخرج من جلده، ويصبح كل ما هو ليس إياه.. وأية غبطة!.. أن يصبح خلجة الحياة الحارة في كيان العالم!..

ولكنه مجرد إحساس عابر.. فمنذ أن تستبد به النشوة – أي يفرط في الشراب – كان الانفعال الحزين يطغى على جميع مظاهر السكر الفاضحة في حركاته المترنحة، والتواء شفتيه ونظراته الزائغة، فيضع وجهه بين راحتيه، ويبكي، كما تفعل امرأة عاطفية أمام نعش شخص عزيز..

* * *

12 – عــودة إلى السياسة

المألوف لدى هواة السياسة، أنهم يعتبرون دخول الأحزاب وتركها، مجرد تجارب مفيدة، وهو ما يقال أيضاً عن ممارسة الكفاح السياسي، كخوض المعارك الانتخابية، والاشتراك في أعمال الشارع، والتعرض للسجن وغيره، بل إن الحكم نفسه، يبدو لهم فرصة اختبار لا غنى عنه في بعض الأحيان. ومن ينكر أن وزارة أشهر قليلة، يمكن أن تنضج الفهم السياسي، أكثر مما تفعله أعوام من ضوضاء الجماهير! – هذا عند هواة السياسة بالطبع – لأن الحكم يمكن أن يجعل الهواية إدماناً؛ إنه أشبه بمكاسب اللعب الصغيرة، التي تولّد مع الزمن هوس القمار. والمقامر المدمن هو الأكثر براعة في كل حين..

ومع هذا فإن زياد لم يكن هاوياً على ما يظهر؛ لأن تجربته في الحزب الشيوعي لم تكن حادثة عابرة، وإن كانت آثارها في نفسه قد اقتصرت على جوانب ذهنية، يمكن أن توصف بالسطحية، إذا قورنت بالهزات العنيفة التي تحدثها مثل هذه المناسبة، في شخصية مناضل ذكي، كهؤلاء الذين نقرأ عنهم في تاريخ الحركات الثورية، أعني الذين قدرت لهم القيادة في العمل أو الفكر.

إذن لم ينفصل زياد عن التجربة، فأخذ يفكر بمنظمة شيوعية أخرى، يمكن أن تكون البيئة الصالحة لشخصيته «النضالية». وهذا يعني أنه ما يزال على معتقده من الوجهة النظرية على الأقل. وقد ترك جانباً، كل ما يتعلق بالتنظيم والخطط العملية، وأهمل حتى الوقائع السياسية والأحداث الراهنة، وانصرف بكل تفكيره إلى الأسلوب وحده. والحق أن البيئة الحزبية لا تعني في الأساس إلا الأسلوب.. فإذا كانت الأهداف والخطط والشعارات، وجه العمل الحزبي ويده العاملة، فإن الأسلوب هو القلب الذي يمده بالماء. وقديماً قيل الأسلوب هو الإنسان؛ ولكن هذا القول لا ينطبق إلا على النوابغ، الذين تتجسد كل شخصيتهم فيما يفعلون، وتلك هي الأصالة. أما في الميدان الذي نتحدث عنه، فإن الأسلوب هو مناخ أكثر منه إنساناً، أو شيئاً يصدر عن إنسان. ففي الحرب مثلاً يهيمن جو معين يعجز فيه أي جندي عن إبراز موهبته المتميزة: الموت لك أو للعدو. ومن دونه لا تكون الحرب حرباً. وعلى هذا النحو لا يمكن أن تحمل الحركة الثورية اسمها الحق، إلا بتوافر هذا الشرط «الحيوي» – إذا صح التعبير – فما هو في موضوعنا هذا، أو كيف ينبغي أن يكون؟.. لا لكي يلائم مزاج زياد فحسب – وهو أمر هام في نظره – بل لكي يصح القول أيضاً، بأن الحركة هي شيء حقيقي. في غمرة هذه التساؤلات الحائرة، أتيح لزياد أن يقلّب أفكاره على جميع الوجوه، وفي كل مرة كان يتشبث بهذا الجانب المرتبك الغامض من المشكلة؛ حتى أنه قال لنفسه مراراً: إما أن الأساليب هي الحدود الفاصلة بين الأمور، وإما أن الناس حمقى لا يعرفون ما يفعلون. فما الفرق مثلاً بين عصابة اللصوص، وبين شركة تجارية، لولا التباين في أسلوبي اللصوصية

والاقتصاد. إنهما بيئتان تصنعان السلوك البشري، دون أن يخرج عليهما إلا الذين يوصفون بالفوضى أو الانهيار. إن اللص الذي يخون شريعة السرقة، هو نذل مثل التاجر الذي يتخلى عن أعراف الكسب في البيع والشراء، أي يتخلق بما هو غير تجاري... وعلى هذا المنوال نسجت خواطر زياد، وجهة نظر أصبحت مع الزمن فكرة ثابتة، لا يتزحزح عنها ذهنه قيد شعرة، حين يتناول أية قضية عامة: لا جدارة للإنسان إلا في أخلاقية السلوك الذي يقوم به.

بهذه الروح عاد زياد إلى السياسة من جديد. فانتسب إلى حزب البعث العربي. وكان هذا الحزب في مطلع نشأته، حركة عاطفية لا يعرف من أهدافها، إلا أنها تقاوم الأوضاع الراهنة وتدعو إلى وحدة العرب. وترجع صفتها العاطفية، إلى أن الالتقاء بين أعضائها الأوائل، كان ثمرة لتبادل المشاعر «القومية»، أكثر مما كان نتيجة لتفاهم منطقي واضح. وهذه الصفة في الواقع هي من مظاهر القوة، في حزب ناشئ، لأن العاطفة هي الينبوع الذي يستقي منه الإيمان والثقة، وهما من الشروط الأساسية في بداية العمل الجماعي. كما أن الروح العاطفية جعلت هذا الحزب، امتداداً للمشاعر العامة التي كانت تنمو في الشارع بصورة عفوية، وتعلن عن نفسها أحياناً في شيء من العنف أمام الأحداث. وعلى الرغم من أن يقظة الشعور القومي في بلادنا، قد بدأت من القرن الماضي – كما يذكر الباحثون – وحملت لواءها حركات عديدة، فإن حركة البعث كانت جديدة في شعارها الأساسي: وحدة الأمة العربية وعودتها إلى التاريخ...، وذلك لسبب واحد لم يسبق أن ملكته الحركات القومية السابقة، هو أن الجماهير الفقيرة، المهانة... الخ، هي الأمة العظيمة التي قدر لها أن تبعث، بعد أجيال من الخنوع، لكي تؤدي رسالتها الإنسانية. وذلك يعني أن الحزب، قد أدان بصورة عاطفية أيضاً طبقة الحكام والوجهاء والمتنفذين الذين يدعمون بوجودهم كل واقع فاسد – وكل واقع هو فاسد بالضرورة ما دام العرب شعوباً ودويلات – ..

وهذه الإدانة هي الصفة الثورية الوحيدة لهذا الحزب، في بداية ظهوره. وهي ليست صفة سلبية – كما قد تبدو للعقلية المحافظة – بل إنها من أكثر الأمور إيجابية في العمل السياسي؛ لأنه ما من حركة كان يمكن أن تمثل شيئاً من الأماني الشعبية، الأكثر انسجاماً مع طبيعة الأشياء، إلا إذا قامت على دعوة جريئة، للقضاء على الأشكال الزائفة في الواقع الاجتماعي، تماماً كما يحدث للعدالة، حين تدين مجرماً، لكي تحمي الأخلاق. فهل تعتبر العدالة سلبية؟

هذه المسلمة البسيطة الساذجة، كانت حجر الزاوية في بيئة العمل الحزبي، وهي كما هو واضح، تجمع بين الإيمان القومي والحس الثوري في آن واحد. وكان زياد في دخيلته قد استقر عاطفياً على يقين مطلق بالناحيتين. لقد كانت الروح الثورية – أو ما يشبهها – هي بدايته العملية في السياسة – كما رأينا – ولم يخطر له إذ ذاك أن هناك مشكلة جدية، تدور حول التساؤل عن كون العرب أمة واحدة، فهو من أكثر الأمور بداهة، بل إن من أبرز مظاهر التناقض والتشويه الفكري – على حد تعبيره – أن نقول غير ذلك، فأي أحمق يطرح مشكلة من هذا النوع حول الإنكليز مثلاً، أو الألمان أو الروس؟ إن كيان الأمة هو حقيقة طبيعية راسخة، سواء اعترف بها الإنسان أم لم يعترف. ومجرد أنني عربي – كما جاء

مكتبة علي بن صالح الرقمية

في خواطر زياد – يعني أنني قومي. وهذه هي الناحية الحساسة في هذه الخواطر. لماذا تعتبر القومية مشكلة إذن؟. لماذا يدور في بعض النفوس هذا الحس الدخيل، بأن بعض العرب – وليكونوا اللبنانيين أو المصريين – ليسوا عرباً؟. إما أنها نفوس مريضة قد استغرقت في أنانيتها وشؤونها الخاصة، حتى لم تعد إلا عجينة في يد الصدف، وإما أنها غير عربية بالفعل، على الرغم من أنها تتكلم العربية...

لقد جاء في مبادئ الحزب «العفوية» غير المكتوبة طبعاً – أن العقائدية الصحيحة، تدور حول اكتشاف العربي لذاته، أي أولاً؛ أنه: ينتمي إلى أمة حية؛ ثانياً أن هذا الانتماء يتمثل في معاناة الآلام العميقة، التي يحياها كل عربي في مرحلة الانهيار الراهنة؛ ثالثاً الإيمان بأن الأمة العربية تنفض عنها أجيال الذل والخنوع، وتُبعث من جديد لكي تستأنف فعاليتها المبدعة في سير التاريخ؛ رابعاً، أن الحزبي هو واحد من الطليعة، النخبة القائدة التي قدر عليها أن تعطي النموذج الأمثل للعنفوان العربي... وهذه أهم نقطة في الأمر، لأنها تحدد الناحية العملية في حياة الحزبي، أي الأخلاق الثورية.

تلك هي حقيقة المضمون الذي تنطوي عليه القومية، كدعوة نضالية – أو بتعبير أوضح، نعني أن يكون الإنسان قومياً واعياً؛ أو بعثياً – بالتعبير الحزبي ـــ. وبهذا التصور المدروس، انتسب زياد إلى هذا الحزب. وكان في أعماق نفسه شيء من الكبرياء الدفينة، تعبر عنها قناعته الحاسمة، بأنه قادر على أن يفعل الكثير من أجل أمته، وكثيراً ما كانت تحمله هذه الكبرياء، على أن يرى نفسه أقدر من الجميع، بل الأكثر جدارة، بأن يجسد إرادة الانبعاث والنهوض في حياة الشعب كله... وقد كان زياد منذ البداية واعياً هذه المسؤولية في جد عميق، حتى أنه كان يبكي أحياناً من فرط الحماسة والزهو، والإيمان بالمستقبل؛ وحين حمل بطاقة الحزب، تساءل أكثر من مرة، كيف قطع كل هذه الرحلة من سنوات الشباب، دون أن يكتشف أن كل جدارته الإنسانية هي في هذا الاختيار، وأنه لم يكن قبل ذلك، إلا شخصاً عادياً أقرب إلى التفاهة، بل انهزامياً متنكراً لحقيقة وجوده. وقد ضاعف من حدة شعوره، أن الذين اتصل بهم أول الأمر، وبدأ العمل معهم، كانوا نخبة ممتازة من الشبان الأذكياء، ذوي الأخلاق النضالية المتينة، من ذلك مثلاً أنهم لم يكونوا ينفعلون حقاً، إلا من أجل المسائل الشعبية أو القومية، حتى ليبدو أنهم عاجزون عن الاهتمام الجدي، بكل ما يتعلق بشؤونهم الخاصة، ومصالحهم الشخصية، من طلب الراحة أو الدعة – وهو من الأشياء المشروعة بالنسبة للمثقفين إذ ذاك، إلى جمع المال أو السعي إلى النفوذ – وهما من أقوى حوافز العمل السياسي في ذلك الحين. وإذا أضفنا إلى هذا، أن هذه الفئة – وقد تتميز بهذه الصفة دون سواها – كانت جريئة في القول والعمل، إلى حد المغامرة، استطعنا أن نتبين الملامح القوية للبيئة «النضالية» التي اقتحمها زياد، في حماسة منقطعة النظير. ففي كل لحظة من حياته الحزبية، كان يشعر بأنه إنسان له معنى، بل إنها كلمة باهتة تعجز عن أداء شعوره الحقيقي، ففي هذا الشعور، كانت تكمن حقيقة أعمق أثراً، هي أنه الإنسان.. بالأحرف الكبيرة، إذا استخدمنا المفردات الفلسفية المجردة؛ وبيان ذلك أنه ليس شخصاً معيناً، له رغباته الخاصة أو ارتباطاته العائلية وسواها، ولا مواطناً له آراؤه ومصالحه والتزاماته، تجاه عمله أو طبقته، وما إلى ذلك، بل إنه: الحقيقة الإنسانية،

بجميع ملامحها الخلقية:، ملامح الإرادة الصلبة التي قدر لها أن ترسم مصير الجميع... لماذا؟.. لأنها الصورة الحية لعنفوان الأمة. وواضح من هذا، كما يلوح في مشاعر زياد، أن الجوهر الإنساني – إذا صح استعمال هذه العبارة في هذا المجال – هو الصلة القومية وحدها. ولكم ردد زياد بينه وبين نفسه: ماذا أستطيع أن أكون لولا أنني عربي؟.. لا شيء، لا شيء. إن وجودي كله، ليس إلا خدعة باطلة أمام الحقيقة الكبرى التي هي أمتي. كل شيء في الإنسان يتلوث ويزول ويندثر، إلا الوراثة القومية التي كانت قبلي، وتجسدت في أعوام حياتي الصاخبة، وسوف تبقى بعدي وإلى الأبد. ولولا أن الأمور على هذا النحو الرائع، لكان لي – أنا زياد المغرور بنفسه – أن أتلمس الحياة في أي وطن، وبين أي شعب، وما الحياة التي يمكن أن أنشدها بعيداً عن قوميتي؟ إنها المتعة الباهتة، واللذة التي تتكرر دون معنى، كما تتكرر حركات اليدين والرجلين، أو مثلما يستيقظ الإنسان في الصباح، ويذهب إلى عمله، ثم يعود لكي يرتاح ويستيقظ من جديد.

* * *

13 – البـــــعـــــث

كانت فترة عاصفة تلك التي تلت سقوط فلسطين، والبلاد في غليان جامح من غضب الجماهير؛ ليس في سوريا فحسب، بل في أرجاء بعيدة من الوطن العربي. وهو أول دليل على صواب المبدأ الذي انطلق منه الحزب: وحدة الشعور لدى الشعب. وكانت هناك وحدة أيضاً في الطرف المقابل؛ أي لدى المسؤولين الذين كانت الكارثة على أيديهم، ولكن شتان بين الموقفين. كان هؤلاء قد وحدوا صفوفهم بصورة غريزية، في موقف عنيد، ترسّخ في وجودهم منذ عشرات السنين، هو عدم الاكتراث. وماذا يعنيهم أن تذهب فلسطين ويتشرد أبناؤها، أو يلحق بها قطر آخر. وقد كان هناك من يصف هذا الموقف بالخيانة؛ وهو وصف خاطئ، لأن الخائن لا يخلو من التصميم الواعي، على إلحاق الأذى بشعبه ووطنه. أما الطغمة الحاكمة – كما كان يدعوها البعثيون إذ ذاك – فقد كانت أعجز عن وعي الجريمة، التي اشتركت في ارتكابها. ولو كان هناك عبارة تطلق على من يوجد بفطرة خائنة، لكانت أصدق وصف في هذا المجال. وها هنا يكمن أول حكم ثوري في وعي زياد للعمل الحزبي. فالذين أضاعوا فلسطين وُجدوا من أجل ذلك، هم وجميع الآخرين الذين من شاكلتهم، مثلما توجد النار للإحراق، أو يوجد المعدن لصنع الأواني والأدوات. تلك هي طبيعة الأشياء.

قد يبدو ذلك عديم الأهمية، ولكنه في الواقع أساس المشكلة. فمنذ أن نفترض أن الشيء يمكن أن يكون في الوقت نفسه شيئاً آخر، نقع في التناقض التقليدي المعروف، الذي يشكل الفكر والعمل. لقد خرجت المظاهرات الشعبية هادرة كالرعد، تطالب باستعادة فلسطين؛ ومن يستطيع شيئاً إذ ذاك غير الذين كانوا في سدة الحكم أو الزعامة؟ هذا هو التناقض الشعبي المخيف، ولابد من إزالته. عندئذٍ أثار حزب البعث قضية الإدانة النهائية، وكان في ذلك موضع انتقاد الجميع. لقد قيل إذ ذاك: كيف تحكمون بالموت السياسي، على الرؤساء والملوك والقادة، الذين يجرّون خلفهم ماضياً حافلاً بالكفاح؟. وإذا قدر لجميع هؤلاء أن يتواروا فهل هناك من هو جدير بأن يخلفهم في تاريخ البلاد؟...» نعم.

إن أياً من أبناء الشعب، العاديين، العديمي الثقة بأنفسهم، هو أقدر على فهم المصلحة العامة، والدفاع عن القضية الوطنية. هذه هي الروح التي حملتها البيانات الأولى للحزب. وكان زياد مؤمناً بها إلى الحد الذي دفعه ذات يوم إلى أن يؤلف – في خيالاته بالطبع – حكومة من الفلاحين والمتشردين والطلاب، الذين يذهبون إلى المدرسة بسراويل بالية.

وعلى الرغم من تعقد الأحداث والمشاكل في ذلك الحين، فإن المحور العميق الذي كانت تدور حوله عقيدة البعثيين جميعاً، – في مجال العمل السياسي بالطبع – هو أن القانون الدارج في سياسة البلاد،

يجب أن يحطم من أساسه، لا لأنه دخيل على طبيعة الأمة فحسب، بل لأنه يتحدى كل منطق معتدل في سير التاريخ. فالذين لا يكترثون بالمصلحة العامة، بل يستهترون بالشعب وقضاياه، لا يكفي أن يُزاحوا من الطريق فحسب، بل ينبغي أن توجَّه إليهم أقسى الضربات لكي يستفيقوا على حقيقة أنفسهم، ويدركوا أنهم أجدر بالمعاقبة والحساب العسير؛ ولا سيما أن جميع الظواهر، تدل على أنهم لا يؤمنون حتى بالدولة والحكم، كحد أدنى من الشعور بالمسؤولية. إنهم مجموعة سديمية من المصالح الشخصية، لا يعلم إلا الله حدودها ومراميها...

هل كان الحزب مخطئاً حين ربط خطوته العملية الأولى في الكفاح السياسي، بإدانة الطبقة الحاكمة أو المتنفذة على هذا النحو «العدائي» الصارخ؟.. لا. لقد كان الحزب على يقين من صواب هذه الخطوة وضرورتها، ليس في مجال السياسة فحسب، بل في المجال القومي أيضاً. وكم قال لنفسه وللآخرين أنه من العار على الأمة أن تضع مقدراتها في الأيدي الملوثة العاجزة. إن كلمة البعث نفسها تؤكد هذا الرأي. فما دامت الأمة العربية في مرحلة انبعاث – وهي المسلّمة التي لا يرقى إليها الشك – لابد من أن يكون «الأحرار» الذين يعيشون كل قيمها الخلقية ويعانون آلامها، ويتبينون في نفوسهم نزعة التصميم على إحياء ما همد من فعاليتها الحضارية المبدعة، لابد من أن يكون هؤلاء وحدهم المالكين لزمام حياتها الجديدة. فليست القضية مجرد نزاع من أجل المصلحة أو النفوذ، أو محاولة لانتزاع القيادة وما إلى ذلك – وهو ما تشير إليه النظرة النفعية المريبة في أغلب الأحيان – القضية هي حق العربي في حماية كرامته وكرامة أمته. ومن يفرِّط بحقه في هذا المجال؟..

لأمر ما كان زياد يلح على هذه النقطة في جميع المناسبات، وخلال البحث في شتى القضايا الحزبية. والواقع أنه إلحاح جدير بالتأمل والاهتمام، لأنه يقف عند أخطر مشكلة نضالية في حياة الحزب، هي أخلاقية العمل. فما دامت الروح العاطفية المشحونة بالكبرياء والتحدي هي البداية، لابد من أن يكون الارتجال شيئاً مألوفاً في الخطوات العملية التالية. وللارتجال ميزة لا تنكر كما هو معروف، هي أنه يفسح المجال للمبادرة والاندفاع الرجولي أحياناً، غير أنه قد يكون أشد خطراً من التردد والانهزام، حين يكون نتيجة للعجز، عن القيام بالعمل المناسب في الوقت المناسب. وخطورته هي أنه قد يجعل الإنسان – سواء كان مناضلاً واعياً أو رجلاً عادياً – أداة في يد الظروف أو وسيلة يستخدمها الخصوم، لكي يبلغوا أهدافهم المعادية. فما الذي يضمن للمناضل الواعي مثلاً حين يندفع في التحريض على إسقاط حكومة ما، ما الذي يضمن له أن لا تكون هذه العملية كلها، جزءاً من خطة مدروسة وضعتها الحكومة نفسها، لكي تدعم وجودها إما بالكشف عن المناضلين أمثاله للقضاء عليهم، وإما بأن تبرر لنفسها أساليب العنف، التي لا توجه بطبيعة الحال إلا ضد الشعب. ألا يحمل المناضل قسطاً كبيراً من المسؤولية في هذه المناورة؟. نعم؛ بل إنه يتحمل كل المسؤولية، حتى لو كان عمله الجريء المخلص، ذا أثر بعيد في تقوية روح النضال لدى الشعب. لم يكن ثمة مجال للتوقف عند هذا المثال – وهو نموذج لا أكثر – لولا أن الحزب قد وقع في مآزق كثيرة من هذا النوع، بسبب الارتجال. من ذلك

مكتبة علي بن صالح الرقمية

مثلاً أنه قاوم بعض العهود دفاعاً عن مطالب شعبية آنية، كتعديل قانون انتخابي مثلاً، أو إصدار تشريع لمصلحة العمال أو الفلاحين، وكانت النتيجة أن توطدت دعائم السلطة، وأوغلت في التعسف والسيطرة. وحين بدأت مرحلة الانقلابات العسكرية، أو مرحلة الثورات على حد التعبير المتفائل؛ عرف الحزب مآزق من نوع جديد. لقد كانت له شعارات قومية تستجيب لأماني البلاد، وتنم عن روح واقعية متبصرة – على الرغم من أن الكثيرين كانوا يتهمونه بالمثالية والصوفية أحياناً – ولكنه – أي الحزب – لم يكن يملك من الخطط العملية ما يعصمه من الوقوع في حبائل الآخرين. وهكذا كان يدعم الحكومات العسكرية فيقرب إليها الشعب، ثم يتصدى لها، ويقاومها، فيعمل على تهيئة الظروف لحكم آخر. وفي معظم الأحوال كان يجد نفسه في النهاية أشبه بالضيف غير المرغوب فيه في مأدبة أو احتفال. صحيح أنه كان يجمع حوله المزيد من المعجبين والأنصار، والحزبيين العاملين أيضاً؛ ولكنه في الوقت نفسه كان يزداد سخطاً على اندفاعه، وتذمراً من تورطه في مواقف لم يحسن تقدير نتائجها على العموم.. ومع هذا كله فقد كان حريصاً بصورة عفوية على سمعته الأخلاقية، أي على أن يتجنب الأساليب البغيضة، التي تدين الأحزاب ورجال السياسة غالباً، كالانتهازية المفضوحة أو التملق للحكام أو الشعب، أو التكالب على الحكم والارتزاق عن طريقه. وهذا لا يعني أنه لم يكن فيه أفراد لا يخجلون من الإعلان عن وصوليتهم بشتى الوسائل.. لقد كان من طبيعة الأشياء أن يوجد فيه أشخاص من هذا القبيل، لسبب واحد، هو انتقاد الخطط الواضحة الهدف، التي يمكن أن تكشف فيها العناصر الدخيلة، عن روح النضال الثوري، ولا سيما أن الحزب خاض منذ البداية معارك، فرضت عليه تحمل اضطهاد السلطة، وأدخلت أعضاءه السجن، ثم وضعته بعد ذلك في تجربة أكثر أهمية، هي إغراء الحكم وهو – كما هو معروف – كاشف للكثير من نقاط الضعف في الخلق النضالي.

ولكن جميع هذه المشاكل كانت تجري في الخفاء، أي في سريرة زياد، والمرجح أنها كانت تعتلج أيضاً في نفوس الكثيرين من رفاقه الحزبيين، وآية ذلك، أن البيئة الحزبية لم تتخل يوماً واحداً عن التلويح في كثير من القسوة أحياناً، بحاجتها إلى تحديد حاسم للخلق البعثي؛ مما يدل على أن هناك ملامح مشتركة عن أخلاق المناضل الطليعي، تعيش في تصورات الجميع. وقد مرت بزياد، فترة استسلم فيها لمزاج المثقف، المتردد، المتشكك بالعمل – وهي صفات معروفة لدى المثقفين الذين يلزمون أنفسهم بقضايا شعبية – فجعل يرصد هذه الملامح في آراء الآخرين ومواقفهم؛ أو بتعبير أوضح تلمس الإنسان – بالمعنى الكبير – لدى كل حزبي. نلاحظ أن هناك نماذج فذة تتجاوز أحياناً حدود المعقول – الذي كان يغلف حياته هو – ففي أحد الأيام أثيرت في إحدى فرق الحزب مشكلة التعارض بين النضال وبين مقتضيات الحياة الطبيعية: هل يعتبر الزواج مثلاً، أو خدمة الدولة في وظيفة ما، مروقاً على الحزبية الحقة؟ بل قيل أيضاً إن القليل من الدعة، أو عدم مشاركة الشعب الجائع، تقشفه المفروض وفقره وزهده، هو مما يتنافى مع الخلق الثوري، وها هنا فكر زياد طويلاً بالشقة البعيدة عن هذه البيئة، وبيئة الحزب الشيوعي؛ فهنا – أي في هذا الحزب الأخير – كان الدفاع عن المصلحة، وطلب الرفاه من

الأمور التي لا تُناقش بأي حال. وقد كانت هذه النماذج من الشبان العاطفيين، غير أن الروح نفسها كانت تتجلى لدى الأكبر سناً، والأكثر تعقلاً، وإن اختلف المضمون. فمسألة اشتراك الحزب في الحكم، أو مجرد تأييد أية حكومة قائمة، كانت من أعمق الهزات التي عصفت بالأوساط الحزبية، وجرّت النقاش والجدل: كيف يمكن للطليعة المتمردة أن تمد يدها إلى هذا المظهر المتعفن من الواقع الفاسد؟ – تلك هي العبارات المستعملة إذ ذاك – وكان زياد على الرغم من ارتباكه في مناقشة الأمور السياسية، إلى جانب المستنكرين الذين يعتبرون هذا التصرف أكثر من خطأ، سهل الترميم؛ بل كانوا يرونه انحرافاً خطيراً في العمل الثوري. ولم تكن هناك مبررات واضحة؛ يقول بعضهم (إن الحكم يعني إلقاء السلاح، وآخرون يصرون على أنه – أي الحكم – مفسدة للروح النضالية، لأنه يفتح باب الانتهازية والوصولية، أمام جيل خلق للكفاح والتضحية. وكان هناك نفر يضيف أعجب تفسير لهذا الموقف، وهو أن الدولة، وكل دولة على الإطلاق، هي شكل زائف أمام حقيقة الأمة، وأن الركون إليها كغاية أو كوسيلة، ولو إلى حين، هو تجديف على القومية والتاريخ؛ وذلك لأنها لا يمكن أن تكون إلا أداة للتحكم والبطش، أي أنها تلغي بالضرورة كل حرية حقيقية، من حياة الشعب، ومعنى ذلك إلغاء أحد الشعارات الرئيسية في يقظة الأمة وكفاحها، كما أعلنها الحزب..

ومع هذا فإن دعاة الحكم، والقائلين بالاستجابة للمألوف من أعراف المجتمع، كانوا أكثر عدداً وأقوى رأياً، ذلك أنهم لم يكونوا يدافعون عن شيء جديد في التقاليد الحزبية. فالمعروف أن السياسة في بلادنا منذ أقدم العهود تعني الحكم، أو السعي إلى الحكم، أو معارضة الحاكمين. وفي جميع الأحوال تتاح للسياسي حماية المصالح المرجوة، في حدود التزاماته أمام الشعب.

والواقع أن هذه المسألة كانت تضيع دائماً في ضوضاء الأحداث السياسية والمعارك الحزبية. وكان الواقع العملي يجيب عليها بصورة عفوية، ولكنها حاسمة. والجواب هو عدم الرفض. والحقيقة أن هذا الجواب هو دفاع عن النفس أكثر منه رغبة في السلطة والنفوذ. فلكي يوجد الحزب دائماً وينمو ويستمر في النمو، يجب أن يذعن لسنة التنازع على البقاء، أي أن يتوسل بالحد الأدنى من سلاح الآخرين. ولما كان حزباً ثورياً، فإن جميع الآخرين هم من الخصوم؛ والسلاح المتعارف عليه في هذا المجال، هو القوة الصادرة عن النفوذ في دوائر الحكومة، فذلك يفسح المجال للحزب، أن يحمي جماهيره على الأقل.

ومن هنا يبدو في وضوح أن القضية الأساسية للحزب، هي قضية المناضل الذي صمم على أن يكون شيئاً في حياة وطنه، لا في حياته الشخصية. إن كثيرين ممن يتبينون في أنفسهم حس القيادة، ويعتقدون أن مجرد وصولهم إلى دفة الحكم، سوف يبدل تاريخ الوطن بأسره. ألا يكفي أن هناك جمهوراً – لا يستهان به – يدعمهم ويؤثرهم على الآخرين؟ – هذا ما يقولون في الغالب – ويستمدون فيه ما يدفعهم إلى أن يتصرفوا في شجاعة تدعو إلى الإعجاب.. ولكنهم مع ذلك يبقون المساكين الضعاف النفوس، لأنهم يشعرون أبداً، بأنهم أدوات عابرة، تحركها يد ذكية ماكرة، تعرف ماذا تفعل! وهم لا يعرفون!

مكتبة علي بن صالح الرقمية

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

14 – الوحـــــدة

كان ذلك عام 1958؛ ولا مجال للحديث عن الوضع السياسي في سوريا إذ ذاك. فالمهم أن الوحدة بين سوريا ومصر قد أعلنت في هذا العام.. وكم ذرف زياد من دموع الفرح والحماسة في هذه المناسبة. لم يكن عاطفياً – كما هو واضح في الصفحات الماضية – ولكنه كان قومياً في الصميم. ومن ثم فقد اعتبر الاحتفال بعيد الوحدة، حادثة خارقة قلما يجود بها الزمن – كما يقولون ــ. وأي شيء في العالم يمكن أن يضاهي هذه الفرحة؟.. أن تنشأ دولة عربية من قطرين متباعدين؟، صحيح أن سوريا كانت غير مصر، وكذلك شعباهما. ولكن الدم واحد. هذا ما ردده زياد أكثر من مرة، وكان يضيف: «... يكفي أن جميع القلوب كانت تتفتح على المستقبل العظيم!. يكفي أن دمشق، المدينة النفعية الجامدة، قد ابتهجت من الأعماق، كما لم يتم لها منذ أجيال. لماذا؟.. لأنها لم تعد دمشق، بل أصبحت واحة جميلة في هذه الصحراء المترامية من أرض العرب... إن الذين وجدوا في الوحدة مغامرة غير مأمونة النتائج، هم القلة التافهة – ذلك هو حكمه عليهم – لا لأنهم بعيدون عن وجدان الأمة فحسب، بل لأن وجود العرب في مثل هذا التمزق القومي، والتجزئة الوطنية، هو الانهيار الذي يوصم الجميع بالتخاذل والعار. لقد كان ينبغي أن تهدم هذه الحدود الدخيلة منذ أمد طويل، أو على الأقل أن تتصدع، وتفتح فيها دروب عريضة لالتقاء الجماهير العربية من كل قطر».

في غمرة هذا الشعور، لم يكترث زياد بقضية حل الحزب، في حين كان هناك كثيرون يرونها على جانب من الخطورة. لقد قيل إن الحزب كان مرغماً على بوجوده، من أجل هذه الخطوة النضالية – التي هي من صميم شعاراته – ولكنها لم تكن أكثر من خطوة، بل ما تزال في مرحلة نظرية بحتة، من الوجهة الثورية. إنها لم تتجاوز وحدة السلطة والعلم والدستور، وهي جميعاً من الأمور التي يمكن أن تعبث بها الأحداث. هذا ما كان يردده بعض المثقفين في الحزب، متجاوزين العاطفة الجماهيرية. ولم يكن زياد منهم؛ بل إنه آثر الارتياب بالحزب نفسه، على أنه يدين شيئاً من صواب الوحدة. تساءل: «ألا يمكن أن يكون هذا آخر ما يستطيع الحزب أن يفعله في الواقع؟.. ألم نكن ضائعين في متاهة من الغرور، حين زعمنا القدرة على إنجاز كل ما ندعو إليه من أهداف كبيرة. ونحن لا نملك إلا هذا المدى القصير؟..». ولم يتوقف زياد عند حسن الظن في هذا المجال. بل نزعت به الأفكار إلى ارتباكه الذهني القديم، حول علاقة النضال بالحكم. إذا كانت الوحدة هي الهدف القومي، الذي يبدأ الآن حياته الواقعية، فهل يعني ذلك، أنه لم يكن هناك هدف آخر يلعب دوره الخفي، في حفز الحزبيين – أو بعضهم – إلى الكفاح، ويتوجه إلى غايته؟ ولا سبيل إلى التفكير بهذا الهدف، لأنه أعلن عن نفسه بصورة لا تقبل النقاش. فمنذ الأيام الأولى للعهد الجديد، أصبح الحزب في صلب الجهاز الحاكم.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الواقع أنها كانت أزمة حقيقية في وجدان الحزبي القديم، أزمة بدأت بالريبة والغموض، وتبلورت أخيراً في هذا الشكل القاسي: «هناك خطان متباينان لا سبيل إلى الدمج بينهما على الإطلاق. خط الكفاح الشعبي الذي يسير في منطق الثورة، دون أن ينحرف أو يهادن، وخط العمل «الرسمي» الذي يعتمد على السلطة في تحقيق أهدافه. الأول ينطلق من آلام الجماهير وعنفوان التمرد في يقظتها القومية والطبقية وغيرها، وهو خط صاعد أبداً، ينمو ويتسع لأنه من انطلاقة التاريخ ذاته؛ ومن ثم فهو يدين كل شكل من أشكال الاستقرار، في بنية الواقع «المتفسخ»، ويرفض كل مساومة مع هذا الواقع. أما النمط الثاني، فإنه مرغم على مسايرة التطور الطبيعي، البطيء، لحياة البلاد؛ ولذا فإنه يداري جميع المتناقضات، بما في ذلك استخدام الأساليب غير المتفقة مع تفتح الحياة الجديدة. فهو قد يبرر أشياء كثيرة لدعم السلطة، وترسيخ نظام الدولة، مع أن كيان الدولة، لا يقوم إلا بتثبيت السلطة، وكل سلطة هي إقليمية ضيقة الحدود بطبيعة الحال؛ ومن ثم فإن هيبة الدولة تعني إقامة السدود المنيعة، بين كل قطر وقطر آخر. هذا مثال واحد عن التناقض بين الشعار المرفوع وبين الواقع». وهناك العديد من المظاهر الأخرى لهذا التناقض، استطاعت ملاحظات زياد العفوية أن تلتقطها منذ الشهور الأولى في عمر الوحدة. فكان يقول مثلاً، إن المعنى الحقيقي لهذه الخطوة التاريخية هو توفير الشروط الملائمة لتفجير الطاقات الشعبية، في ميدان أرحب؛ وهل يعني التقاء الجماهير في البلدين مصر وسوريا غير هذا؟.. ولكنه تبين أن هذه الرحابة، لا يمكن أن تؤدي غايتها، إلا إذا فرضت الدولة وصايتها على الشعب، المتفكك، البائس، الذي تهدده مؤامرات «الرجعية والاستعمار في كل لحظة»، – على حد التعبير الدارج – فالوصاية إذن هي السيطرة والتحكم، أو أنها على الأقل إلزام البلاد باتجاه واحد. وليس الاتجاه هو المهم. فقد يكون متفقاً والهدف القومي – بل المهم أنه لا سبيل لأي اتجاه آخر. وهكذا توضع الحواجز أمام نمو الشعب وتفتحه. قد يقال إن هناك كثيراً من الأنفاس المريضة، الدخيلة، يمكن أن تفسد جو الحرية إذا رفعت هذه الوصاية، ولكنه أدهى ما يبرر فرض النظام بآليته وجموده على السير العفوي لحياة الجماهير. إن الذين يخافون على الشعب من كل هواء دخيل، هم الذين لا يؤمنون بالشعب، ولا يرونه جديراً بصنع مصيره، وإلا، لماذا يضعون حوله السدود؟ ويوصدون عليه جميع النوافذ؟.

وعدا هذا، فإن الشعب كان في جميع مواقفه العفوية سليم العاطفة والبصيرة؛ إنه لم ينحرف عن الخط الطبيعي الذي تفرضه نزعة التحرر في تاريخه.

وعلى هذا النحو كان زياد يتبين المسافة الفاصلة، بين السلطة والشعب في ميدان العمل الثوري. وكانت هذه المسافة تزداد اتساعاً كلما اشتد حرص الدولة على حماية التفتح الشعبي، من محاولات التضليل والإفساد، التي كانت تقوم بها الحركات السياسية المشبوهة، أو المخابرات الأجنبية وعملاؤها وغير ذلك. لقد كان هناك اعتقاد جازم بأن الشعب ينبغي أن يُحصَّن، لأنه أضعف من أن يقف وحده أمام هذه الأخطار... إذن لابد من أن يكون في النظام القائم، زاجر شديد لكل محاولة دخيلة، يبسط يده الحديدية في الوقت المناسب.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

ولا ريب أنه من حقوق الروح الثورية على الدولة. ولكنه الحق الأخير. لأن الثورة تطالب قبل ذلك بأشياء أكثر خطورة. الثورات تطالب أولاً بالطعام اليومي لجميع الجائعين، الذين رفعت بإسمهم شعارات الثورة... تطالب بالحد الأدنى من حرية الحياة، ونقاء الضمير، الذين سحقهم الهوان أجيالاً، ولوثت وجدانهم مذلة الحرمان... تطالب بالقليل من الفرح، للقلوب التي أقفرت إلا من نيران الغيظ ودخان الهموم...

عندما تنظر الدولة في هذه المطالب، يحق لها أن تضع سياجاً حول الجماهير.

* * *

15 – عـــــودة

كان الدكتور توفيق نموذجاً رائعاً للزوج والأب، لم يكن يجد السعادة إلا في مغازلة زوجته الجميلة، ومداعبة طفليه الصغيرين. ولكنه – منذ أن تعرض لهذه المحنة – تغير على نحو عجيب، ولا سيما أن زوجته قد أخذت الطفلين وهجرت المنزل – لقد عرف محنة غريبة، قلما يعانيها قلب إنسان. تيقظت فيه شهوة الموت قبل الأوان، وأصبح على يقين، من أنه إذا لم يمت بين يوم وآخر، فإن حياته لن تكون إلا عبئاً ثقيلاً، بل شقاء لا سبيل إلى احتماله. ولم يكن شقياً في الواقع، وليس هناك أية حادثة مثيرة، يمكن أن تعتبر نقطة تحول في وجوده، على النحو الذي يبدو لدى الشخصيات الروائية: خيبة حب مثلاً، أو جريمة أو خيانة صديق... لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل في حياة الدكتور توفيق، ومع هذا فإن المعاناة كانت قاسية إلى حد مخيف، حتى أنها بدلت كل مزاجه، دون أن تتوضح في ذهنه؛ بل أحدثت في سلوكه تغيراً مفاجئاً لا سبيل إلى فهمه.. أصبح يشرب الخمر في شراهة عجيبة، وقبل ذلك كانت الخمرة لديه من عناصر الاستمتاع بالسهرات الجميلة، أو حفز الشهية إلى الطعام. وكان – قبل هذا أيضاً – مولعاً بالنساء ولعاً جنسياً جامحاً، يجعل مغامرات الليل من الواجبات اليومية، بل كان من برامجه المستهترة في هذا المجال، أنه أراد أن يتذوق المرأة – على حد تعبيره – في كل آونة من النهار أيضاً. فكان يستهويه مثلاً أن يقارن بين متعة الساعة العاشرة صباحاً، ومتعة بعد الظهر، أما الآن فإنه لم يعزف عن النساء فحسب في اشمئزاز بالغ، بل أصبح يمقت مجرد الحديث عن الجنس. ولكنها ناحية ثانوية على كل حال. فالمهم أن الموت أصبح شغله الشاغل.

وكان يعيش وحيداً في منزل جميل لا يخلو من مظاهر الترف، والمعروف أن الوحدة مع الأرائك الوثيرة والستائر الحريرية، والسجاد العجمي النفيس، والراديو والهاتف والتلفزيون والسيارة الأنيقة على الباب، تبعث الأمل والتفاؤل في أشد الأمزجة سواداً، لأنها – أي الوحدة – تكون عندئذٍ كلمة مرادفة للحرية الحقة؛ وهكذا كانت حتى الساعة الرابعة من الصباح في يوم دافئ من شهر آيار. في هذا الوقت المبكر كان توفيق يفتح عينيه في يقظة مفاجئة، كما لو أنه كان على موعد مع الروح الشرير. وفي ومضة من الوعي الخاطف تراءت له الحياة – أو حياته إذا شئنا الدقة في التعبير – موكباً لا نهاية له من الحماقات، يمتد من أبعد الذكريات إلى اللحظة الراهنة... ولكن هذه اللحظة بالذات تعني الشيء الكثير، تعني تصميمه النهائي على هجر الحياة العائلية: زوجته وطفليه... كان يحبّهم من الأعماق، ولكنه – أمام الفضيحة – لم يجد بداً من اتخاذ الموقف الذي تقتضيه الرجولة. إذا كانت «بهية» – وهي المحظية التافهة لمجنون تافه – قد أثارت الريبة في نفوس الجميع، وجعلته في نظرهم موضع الشبهة؛ فلابد له من أن يتخلى عن كل شيء في سبيل كرامته المهانة.. وهذا ما كان.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

* * *

16- رسائل متبادلـــة

«أهذا أنت إذن؟» – هكذا بدأت ليلى رسالتها الأولى إلى زوجها السابق الدكتور توفيق – أهذا أنت إذن؟.. ما كان لي أن أتصور أن الحياة يمكن أن تكون معقدة إلى هذا الحد، حتى أنني لم أستطع فهم القليل منها، إلا بعد فوات الأوان.. نعم.. القليل الذي هو أنت. ولكنك لست مسؤولاً عن شيء، لأنك لم تكن إلا حقيقتك في كل حين. وكان علي أن استمر على حبك من أجل هذا، مثلما أحببتك قديماً، غير أنني لا أستطيع أن أنسى كم كنت غبية – حين أسلمت نفسي لهذه العاطفة دون بصيرة؛ وكان علي أن أتيقظ منذ اللحظة الأولى، لأنك كنت أكثر وضوحاً مما ينبغي، ولا ريب أن هذا من جملة الفضائل التي يفخر بها الرجل حين يكون طرفاً في الحب، ولكن الطرف الآخر – أي المرأة – تكره الوضوح في جميع التجارب الأولى. هذا ما كنت فيه أنا على الأقل. ولعلك تذكر كم كنت أنفر من لفظة الحب ذاتها، يوم كان الحب كل وجودي، وكنت أقول لك إن في علاقتنا شيئاً قدرياً لا نملك فيه حرية الاختيار، في حين كنتُ على يقين من أن حادثة صغيرة، كانت تستطيع أن تضع بيننا سداً منيعاً، بل تقضي على الحب كله دفعة واحدة. نعم... صدفة واحدة، كانت كفيلة بأن تجعلنا غريبين من جديد. أما كان باستطاعة ذويّ أن يرغموني على الزواج من رجل آخر؟.. أما كان لي أن أكتشف – ولو على سبيل الوهم الخاطئ – أنك تخدعني؟.. كل هذا كان ممكناً، وأكثر منه؛ ولا أظن أنني أكون ملومة إذ ذاك؛ فمنذ أن أحببتك تلاشت من حياتي كل المخاوف المتوارثة، التي كانت تبعثها في كياني مسألة «الآخر»: أي الرجل الذي ينبغي أن أركن إليه وأسلمه مصيري... إنها مسألة العمر كله. كنت أقول: هو ذا الرجل، مع أنك لم تكن أكثر من عاشق وفي. وهذا الوفاء وحده بدد مخاوفي جميعاً. ولكنك لم تكن جريئاً إلى الحد الذي يرغمني على الوفاء أنا أيضاً. لم تنتشلني من أحزان الحب في الوقت المناسب، بل كنت تبدو حريصاً على الاستمتاع بهذه الأحزان، كما لو أنها الشاهد الوحيد لديك على حبي. ومع أنني كنت أعرف مدى حرصك على تعذيب نفسك، وذلك دليل الوفاء أيضاً، فإن شيئاً صغيراً كان يضع أمامي كل الاحتمالات الأخرى، ويدفعني على الاعتراف بالظروف الطارئة، التي يمكن أن تعبث بحبنا الناشئ. هذا الشيء هو تأكيدك الدائم على أن هذا الحب هو تجربتك الأولى، ولا أعرف لماذا كنت أخاف هذا التأكيد – مع أنني كنت أستعذبه في الوقت نفسه – قد يكون هذا لأن كل تجربة أولى هي ثمرة الحرمان، ولا ضير في ذلك من الناحية العاطفية، فالقلب الظامىء هو بريء دائماً، إنما الشك في براءة الجسد المحروم. ليتك عرفت مرة واحدة، كم كنت سيئة الظن فيك من هذه الناحية..».

– ليلى –

مكتبة علي بن صالح الرقمية

* * *

وجاء في رد الدكتور توفيق:

«يا للخطأ الشنيع!. في الحب الحقيقي يكون الجسد أكثر براءة من الأزهار. أو هذا ما كنت عليه أنا بصورة خاصة. منذ أن عرفتك وأحببتك، تلاشت كل رغباتي الجسدية، وأصبحت المرأة في وجودي كائناً أثيرياً ينشر العطر والضياء، ولا شيء آخر... في عينيك الدافئتين كنت أقرأ الحنين إلى الحدائق المشرقة، والينابيع الظليلة، وفي ابتساماتك المرهفة كنت أحس همسة الشعر. فكيف خطر لك أنني كنت أريد اصطيادك، على هذا النحو البهيمي... اسمحي لي أن أستخدم هذا التعبير في هذه المرحلة من حياتي، وما كان لي أن أستخدمه في ذلك الحين؛ فالحق يقال: إنني الآن بهيمي إلى أقصى حد، ولكن جفاءك الجنسي هو السبب. قد تجدين الكثير من الغرابة في هذه العبارة: الجفاء الجنسي.. ولكنها الحقيقة. حين لا تكون الزوجة أو الحبيبة نموذجاً للأنثى المتهالكة على اللذة، فإن الرجل – سواء كان الحبيب أو الزوج – يتراجع في حسرة كئيبة؛ ويصمت طويلاً في انتظار المعجزة: أن تكون الحياة على نحو آخر.. ثم يتململ، وتتحرك أعصابه في جموح قاتل. حين يشعر باليأس، يتوجه إلى المغامرة مثلما فعلت.. لم تكوني امرأة، بل إنساناً يخشى الرياح والأمطار... أما كنت تستطيعين أن تعرفي القليل من طباع الرجل حين يحب حقاً، حين يوغل في حبه دون حذر، ويجد المتعة في قمع جميع النزوات الأخرى التي تفسد هذا الحب. في بادئ الأمر كنت ألتمس لك العذر، فقد عرفت منذ اليوم الأول، أنك تخافين رقابة الآخرين.. الخوف الغريزي الصامت الذي يحمي الصغيرات من الانزلاق. ولكنك كنت في الرابعة والعشرين، وذلك يعني أن خوفاً آخر، غير فطري، قد تغلغل في كيانك وأفسد عليك جميع الملذات... إنه الشعور بأنك مباعة، اغفري لي أنني كنت سيء الظن إلى هذا الحد، ولكنها البذرة التي أثمرت فراقنا النهائي... إن الشيء المباع يمكن أن يُباع مرة ثانية، وينبغي أن يُحافظ على جدته، أن لا يُستعمل إلا قليلاً، وإلا انخفض سعره. هذه هي العقلية المتوارثة في بيئتنا – لسوء الحظ – ولو لم أكن على يقين من أنك بريئة منها في الأصل، لما احتملت الحياة معك يوماً واحداً. كنت أقول: لابد من أن تنفض عن وجدانها الفتي هذا الغبار الملوث، وتعود إلى فطرتها السليمة... لابد من أن تستعيد جدارتها بالحياة، ككائن إنساني حر، يرفض جميع القيود، ويستجيب لنشوة الحب دون أي شرط مفروض... ولكنك لم تفعلي... بل كنت تتهمينني أكثر من مرة بالأنانية والجموح... وكيف يتاح للجسد أن يعرف غبطة الوجود، إن لم يكن أنانياً جامحاً. كيف تريدين أن أتوقف عن تذوق الهواء المنعش في أماسي الربيع، وروعة الغيوم السارحة في فضاء الخريف، وهمسات الموسيقى العذبة في سهرة شتائية.. كيف تريدين أن أتوقف عن الاستمتاع بهذه الأشياء، لمجرد أن هناك أعصاباً بليدة، لا تستجيب إلا للكسل والنوم والطعام؟.. أينبغي أن أنتظر يقظتها لكي أتحرر من أنانيتي... إذن حكمت على نفسي بالشقاء إلى أبد الآبدين، ليس هذا هو الإنسان.. أخرجي من القفص، يا ليلى، قبل فوات الأوان... «فلابد أن تتحطم بعض القيود!».

مكتبة علي بن صالح الرقمية

– توفيق –

* * *

وكتبت إليه ليلى:

«لم أخطئ في فهمك يوماً، بل عرفتك أكثر مما تعرف نفسك، ولذلك رفضت الانسياق في حياتك.. أيدهشك هذا؟، أعرف إذن أنك لم تكن تراني شيئاً مباعاً – كما تقول – إلا حين كانت تزيّن لك الأوهام أن هناك شخصاً آخر، أجدر منك بالحب وأشد عنفواناً، وأكثر ثراء، وأنه الشخص الذي كنت أحلم به، ولكن القدر وضعك في الطريق، ولما كنتُ في نظرك أداة في يد الآخرين، وهو ما تنطوي عليه كلماتك جميعاً، فقد آثرتُ الإذعان، وتصنُّعت حتى الحب، لكي أقنع نفسي بأنني اشتركت في صنع مصيري. أليس هذا ما تريد أن تقول؟.. نعم. ولكنك – مع الأسف – كنت دائماً تدور حول الحقيقة التي تؤمن بها، دون أن تعلنها في جرأة؛ أتعرف لماذا؟.. لأنك ترفض الاعتراف بالغيرة... إنها الغيرة يا توفيق، ولا شيء آخر. وقد يكون من أخطائي أنني اعتبرتها دليلاً قوياً على الحب، ومن ثم عمدت – دون أن أشعر – إلى التحفظ الذي أشرت إليه، وأية امرأة تستجيب لرجل مزعزع الروح؟... فلو أنها منحته كل شيء – على النحو الذي تذكر – لقضت على حبها إلى الأبد، لأنه سوف يأخذ منها الدليل القاطع على صحة أوهامه... أجل، يا توفيق، لو أنني فعلت لخطر لك على الفور أن جسداً يملك مثل هذه الموهبة في عالم اللذة، يجب أن يكون ضالعاً في المجون، عاجزاً عن الوفاء... وإذ ذاك، كيف أستطيع أن أُداري الموقف؟.. هذا ما كنت تجهله عني.. وسوف تحرص على هذا الجهل أبداً، لأنك – مثل أي زوج من جنس الرجال – منذ أن تحاول الفهم في هذا المجال، تصبح الزوجة امرأة من الجنس الآخر، لا إنساناً له كيانه الخاص وشخصيته. «كلهن سواء».. هذا ما تقولون دائماً، حين تعجزون عن الثقة بهن.. ثم تتحدثون عن «اللغز المحيِّر» الذي هو المرأة. لسنا ألغازاً مبهمة، يا توفيق، أقول هذا باسم جميع النساء.. إننا نفهم ببساطة ويسر، حين نؤخذ كما نحن، لا كما تريدون. فمن أنا مثلاً؟ أو ماذا كنت في حياتك؟ لقد كنتُ كل شيء في نظرك إلا حقيقتي... أنثى، حبيبة، زوجة، أم، ربة منزل.. ولكنني لم أكن ليلى في أي يوم... لو أنك أشعرتني مرة واحدة، بأنني ليلى التي تختلف عن زينب ورويدة وبهية وغيرها، لكنتُ لك إلى الأبد. لقلت لك في حب لا نهاية له، أن من خصائص ليلى المميزة، أنها زوجة الدكتور توفيق، لقد اختارت بملء حريتها أن تلحق به حيثما يكون. وحتى هذه اللحظة، لو قدر لك أن تفهم هذه الناحية، لما وجدتُ غضاضة في أن اعتبر نفسي، مطلَّقة الدكتور توفيق. ولكنك لن تفعل، لأن فراقنا النهائي، قد ألغى من وجودك، حتى مجرد التفكير العابر بهذه المسألة.. أتعرف لماذا؟.. لأنني لم أعد لك، ولن أكون...».

مكتبة علي بن صالح الرقمية

– ليلى –

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

17- من مذكرة الدكتور توفيق

«عارٌ علي بعد اليوم أن أحكم على إنسان أو أداوي أي مريض!..» بهذه العبارة افتتح توفيق اعترافاته الخاصة، بعد أن طلَّق ليلى من ناحية القانون والشرع والعاطفة، وتخلَّى نهائياً عن «بهية» في عناد مفاجئ لا تفسير له.. وهذا يعني أنه قد تخلى عن الجنس والسمعة والطمأنينة الداخلية، (من الواضح أن فقدان الحب في حياة شخص مثل توفيق، يعني عدم الاستقرار في شخصيته كلها؛ أي حبه للمرأة بكل ما في هذا الحب من حرارة ووجد..) والغريب أنه في هذه الآونة شعر بالحنين إلى أبيه، فكانت العبارات التالية في الصفحة الأولى من اعترافاته:

«أنا الآن في عزلة... وفي كل عزلة من هذا القبيل (لم يذكر شيئاً عن نوع عزلته) يعود الإنسان إلى مشاعر الماضي، ويُلغي كل شيء آخر... الحوادث.. الأشخاص.. الأشياء والصور.. ويحاول أن يستعيد جميع العواطف التي عرفها من قبل، وجميع الإحساسات «في المسودة يقول، حين يعود الإنسان فإنه يكون قد ألغى ما يحسه في الحاضر، يكون قد ألغى كل شيء.. آخر..»... هناك إحساسات عابرة في الماضي البعيد (لابد من الانتباه إلى تكرار كلمة الماضي في هذه السطور القليلة) أُلقيت في كهف النسيان، وكثيراً ما نتوهم أنها قد تلاشت إلى الأبد، فإذا هي تُبعث من جديد، كما لو أنها كانت مختبئة وراء ستار خفي، يحجب ضجيج الانفعالات الآنية.. من هذه الإحساسات، ما شعرت به حين رأيت أبي يبكي لأول مرة. كان علي أن أغادر المنزل، وكنا جميعاً نحس أن ذلك يمكن أن يكون إلى الأبد... ولم يكن أبي قاسياً، ولم يعن بي كثيراً أيضاً – هذا ما يجب أن يُذكر – ولكنه كان يمنحني الحب دائماً... ومن ثم فهو الذي غرس في نفسي إيماناً عميقاً بأن الإنسان الطيب، هو وحده الذي يوجد في العالم (هذا التعبير الغريب عن فكرة عادية كان يدهشني)... وكنت أتساءل لماذا يلجأ أبي إلى هذا.. لماذا لم يقل مثلاً الإنسان طيب في كل مكان؟ وقد عرفت الجواب على هذا التساؤل فيما بعد... كان أبي يعني بالعالم، عالم الإنسان وحده، أي العالم الذي تعي فيه كائناته أنها جزء منه؛ وذلك لا يتاح للبشر. فالبشر إذن هم وحدهم موجودون في نظر أبي، وجميع المخلوقات الأخرى ما تزال في عالم السديم، أي لم تأخذ أشكالها الحقيقية بعد.

وأن كل ما يُقال عن نذالة الأشرار إنما هو افتراء كاذب... وعلى الرغم من أن هذا الإيمان قد أوقعني في كثير من المآزق – كما رأيت فيما بعد – فإنني ما أزال أحتفظ بالكثير من الثقة بجميع الآخرين، ولا سيما من كان منهم في أحط منزلة من الشر والانحطاط الخلقي. ثمة شعور غريب كان يغزوني – كلما ذكرت أبي – أمام كل ما يتعلق بالأخلاق على نحو خاص.

لقد ورثت عن أجدادي الندم على ما فات. أنظر إلى الماضي، فلا أرى فيه غير الفجوات التي أستطيع ملأها بالتجارب الغنية، لولا هذه الوراثة الشريرة. أما جميع الذكريات الجميلة ففي عالم مظلم من النسيان.

أحاول أن أروض نفسي على أن أكون إنساناً جديداً، أن أكون العين البصيرة بمواطن السعادة في ماضي البعيد، فينتفض في أعماقي كائن بائس، ممزق الروح، غريب عني، كأنه من سلالة نشأت بين الأغلال، أو في أغوار الكهوف... كائن يخاف ضياء الشمس، ولا يحب من الحياة إلا ما يبعث الألم والعذاب.

لماذا لا أرى هذا الشتاء الجميل؟ الأمطار الهادئة، والفضاء الرمادي جانح إلى البياض كأنه ينذر بالثلوج،... والشارع الكبير يتحرك بصغار التلاميذ، وشجرة الصنوبر الوحيدة، عند الجسر... كيف تنتفض الأحزان في هذه النفس الشقية... إلى الجحيم كل أخطاء الماضي، وكل الانفعالات الخائبة.. ما دام الحب قد انطوى، فلتكن قاسياً كالصخر!..

لا شيء يجدي. إن الكلمات هي سلاسل محكمة الحلقات، تشد القلب إلى كل ما هو مألوف بليد، وتفسد بإيقاعها المتكرر، مجال الألحان الساحرة التي يرسلها ضياء الشمس من خلال الشجر.

الغيمة السارحة في الأفق هي نشيد الحياة الفرحة، من ورائها يطل الغروب الذهبي، كأمواج متدفقة من الحب والحنين، والطيور السابحة في الفضاء تلتقط همسات النسيم الدافئ، نغمة نغمة. والبصر الإنساني يريق شهوة الجوارح من خلايا الجسد، كما لو أن الحياة ليست إلا تجربة أخيرة.

منذ زمان كالأبد، وهذه الوجوه تراها من رصيف الشارع. لم تبدل منها الأيام شيئاً. الكلمات نفسها تقال وتتردد ألف مرة على الشفاه. والخواطر نفسها تضطرب في ضمائر الناس، فتسمّرها النذالة..

الأخاديد، تتسع يوماً بعد يوم على الوجوه المستسلمة، وقد رقد فيها ماء الحياة ...

* * *

مكتبة علي بن صالح الرقمية

هوامش

[1←]
(1) مجلة الطليعة المحتجبة ، دمشق 14/10/1970.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

[2←]
(1) انظر: كتاب الاحتفاء، دار الحوار، الطبعة الأولى، اللاذقية 2002.

مكتبة علي بن صالح الرقمية

[3←]

(*) لم ينشر هذا الفصل عند صدور المؤلفات الكاملة، نظراً لضياع عدد من المشاهد والأوراق. وقد اضطررنا إلى تسميته بالفصل الثالث، لأن الرواية كما أرادها الراحل صدقي إسماعيل، هي (ثلاثية) ولم يطلق على القسم المنشور منها، أي اسم لفصل أول أو ثانٍ، لذلك هي تسمية اعتبارية فقط... وقد تمت الآن فصول الرواية بعد أن وجدت معظم الأوراق والفصول التي كانت ضائعة (ع. ح).

جدول المحتويات

هذه الرواية

كلمة

-1-
-2-
-3-
- 4 -
- 5 -
- 6 -
- 7 -
- 8 -
- 9 -
- 10 -
- 11 -
- 12 -
- 13 -
- 14 -
- 15 -
- 16 -
- 17 -
- 18 -
- 19 -
- 20 -
- 21 -
- 22 -

المـاضـي

1- المرتـزقة

2- جـعفــر

3 - العـــدد

4 - بـــهيـــة

5 - العـشـــاء

6 - أزمة الدكتور توفيق

7 - مأساة السياسة

8 - الخيانـــــة

9 - العـــداء

10- الحـسـم

11- اليقظـــة

12 - عـودة إلى السياسة

13 - البـعـث

14 - الوحـدة

15 - عـــودة

16- رسائل متبادلـة

17- من مذكرة الدكتور توفيق